جمال عبد الله مصطفى

بناية ليليان

رواية

بناية ليليان

رواية

جمال عبد الله مصطفى

مشروع النشر الحر

الإصدار رقم: 618 - نوفمبر 2021

رقم الإيداع: 2021/26400

الترقيم الدولي: 978-977-6883-69-7

منشورات دار لوتس للنشر الحر

www.lotusfreepub.com

القاهرة الكبرى: 37 شارع جمال عبد الناصر – فيصل – الجيزة

هاتف / واتسآب: 01091985809 +2 0237390893

المغرب: الدار البيضاء 270 زنقة 16 – حي البركة – مولاي رشيد

هاتف / واتسآب: 0664391261 +212663488377

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول؛ وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر، وجميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى أُمي الحبيبة..

أعرف أن داء النسيان، قد اجتاح ذاكرتك، وأن الوهن، قد دب في جسدك، وأن قطار الحياة، قد أوشك على التوقف. كم أتمنى من الله.. ألا تكبرين.. ألا تمرضين.. ألا تشيخين.. ألا ترحلين يوماً عني..!

جمال عبد الله

(.. وإني لأعرفُك يا إسكندرية الشتاء. تُخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب، فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة، وتعمُر حُجراتك بالمُناجاة والسمر..)

ميرامار

نجيب محفوظ

-١-

الإسكندرية..

شهرزاد التي لا تكُف عن سرد الحكايات.. تُواصل ظُلمة الليل ببياض النهار.. بلا خطوط فاصلة.. سكُون الليل يُهدي لشوارعها ضجيج النهار، والسماء تُهدي لميادينها المطيرة، مظلة من السُحب، لكي تتوارى تحتها من زخات المطر المتساقط بلا توقف، فلا يبتل نخيلها، ولا يغرق عُشاقها، ولا يتوقف دورانها.

وصوت (فيروز) يصدح.... شط إسكندرية يا شط الهوى..

على ساحل البحر، بمنطقة الشاطبي، تطُل بناية ليليان، كشجرة عتيقة، مقطوعة الأغصان، أكلت الرطوبة واجهاتها، غسلت الأمطار نوافذها وشُرفاتها بضراوة، هاجمت أعاصير البحر العاتية جدرانها. عاش بداخلها مُختلف ألوان البشر، تناوبت عليها فترات الازدهار، وفترات الضعف والانكسار، مر بها الزمن حتى شاخت، وأيقن الجميع، أنها لابد أن تُغير من جلدها، لكنها ظلت صامدة، تتهكم بصمت، على الغُزاة الذين انحسروا تحت أقدامها، وانطوت صفحاتهم إلى الأبد.

بناها رياض باشا الأغا لفاتنته اليونانية ليليان، التي هام بها ذات صباح، فطوى حكاياته القديمة، هرب بها إلى الإسكندرية، وبنى لها تلك البناية الشامخة، ذات التصميم المعماري الفريد، الذي أبدعه المعماري الايطالي جياكومو السندرلوريا، الذي مزج فيه بين الطراز الإسلامي والإيطالي.

في مدخل البناية، تجد جُدرانها مُزينة بالنقوش وتيجان الأعمدة، ينتظرك المصعد الخشبي القديم، كتابوت عتيق من الأبنوس، بطوابقها الخمسة الشاهقة، التي يَحوي كل طابق منها ثلاث شقق، كانت سكنا للموظفين الأجانب، الذين كانوا يعملون في البنوك وشركات الصرافة والمدارس الأجنبية، بالإضافة إلى الطابق الأرضي، الذي كان يحوي صيدلية الدكتور ميشيل اسكندر، وحانة ديمتري، ومطعم الخواجة باكوس.

كان رياض مُحاميا وضيعا، حفي بين القصر، ودار المندوب السامي البريطاني، حتى حصل على الوزارة والباشاوية، كان فقيرا مُعدماً، أعطوه الوزارة وكأنها صدقة، فما أن سمعت زوجته حكمت، بخبر توليه الوزارة، حتى أنفقت باسم معالي الوزير، فوق العشرة آلاف جنيه في أسبوع واحد، استأجرت قصرا وفرشته، وصَيغت نفسها وبناتها، أكثرت من الخدم، اشترت أغلى ما في المحلات من الثياب، كل ذلك بالدَين، على حساب معالي الوزير.

عندما علم رئيس الحكومة، بما فعلته حرم معالي الوزير، قرر إقالة ذلك الوزير، الذي جلبت زوجته على الوزارة فضيحة، ولكن تدخل المندوب السامي البريطاني، وبقي رياض باشا في الوزارة، بل وتم إدخاله الوزارات بعد ذلك، خمس مرات مُتتالية، أدى رياض باشا إلى الإنجليز، خدمات تفوق ما قدمه المندوب السامي إلى بريطانيا، فما من مرة، أرادوا تدبير مكيدة للحركة الوطنية، إلا عهدوا إليه بها، اشتهر أمره بأنه سياسي داهية، لكن الحقيقة، أن زوجته حكمت كانت هي الداهية.

بعد استبعاده من الوزارة، دخل البرلمان، وكعادته في استغلال منصبه، تحول إلى سمسار وظائف، وقضاء حاجات، حتى كَون ثروة طائلة، ومع خُروجه

من البرلمان، تناساه الجميع، كأنه لم يكن يوماً، شخصية بارزة في مطبخ صُنع القرارات، فاعتزل العمل السياسي رغما عنه، قرر تعويض ما فاته في شبابه، فعاش حياة مترفة، يسهر طُوال الليل، في كازينوهات شارع عماد الدين و كلوت بك، يتنقل بين أحضان الراقصات والغواني، يصرف أمواله ببذخ وطيش.

حتى وقع في عشق فتاة يونانية تدعى ليليان، فارعة الطول، ذات عينين زرقاوين شديدتي الجمال، ووجه أبيض ممتلئ، وشعر أصفر مسترسل، وجسدا أنثويا لا يُقاوم، رآها ذات صباح، تعمل في محل للأقمشة بشارع المُوسكي، طاردها مُطاردة المراهقين، نصب شباكه حولها، بعطاياه التي لا تُقاوم، حتى فك شفرة قلبها، فارتمت بين أحضانه، تبادلا جرعات العشق بلا حدود.

علمت حكمت بسقوط زوجها الطائش، في عشق تلك الصُعلوكة اليونانية، فاشتعلت نيران الغيرة بقلبها، ودب خلافا عنيفا بينها وبين زوجها، فهجر البيت وتزوج من ليليان، وهرب بها إلى الإسكندرية، تاركاً زوجته وأولاده، تأكُلهم نيران الغيظ.

على شاطئ البحر في منطقة الشاطبي، أقام رياض باشا تلك البناية الشاهقة، نقش اسم زوجته ليليان على واجهتها، طلب من المعماري الايطالي، أن يجعل من الطابق الثاني شقة واحدة، لتكون سكنا لزوجته ليليان.

ظلت حكمت تُفتش عن زوجها، حتى عثرت عليه، وعرفت تفاصيل ما فعله، فأرسلت إليه ابنه حسين بك، حاول إقناع والده باللين، للعدول عن طيشه، وتطليق ليليان، والعودة إلى أحضان أسرته، لكن رياض رفض بشدة، فتطاول

عليه ابنه، فطرده رياض شر طردة، وهدده بأنه سوف يكتب كل ثروته، إلى زوجته ليليان.

فما كان من حكمت إلا أن اتفقت مع أحد فتوات الإسكندرية، ممن لهم باع في عالم الإجرام، فقتل رياض وليليان في شقتهما بالبناية، وسرق ما خف وزنه وغلا ثمنه، حتى تبدو الجريمة، أنها تمت بغرض السرقة، تم التحقيق مع حكمت وأولادها، خاصة ابنها حسين، الذي شهد الجميع، أنه آخر من زار رياض باشا من أفراد أسرته، لكنه أثبت بالأدلة، أنه كان بصحبة والدته، في حفل خيري، في إحدى الجمعيات الخيرية بالقاهرة، فَقيدت النيابة الحادث ضد مجهول!

بعدها آلت البناية إلى حكمت هانم، فأصرت على محو اسم ليليان، من واجهة البناية، لكن اسم ليليان ظل عالقا في ذاكرة البناية، مع روحها التي ظلت عالقة، بين جُدران شقة الطابق الثاني، فتُسمع أصوات مزعجة أشبه بالصراخ، تنبعث من داخلها، حتى مُنع الأطفال من اللعب أمام بابها، وكان بواب البناية، يقرأ آية الكرسي، وجسده يرتجف، حين يصعد أو يهبط، ماراً أمام بابها، حتى هجرها الجميع، ولم يجرؤ أحد على السكن فيها.

بعد قيام ثورة يوليو، وفي أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، تسابق الأجانب على الهروب من مصر، فأصبحت بناية ليليان، خاوية على عروشها، فعرض ورثة رياض باشا البناية للبيع، فاشتراها الحاج إبراهيم الرشيدي، وعمل الصيانة اللازمة لها، وأعاد تقسيم شقة الطابق الثاني، إلى ثلاث شقق، وانحصرت تلك الأصوات المزعجة، في الشقة نمرة (2) بالطابق الثاني، وتُركت مُغلقة لسنوات طويلة، حتى اعتاد الناس على تلك الأصوات، فلم

تعد تُرعبهم أو تُثير اهتمامهم، حتى اشتراها المقاول جابر عثمان، ومن يومها وهي مُوصدة الأبواب والنوافذ، لا يدخلها أحداً غيره، حتى ترددت الأقاويل، بأنه يستغلُها في أعماله غير المشروعة.

بعد وفاة الحاج إبراهيم الرشيدي، قام ورثته ببيع بعض شقق ومحلات البناية، فتحولت من الإيجار القديم إلى التمليك، يتغير سكانها بين الحين والآخر، إلا بعضاً من السكان القدامى، الذين تشبثوا بالبناية، فالإيجار زهيد لا يتعدى عدة جنيهات، ولا يملكون مأوي غير البناية، ولكن ورثة الحاج إبراهيم الرشيدي، كانوا يترصدون موتهم بفارغ صبر، فبمجرد أن يصل إلى مسامعهم، موت أحدٍ من سكان البناية، حتى يُسارعوا بالاستيلاء على شقته، فالإيجار لا يُورث، فيقومون ببيعها أو تأجيرها، فتتحول إلى عيادة، أو مكتب هندسي، أو مكتب مقاولات، أو مكتب محاماة.

-٢-

لم يكن خالد من سكان بناية ليليان، كان يسكن بناية الأباصيري، المُقابلة لبناية ليليان، مع أمه الحاجة نفيسة، لكنه عشق الجلوس في الشرفة، يتأمل تلك البناية العتيقة، بجدرانها العالية، وشرفاتها الواسعة، المُزينة بالزخارف والنقوش، والتي يشم منها رائحة الماضي. رغم عشقه لبناية ليليان، لكنه لم يكن يهتم بسكانها ولم يشغل عقله، بكل وافد جديد يفد إليها، والذين كانوا يتغيرون ويتبدلون كعقارب الساعة، فتنتقل الشقق من أسرة إلى أسرة، فتكون سكناً للأزواج الجدد، أو سكناً للوافدين من الصعيد، أو سكناً موسمياً لزوار الإسكندرية في شهور الصيف، وأحيانا تكون مرتعاً للنزوات، ومُلتقى للعلاقات السرية المشبوهة.

ما زال يتذكر حكايات والده، المحاسب عبد الحميد وهبة الذي كان يعمل في بنك الإسكندرية عن بناية ليليان، وعن ذلك المخبأ السري، الذي كانوا يهرعون إليه في صغرهم، مع سماع صفارات الإنذار، ليحتمون بداخله، خوفا من غارات الألمان، أثناء الحرب العالمية الثانية، وعن بقايا الأجانب، الذين كانوا يسكنون البناية، ومطعم خواجة باكوس، الذي تحول إلى مطعم الرشيدي للمأكولات البحرية، وصيدلية دكتور ميشيل اسكندر، التي تحولت إلى صيدلية دكتور شوقي المغربي، التي أصبحت علامة مميزة للبناية، ومن أشهر الصيدليات بمنطقة الشاطبي، وحانة ديمتري التي تحولت إلى مقهى الرشيدي، الذي احتفظ برائحة الحقبة الناصرية، حيث تجد صور

عبد الناصر، مُعلقة على جدرانه، ولا يكف مذياع المقهى، عن بث الأغاني الوطنية والنشرات الإخبارية، فكان يجمع سكان المنطقة، ليتابعوا بشغف، انتصارات الوطن وانكساراته، ينتظرون بشغف حفلات أم كلثوم، في أول كل شهر ميلادي.

من المشاهد التي لا يستطيع أن ينساها، أنه بينما كان الآباء من الجيران، يدخلون بيوتهم وفي يد الواحد منهم، كيس من الفاكهة أو الخضار، كان والده يحمل دائما المجلات والكتب، حتى أحب القراءة والاطلاع.

فجأة تغير كل شيء! فصارت الحياة بلا طعم، منُذ أن دبت الخلافات بين أبيه وأمه، فتحول البيت إلى جحيم لا يُطاق، لأسباب لم يقتنع بها خالد، اتهامات أمه المُتواصلة لأبيه، بأن مأمورياته التي تستدعي سفره، بدأت تتزايد في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى اهتمامه الزائد بمظهره، حتى أفلت من فمها سؤال إلى أبيه

- ممكن أعرف.. أنت بتروح الأزاريطة لمين؟

لم يكن خالد، بحاجة إلى ذكاء كبير، لكي يفهم أن أباه، على علاقة بامرأة أخرى، استمرت الخلافات طويلا، حتى دخل والده في صراع مع مرض القلب، استمر معه حتى قضى عليه، وصعدت روحه فجأة، وهو عائد من صلاة الفجر، أتى الزمن عليه، مثلما يأتي على كل شيء!

بعد الانتهاء من مراسم الجنازة، امتنع عمه شهاب وأسرته عن زيارتهم، واعُتبر ذلك بمثابة اتهام صريح لأم خالد، بأنها السبب في موت زوجها. انتظرت أم خالد بفارغ صبر، أن تظهر تلك الزوجة الثانية، لتُطالب بحقها في ميراث زوجها، لكن لم تظهر أية دلائل، تُشير إلى صدق تلك الاتهامات،

التي أودت بحياة زوجها، لكنها لم تُطق الانتظار، حتى تأتيها ضُرتها لتحرق دمها، قامت بحملات تفتيشية على حي الأزاريطة، لكنها لم تصل إلى شيء، فشعرت بالندم الشديد، لكن بعدما هدمت تلك الشكوك الواهية، أركان البيت، وأضاعت زوجها إلى الأبد، فكانت تقضي الساعات، تحتضن صورته، والدموع الساخنة تكوي عينيها، تزور قبره، تضع الورود، وتُوزع الصدقات على روحه، تتوسل إليه أن يُسامحها، ولكن بعد فوات الأوان!

كان وقتها خالد، طالبا بالمرحلة الإعدادية، فتولت أمه تربيته، غرست فيه تقديس العمل، مساعدة الآخرين، أن يكون اجتماعيا، وألا يكون منطويا على نفسه، كان لسيرة والدته الطيبة، وشخصيتها القوية، كمديرة سابقة لمدرسة الشاطبي الإعدادية، دافعا له أن يكون متميزا في عمله، كأخصائي اجتماعي في نفس المدرسة.

كانت حياته أشبه بمدينة قصفتها الأحزان، لولا تلك الروح الرقيقة، التي ملأت حياته سعادة، علياء ابنة عمه، التي كانت تسكن مع أسرتها في بناية ليليان، كانت أجمل أوقات حياته، تلك الأوقات التي قضاها معها على البحر، وبين المتنزهات والمقاهي ودور السينما وقلعة قايتباي، لم يستطع أن ينس ذكرياته معها، في مدخل البناية، على درجاتها الرخامية، مصعدها الخشبي، وسُلم البناية الذي يطل على الشارع الخلفي.

كان عمه شهاب، مهندسا بمديرية الري بالإسكندرية، وتم ترقيته ونقله إلى وزارة الري بالقاهرة، فهجر البناية ورحل بأسرته إلى القاهرة، ولكن عشق علياء للبحر، كان يدفعها دائما، أن تأتي إلى الإسكندرية، فتقضي معهم الإجازة الصيفية.

كان وجود علياء في حياته، يمنحه السعادة، وكان رحليها بعد انتهاء الإجازة،

يترك فراغا كبيرا في حياته، رغم عدم انقطاع الاتصال بينهما، فطوال فترات الدراسة، كان ساعي البريد، هو همزة الوصل بينهما، كانت تعشق كتابة الخطابات، واقتناء الصور الفوتوغرافية والروايات الرومانسية.

كما أن لكل بداية نهاية! ومع نهاية كل قصة حب مأساة! انقطعت الصلة بينهما تماما، بمجرد حصولها على ليسانس الآداب في اللغة الإنجليزية، تم تعيينها معيدة بكلية الآداب جامعة القاهرة، ولم يمر شهر على تعيينها، حتى أُعجب بها، أحد المعيدين بالكلية، فاتحها في طلب الزواج، فرحبت على الفور، فاصطحب أسرته إلى بيتها، وتم الزواج بسرعة غريبة.

رفض خالد حضور حفل الزفاف، لم يكن يتخيل أن تجلس علياء، في يوم زفافها، بجوار رجل غيره، كاد أن يُجن من فرط الدهشة، كيف ارتضت أن تتزوج من أول شخص يطرق بابها؟ كيف تناست عشقهما؟ تلك الذكريات الجميلة، التي لا تُنسى. لقد أدرك أخيرا، أن ما بينهما لم يكن حبا، بل كان وهما، عاش عليه لسنوات طويلة، حتى أدمنه رغما عنه، وحينما اقترب من التحقق، فر من بين يديه، ذاب كأمطار الشتاء في مياه البحر. فكانت الصدمة الأولي في حياته!

رغم الفراق غير المتوقع بينهما، إلا إنه كان ينتظر عودتها، كان لديه شعور غريب، أن فراقهما مسالة وقت، وستعود إلى أحضانه من جديد، توقع أن ينتهي زواجها بالفشل. خالد غير مؤمن بزواج الصالونات، يرى أن الحب، وعلاقات ما قبل الزواج، أساس الزواج الناجح، لكن ظنه لم يكن في محله، فامتد زواجها لسنوات طويلة، ورُزقت بالطفل تلو الآخر، وصارت مسالة رجوعها، شبه مستحيلة، فلم تَعُد كما تمنى، وظل خالد بلا زواج، في انتظار علياء التي لن تعود!

-٣-

بعد رحيل علياء، أغلق خالد قلبه عليها، رغم البنات اللواتي مررن بحياته، حتى مر به العمر، وقارب على الأربعين، وهو يعيش على وهم الانتظار، كل الفتيات اللواتي قابلهن، كن بمثابة علاقات عابرة، ما تلبث أن تزول، غير تلك الفتاة، التي تعرف عليها منذ سنوات، عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي.

أميرة عبد النعيم، فتاة في مقتبل العمر، من أسرة متوسطة، تُقيم في القاهرة، حديثة التخرج، عزب، منطلقة، مثقفة إلى أبعد الحدود، بينهما صفات كثيرة مشتركة، اعتاد التحدث إليها، فوجد نفسه معها، شعر أن هناك حالة عشق، تولدت بداخل قلبه، فصارحها بحبه، ورغبته في الزواج منها، لكنها صدمته برفضها غير المبرر، وفي نفس الوقت، طلبت منه أن يظل بجوارها، ألا يفارقها مهما حدث، لقد أصبح جزءاً من عالمها، لا يمكنها الاستغناء عنه، حاول الابتعاد عنها لفترة، لكنه لم يستطع، فعاد إليها سريعا، فوجدها منهارة لبعده عنها، فتعجب من أمرها، إذا كانت تحبه حقا، فلماذا ترفض الارتباط به!.

لطالما طرح عليها، ذلك التساؤل الذي أرهق عقله، رغم إجابتها المُكررة، بأنها تحتفظ بالأسباب لنفسها، حتى أخذته الظنون، أنها ربما تكون متزوجة أو مُطلقة أو أرملة ولديها أبناء، وأن تلك الصور التي أرسلتها إليه، ليست صورها الحقيقية، وأن ذلك الصوت، الذي ينبعث من هاتفها النقال، قد يكون برنامجا اليكترونيا، يُغير من طبقة الصوت، لقد قابل الكثير من تلك

الكذبات، عبر مواقع التواصل الاجتماعي، لكنه رغما عنه، اعتاد عليها، فأصبحت جُزءاً لا يتجزأ من عالمه، حتى ولو كانت كذبة، فإنها أجمل كذبة في حياته!

قرر أن يُؤجل فكرة الزواج، فصدمته في علياء ثم أميرة، جعلته يفقد ثقته في نفسه، فصب كل اهتمامه على عمله، فصار عشقه الذي لا يخذله أبدا، كلما أعطاه من اهتمامه، بادله من النجاح أضعافا. فمنذ أن عمل أخصائيا اجتماعيا، قرر أن يُمارس عمله، بمنتهى الاحترافية، لم يشأ أن يكون أخصائيا نمطيا، يجلس في مكتبه، يكتب تقارير وهمية، أو ينتظر شكاوى المدرسين من الطلاب، أو شكاوى الطلاب من بعضهم البعض، لكي يبدأ في حل تلك المشكلات، كان ينتهز فرصة غياب أحد المدرسين، فيدخل الفصل بدلا منه. استطاع التجول بين الفصول، يقضي ساعات بين التلاميذ، يُبحر بداخل عقولهم، فهؤلاء الأطفال الكبار، ضيوف جدد على مرحلة المراهقة، التي تُحدث تغيُرا فسيولوجيا، يشعر خلالها الطفل الكبير، برجولته المفاجئة، بظهور علامات البلوغ، على ملامحه وتصرفاته، فتجده شاردا طوال الوقت، يقف بالساعات في الشرفة، وغالبا ما تجد في الشرفة المقابلة، ابنة الجيران تقف أيضا في شرود، يأكل بنهم لكي تمتلئ عضلاته باللحم، يركل الباب بعنف عند دخوله، مما يشعره بالقوة، صوت الأغاني الصاخبة، لا تكف عن الصراخ بداخل غرفته، صور نجوم الكرة والفن، تحتل جدران غرفته، يرمق السيدات المكتنزات بشهوة، فإما أن يستسلم، لنزوات تلك المرحلة فيضيع، أو يتم السيطرة على تصرفاته، فيصبح سوي السلوك.

كان يستمع إلى مشاكلهم، محاولا إيجاد حلولا جذرية، فأغلبها مشاكل تتعلق

بطفرات فترة المراهقة، كان يحاول أن يُفرمل تلك المشاكل، بإيجاد بدائل لمتطلبات تلك الفترة. وكما كان مقربا من التلاميذ، كان صديقا لزملائه في المدرسة، يحكون له تفاصيل حياتهم ومشاكلهم، بلا خوف أو خجل، وكان يساعدهم كثيرا في إيجاد الحلول المناسبة.

خالد من النوع، الذي يُعتمد عليه، لديه كاريزما عالية، وقدرة على الاستفادة من الإمكانات الضعيفة، لتحقيق مكاسب خرافية، يمتلك القدرة على إبراز مزايا الأشياء، التي تبدو ظاهريا عديمة النفع، مما أثار إعجاب الأستاذ ناصر مدير المدرسة، فأوكل إليه إدارة شئون المدرسة، الإشراف على طابور الصباح، الإذاعة المدرسية، الأنشطة الرياضية والثقافية والفنية، التواصل مع أولياء الأمور، المدارس المحيطة، الجمعيات الخيرية، حتى صارت المدرسة، بفضل نشاطه وجهوده، مدرسة نموذجية بين مدارس المنطقة التعليمية، وتم تكريمه في يوم المعلم، وحصل على جائزة، أفضل أخصائي اجتماعي في محافظة الإسكندرية.

ـ٤ـ

كان خالد جالسا في مكتبه بالمدرسة، حينما دخل عليه رجل ممتلئ الجسد، حاد الملامح، واسع العينين، يرتدي بذلة زرقاء، ورابطة عُنق أنيقة، وقف أمامه غاضبا، مستفسرا عن ذلك الخطاب الممهور بخاتم المدرسة، الذي استلمه من ساعي البريد، وهو طلب استدعاء، ولي أمر الطالب أسعد إبراهيم أبو الحسن. حاول خالد أن يُهدئ من روع الرجل، ليُحجم تلك الغضبة غير المبررة، فالأمر لا يحتاج لتلك الضجة، إنها مشكلة بسيطة، بين ابنه وبين أحد زملائه في الفصل.

حاول الرجل أن يشرح لخالد، بأن هناك سوء تفاهم، لكنَه قاطعه، وطلب منه الجلوس والتحلي بالصبر، وطلب من بكري ساعي مكتبه، إحضار الطالب أسعد إبراهيم أبو الحسن من فصله.

مرت عدة دقائق، حاول خلالها أن يفتح حوارا، مع ولي أمر التلميذ، لكن ملامح الرجل الحادة، وفمه الذي لم يكف عن الزفير، حالت دون ذلك، أخرج الرجل علبة سجائره، وسحب منها سيجارة، لكن خالدا أشار إلى لوحة معلقة على الحائط، كُتب عليها بخط عريض (ممنوع التدخين)، نظر إليها الرجل بضيق شديد، أعاد سيجارته إلى مكانها في العُلبة، وأعاد العُلبة إلى جيب سترته، مرت الدقائق بطيئة ومملة، حتى عاد بكري وبرفقته الطالب. أسعد إبراهيم أبو الحسن، طفل كبير، نحيف الجسد، أبيض البشرة، ناعم الشعر، ولكن عينيه البنية، تحمل حُزنا دفينا، ما إن رأى والده، حتى تهلل

وجهه فرحا، حدق في ملامحه بسعادة، وكأنه يراه لأول مرة في حياته، بادله الرجل بنظرة الإعجاب، نظرة باردة جافة، خالية من أية مشاعر، والغريب أنه مازال على حالة الاندهاش التي دخل بها. نظر في ساعته، التي تلتف حول معصمه الممتلئ، طالب خالدا بالإسراع، فليس لديه وقت، ليضيعه في تلك المهاترات، مكررا سؤاله عن سبب تلك الدعوة، فقال خالد:

.ابنك عامل مشكلة.. ضرب زميله في الفصل!

نظر إليه الرجل مستغربا، تلفت حوله في الغرفة، وكأنه يفتش عن شيء، متجاهلا نظرات أسعد الحانية، التي لا ينكرها إلا جاحد، قال في ذهول، بعدما بلغ الغضب مبلغه:

.فين ابني ده يا أستاذ؟!

زاد السؤال من دهشة خالد، أشار إلى أسعد الواقف في ذهول:

.ابنك اللي واقف قدامك ده!

قام الرجل من مكانه، تحرك مقترباً من أسعد، تأمل ملامحه بدهشة، وضع يده على كتفه، فارتعد أسعد خوفا، شعر خالد أن هناك شيئا غير عادي، فقام من خلف مكتبه مقتربا منهما، خشية أن تتحول تلك النظرات العدوانية، التي رآها تنطلق من عيون الرجل، إلى مشاجرة حادة، سأل الرجل أسعد مستفسرا:

.أمك اسمها إيه؟

شعر أسعد بالخجل، تردد في ذكر اسم أمه، فصرخ الرجل فيه أن ينطق، مما اضطر خالدا، أن يقف بينهما، وطلب من أسعد، أن يُجيب عن سؤاله، فليس هناك أية إشكالية، أن يذكر اسم أمه، فاسم الأم ليس بعورة ليخجل منه، فارتعد أسعد خوفاً، ونطق اسم أمه في خجل.. سهير.

ما إن نطق أسعد اسم أمه، حتى ازداد الرجل غضباً، انتفخت أوداجه، اقترب من أسعد أكثر، لطمه على خده، بحركة مباغتة، أسقطته على الأرض، ثم نهض مسرعا، وارتمى بين أحضان خالد، الذي تدخل بينهما بقوة، حتى ينهي تلك المهزلة، بعدما تحول الرجل، إلى وحش كاسر، وسب أم أسعد، بأقذع الشتائم، ثم تحول بكلامه إلى خالد غاضبا:

. يا أستاذ ده ابن سهير.. أنا مطلق أمه من عشر سنين.. وبينا قضايا.. استدعي المحروسة أمه!

ثم تركهما، وهرع نحو باب المكتب، يهز جسده الممتلئ، ويحرك يديه في عصبية، لاعناً أسعد وأمه والنساء والزواج والأولاد والمدارس، ووزارة التربية والتعليم.

إبراهيم أبو الحسن، تاجر أخشاب سكندري، زير نساء، يتزوج فقط من أجل المتعة، تزوج من سهير، وأشبع رغبته فيها، وحينما ظهرت في حياته امرأة جديدة، هجر سهير وابنه أسعد، الذي لم يتعد عمره وقتئذ خمس سنوات.

انصرف أبو الحسن، تاركا ابنه غارقا في دموعه، اقترب منه خالد، مسح على شعره، وجفف دموعه، طلب منه أن يتناسى ما حدث، اعتذر له عن ذلك الخطأ غير المقصود، ما كان يجب أن يتم توجيه الخطاب إلى والده، وحينما سأله أسعد، من سيُحضر نيابة عن أبيه؟ طلب منه أن تحضر أمه، لتوقع بالعلم، ووعده بأنه سوف يجد حلا لتلك المشكلة، تبدل حال أسعد، وشعر بالرضا، الذي أزال عنه، بعضاً مما فعله أبوه، وانصرف إلى فصله.

ـ ٥ ـ

في صباح اليوم التالي، بينما كان خالد منهمكا في عمله، طرق أسعد عليه باب مكتبه، وأطل برأسه النحيف، استأذن للدخول، فأشار إليه خالد، فدخل ووقف أمامه في أدب جم، قال بصوت متلعثم:

. ماما.. واقفة.. على باب.. المكتب.. ممكن.. تدخل؟

سهير مختار، تنتمي إلى أسرة فقيرة، كان والدها يعمل موظفا، في إحدى شركات القطاع العام، استطاع بالكاد وعن طريق الدَين، تزويـج ثلاث بنات من أصل خمس، كانت سهير طالبة في المدرسة الثانوية، حينما رآها أبو الحسن، بصحبة ابنته سمر، زميلتها في المدرسة، أُعجب بجمالها المُفرط وجسدها المثير، فطلبها للزواج، أجبرها أهلها على ترك الدراسة الثانوية، وتزويجها في ذلك السن المبكر، حتى تتخلص الأسرة من أعبائها، فانصاعت رغما عنها، شفقة بظروف والدها، الذي كان مُهددا بالسجن، بعد إلحاح الدائنين، لسداد إيصالات الأمانة، التي أخذها على نفسه، ضحت بحياتها من أجل إنقاذ أبيها، ولكنها وقعت في شِباك، ذلك الرجل المزواج، دخلت معه في صراع بين أروقة المحاكم، حتى حصلت على الطلاق، وبعضٍ من حقوقها، استطاعت بالكاد، الحصول على تلك الشقة، التي تعيش فيها مع ابنها الوحيد أسعد، الذي أرادت أن تحافظ عليه، فقررت أن تعيش من أجله، رفضت كل عروض الزواج، التي شعرت بأنها ليست لإقامة بيت وأسرة، بل مثل زيجتها الأولى، من أجل المتعة. أدركت أن المرأة لا تنال من الزواج إلا الشقاء، فعزفت عن الزواج!.

أشار إليه أن يُدخلها على الفور، فدخلت في هدوء ملفت للنظر، ألقت السلام بصوت هادئ، مُشبع بالتقوى، فالتفت نحوها، وما إن رأى هيئتها، حتى طأطأ رأسه خجلا، وألقى إليها بابتسامة صغيرة. سيدة فارعة الطول، ممشوقة القوام، ترتدي عباءة سوداء طويلة، ونقاباً يُخفي وجهها، ولا يُظهر سوى عينيها العسليتين الواسعتين، صوتها رقيق هادئ يشع دفئا، لها عطر منعش، يُذكرك برائحة الياسمين، أشار إليها بالجلوس، فجلست وعيناها تتابعان عينيه، تتفحص ملامح وجهه، وفجأة سألته:

. أم خالد عامله إيه؟

نظر إليها مندهشا، فلاحظت تلك الحيرة، التي بدت على ملامح وجهه، فأردفت في حالة من الاستغراب:

. معقولة إحنا جيران ومتعرفنيش.. أنا ساكنة في شقة نمرة (6) في الدور الثالث بعمارة ليليان.

اشتعل قلبه، مع ضحكتها الرقيقة، مدت يدها ولامست يده، وحركتها في ود، وكأنها تعرفه منذ عقود، فانتفض جسده وانتابته قشعريرة، تحدثت عن مشكلة ابنها، وعن مشاكلها مع طليقها، وشعورها بالأسف، لما بدر منه، فطمئنها بأن مشكلة أسعد، لا تستدعي كل هذا القلق، سيقوم بإحضار زميله، صاحب المشكلة إلى مكتبه، ويقوم بعقد صلح بينهما، طلب منها أن توقع على إقرار بالتزام أسعد بتعليمات المدرسة، كما وعدها بمتابعة أسعد، فشكرته ومدت يدها، نحو ورقة بيضاء، ودونت عليها رقم هاتفها، وطلبت منه أن يتواصل معها، حتى تتابع مستوى أسعد، وحتى لا يتكرر ما حدث.

قررت الانصراف، فقامت من مكانها، ومدت يدها وصافحته، فشعر بنعومة يدها من تحت قفازيها، تمنى أن يمد يده، ليرفع ذلك النقاب الأسود، الذي يبدو كسحابة شتوية، تغطي وجه القمر، غاص في بحر عينيها، لكنه لم يصل إلى البر.

تحركت نحو الباب، لم يمنع نفسه من ملاحقة جسدها، الذي يتخفى تحت ملابسها الفضفاضة، لكنه انحنى خجلا، فلم يعتد التلصص على أجساد النساء، فبعد حبيبته علياء، وتلك المجنونة التي يحادثها عبر الفيس، لم يعد يفكر فيهن، كلهن عنده سواء، لكن لتلك المرأة طابعا خاصا، انصرفت من أمامه، ولكنها لم تنصرف من خياله، ظلت نظراتها تطارده، حتى نهاية اليوم الدراسي.

-٦-

أول ما فكر فيه خالد حينما عاد إلي البيت، هو سؤال أمه، عن تلك السيدة المنتقبة، التي تسكن في بناية ليليان، فسردت له كل تفاصيل حياتها، وكأنها تعيش معها.

أم خالد تعرف كل سكان بناية ليليان، فمنذ أن خرجت على المعاش، أصبحت حياتها فارغة، بعدما كانت مُفعمة بالنشاط والحركة، لم تجد ما يشغل وقتها، سوى الجلوس في الشرفة، والثرثرة مع الجيران، في حوارات عن مشاكل المعيشة والصحة والأولاد والزواج والطلاق، صارت تلك السيدة المُسنة، المُحنكة في شئون الحياة، العارفة بواجباتها تجاه الأهل والجيران، تفهم عادات وتقاليد المجتمع، وتُنفذها بحذافيرها، تفهم في أمور الزواج والطلاق والولادة والموت وواجب العزاء والأربعين، والهدايا المثلى لكل مناسبة.

اعتادت عقد مجلس النميمة، مع الجيران بداخل الشقة، فيجتمعن حول مائدة، تُعد خصيصا للنميمة، لتحكي كل منهن، تفاصيل قصة جارة، نجحت في معرفة تفاصيلها، وفك شفراتها، لتبدأ عملية السرد في جو يُثير فضول الأخُريات.

رغم أن تلك الجلسات، كانت تُثير غضب خالد، لكن ذلك لم يمنعه، من إلقاء أُذُنيه في الصالة، حيث يعقدن جلساتُهن، ليستمع إلى حكاياتهن، وخصوصا من عواطف المُثيرة، صاحبة الجسد المكتنز، والصوت الناعم، والضحكات التي تُثير الحجر.

عواطف مرزوق، أبرز عضوات مجلس النميمة، تسكن في شقة نمرة (7) بالطابق الرابع في بناية ليليان، يعمل زوجها هاني حارس أمن، في إحدى شركات البترول في السويس، حينما انتقلت عواطف حديثا إلى بناية ليليان، كان يأتي إليها زوجها، في نهاية كل أسبوع، جعل غياب زوجها وحضوره، الجيران يرتابون في أمر جارتهم الجديدة، حتى قامت إحداهن، بتوجيه اتهام مباشر إليها، أمام بقية الجيران، لم تستسغ عواطف ذلك الاتهام الباطل، وردت بقوة، بل ودخلت في عراك بالأيدي مع المتهمين، تفرج عليه سكان البناية، وفي نهاية الأمر، حضر زوجها في إجازته الأسبوعية، ووضح الأمر للجيران.

كانت عواطف تشعر بغصة في قلبها، كلما تذكرت ذلك الموقف المُحرج، الذي وجدت نفسها فيه، دون سابق إنذار، فقررت أن تنتقم من هؤلاء الشرذمة من الجيران، بالتلصص عليهم ومعرفة أخبارهم وفضحهم، حتى تطور الحال، وصارت تتدخل في شئونهم، لدرجة أثارت استياء وامتعاض الجيران، حتى أنه ذات مرة، تدخل أحد الأزواج، محذرا إياها من التدخل في شئونه وزوجته. يلقبونها في الشارع برويتر، لعلمها بكل الأخبار والأحداث، التي تقع خلف جدران البيوت، مع تغطية شاملة ونشرة مفصلة،عما حدث ويحدث، والغريب أن كل أخبارها صحيحة.

سأل أمه في تردد واضح، هل رأت وجه سهير، فضحكت بسخرية وضربته على كتفه، وقالت في ثقة، إن سهير أجمل من القمر، وجهها يشع نورا، عيناها عسلية، شفتاها كالكريز، وشعرها كسنابل القمح وقت الحصاد، فاضطربت مشاعره،وأزداد تعلقا بها، لم يستطع النوم طوال الليل، ظل يتنقل بين سريره والشرفة، يتطلع إلي شرفتها، المواجهة لشرفة غرفته، لكي يراها ولو لمرة واحدة، لكنه فشل بامتياز.

جلس كعادته يتحادث عبر الفيس، مع صديقته أميرة، ولم ينس أن يحكي لها، عن تلك السيدة المنتقبة، التي أطلت على حياته، كشمس دافئة في يوم شتوي بارد، فذكرته أن له قلبا، لابد أن يشبع من العشق، قبل أن تذبُل أزهاره، نصحته أن لا يُضيع الفرصة، طالما أن قلبه دق لها بشدة، فلابد أنه يُفكر جديا في الارتباط بها، بعد أن يتحرى عنها جيدا، قبل أن يقع في مصيدة الزواج، ولا يستطيع الفكاك منها، فطلب منها أن تطمئن، ففكرة الارتباط بمطلقة، غير واردة في قاموس حياته، إنها نزوة قلب مشتاق إلى العشق، وسيعود أدراجه بعد حين، شعرت أنه يُلمح أنه يعشقها، وأنه على يقين، أنها أرملة أو مطلقة، فقالت غاضبة

ومين قالك إني قلقانة أصلا؟!

-٧-

جلس خالد على مقهى الرشيدي، نادى على العربي نادل المقهى، فاقبل عليه بوجهه الأبيض البشوش، ولهجته البورسعيدية المميزة، طلب منه فنجانا من القهوة، وجلس متظاهراً بالانهماك في قراءة رواية، وعيناه على مدخل بناية ليليان، رأى سهير قادمة من بعيد، فهب واقفا، فاصطدم كتفه بصينية القهوة، التي يحملها العربي، فسقطت على الأرض، وأحدثت دويا، وتناثرت شظاياها، فالتفتت سهير ناحية الصوت، فرأته يمد بصره نحوها، التقت أعينهما، سمع ضحكتها العالية، تنطلق من تحت خمارها الأسود، ثم هرولت إلى داخل البناية، ألقى نظرة على جسدها، وهي تختفي بداخل البناية، اعتذر للعربي، وطلب منه فنجانا أخر من القهوة.

جلس يتصفح الرواية (... تفتح لي باسمة، ترتدي روبا أبيض حريريا، مثبتا بزرار في خصرها، أتلصص بعيني خلفها، لا أحد في الفراش الضيق، متناثر الأغطية، هل يسعها هي والكونستابل؟..) ثم أغلق الرواية في تكاسل واضح، لكنه توقف كثيرا، أمام اسم الرواية، التلصص، صنع الله إبراهيم، ظلت الكلمة لا تفارق عينه.. التلصص.

قرر التلصص عليها، مراقبتها عبر النافذة، لكنها لا تخرج إلي النافذة، إلا والنقاب على وجهها، وبمجرد أن تدخل شقتها، ترفعه عن وجهها، كما أن محاولة رؤيتها بداخل الشقة، شبه مستحيلة بالعين المُجردة، فقرر استخدام منظاره المعظم، الذي كان يستخدمه في معسكرات الكشافة،

ليتمكن من رؤية وجهها، لكنه خشي أن تكشفه وتكون فضيحة، رجل التربية والتعليم، يتلصص على جيرانه.

رغم تلك التخوفات، قرر التلصص عليها، معللا ذلك، برغبته الجادة في الزواج منها، فاستخدم المنظار المُعظم، تحين الفرصة حتى سكن الشارع، لكنها مازلت مستيقظة، غرفة نومها ما زالت مضاءة، فتحت باب الشرفة، خرجت مرتدية النقاب، لتجمع الغسيل، وكانت تمارس هذا العمل ليلا، لأنها تكره أن يراها الجيران، ثم هرولت نحو الداخل، رفعت النقاب عن وجهها، أطفأ خالد ضوء غرفته، وأوصد النافذة، واقترب بالمنظار من خلف الشيش، ألقى بعيونه إلى داخل غرفتها، ورأى وجهها، يشع نورا كالقمر، فتعلق بها أكثر.

. اللي عملته ده أكبر غلط.. أزاي تقتحم خصوصياتها بالشكل ده!؟

هذا ما قالته أميرة، حينما حكى لها عن تجربة التلصص، شعر بالخجل، من كلماتها المُعاتبة، ندم أشد الندم، أنه صرح لها بفعلته، ولكنه لا يستطيع، أن يُخفي عنها تفاصيل حياته اليومية، طالبها أن تلتمس له العذر، فبعد رؤيته لوجهها، قرر أن يدخل البيت من بابه، ويرتبط بها بالفعل، فأخبرته أنه لو أُعجب بها حقا، لما احتاج أن يرتكب تلك الجريمة الحمقاء!

. أنتي موش قولتي أتحرى عنها؟

. قلت لك أتحرى عنها.. موش تقتحم خصوصياتها بالمنظار يا متلصص!

لم يلتفت إلى كلمات أميرة المُعاتبة، لقد فكر جديا أن يرتبط بها، ولكنه حادث نفسه.. إنها مطلقة؟ ولديها طفل كبير.. وما المانع أن أتزوج بمطلقة!.. لقد كنت على أتم الاستعداد، أن أتزوج من علياء، لو طلقها زوجها.. الأهم أخلاقها.. وما ذنبها في كل ما حدث.. لقد تزوجت رغما عنها.. كما أن طليقها،

كما رأيت في المدرسة.. غليظ القلب.. فظ اللسان.. يغُلب على طابعه الجفاف والحدة.. يصُعب العيش معه.. ليس لديه رحمة بابنه ولا بزوجته. لكنه رغم كل ذلك قرر أن يراقبها أكثر، حتى يكتشف أكثر، ويطمئن أكثر، حتى لا يقع في زيجة، قد يندم عليها طوال حياته، كما نصحته أميرة.

-٨-

ظل خالد يراقبها على مدار أسبوع كامل، لم يرى منها ما يسوء، فهي ملتزمة في ملابسها، بداخل البيت وخارجه، تحافظ على صلاتها في أوقاتها، تهتم بابنها كثيرا، زوارها قليلون، لا ترفع النقاب عن وجهها، في حضور الرجال، حتى ولو كانوا من أقاربها.

في تمام الساعة السادسة، من مساء يوم الخميس، كانت ترتدي ملابس الخروج، اقتربت من أسعد المنهمك في المذاكرة، ربتت على كتفيه، فالتفت نحوها باسما، فبادلته الابتسامة، انحنت وقبلت رأسه، اشتم رائحتها، وأخبرها بأنها جميلة، ورائحتها خلابة، سألها في دهشة:

. رايحه فين يا ماما؟

ردت وعلى وجهها ارتباك غير مبرر، وشعور شديد بالخجل من نفسها، مما يُشعرك بأنها ستُطلق كذبة، غير راضية عنها، كذبة تحاول أن تخفيها، خلف عيونها شبه الدامعة، حتى عن نفسها:

. رايحه أزور أم مايكل.

تساءل خالد في دهشة، أين ستذهب سهير في هذا الوقت؟ والهواء يعزف في الخارج، والمطر ينهل بشدة، والغيوم تبرق في السماء، وتترك ابنها بمفرده في الشقة!

هرول نحو الشرفة، وعيناه ترمق باب البناية، أنتظرها كثيرا، لكنها لم تخرج، ففهم أنها قد تكون، في زيارة لإحدى جاراتها في البناية، أو أنها عادت إلى

شقتها من جديد، فعاد إلى غرفته، وتلصص على شقتها، فوجد أسعد ما زال جالسا بمفرده، منهمكا في مذاكرته، ولكن وقع نظره، بداخل الشقة نمرة (4) بالطابق الثالث، المقابلة لشقتها، فرأى شيئا غريبا، رأى سهير بداخلها، تخلع النقاب، وتتحرك عبر الصالة بحرية كاملة، لم يبال بما رآه، قد تكون في زيارة لجارتها، وقد تكون جارتها بمفردها، وزوجها خارج البيت، وبالتالي لا داع لارتداء النقاب، ظل يتابعها، حتى هدأت حركتها، وكأنها في الشقة بمفردها.

مرت ساعتان، تنقل خلالها خالد بمنظاره، بين شقة سهير وشقة جارتها، حتى ظهرت سهير من جديد عبر الصالة، ترتدي النقاب، ثم اختفت تماما، فانتقل بالمنظار نحو شقتها، فوجدها قد وصلت إليها، كان أسعد قد انتهى من المذاكرة، دخلت عليه غرفته، فوجدته يغط في نوم عميق، قبلت رأسه، ثم أحكمت الغطاء على جسده، ثم أغلقت جميع نوافذ الشقة، وأطفأت أنوارها.

استلقى خالد في فراشه، والشكوك تموج بعقله، يفتش عن حل لذلك اللغز، الذي رآه الليلة، وألف سؤال يطارده، لكن قفز إلى عقله السؤال الأهم، لمن تلك الشقة، التي كانت سهير تجوبها بحرية كاملة؟

دلف إلى المطبخ، فوجد أمه تُجهز طعام العشاء، فتح باب الثلاجة، أخذ برتقالة، وجلس يقشرها بجوار أمه، فتح معها حوارا، عن الجيران وجلسات النميمة، في محاولة لكشف سر ذلك اللغز، حاول أن يبدو كلامه غير مقصود، حتى لا يُثير تساؤلات أمه، سألها عن الشقة نمرة (4) بالطابق الثالث والمقابلة لشقة سهير.

. تقصد شقة المهندس طارق وفريدة؟

هز رأسه بالإيجاب، وتركها تسرد كل ما تعرفه، إنها شقة طارق، مهندس في مديرية الإسكان، وزوجته فريدة، محاسبة في بنك الإسكندرية، ولديهما ثلاث بنات، حياتهما دائما على صفيح ساخن، الشجار لا ينقطع بينهما، لا يمر يوماً، إلا بعد معركة عنيفة، لأتفه الأسباب، لا يرتاحان من ذلك الشجار، إلا يوم الخميس، حيث تأخذ فريدة بناتها، وتذهب إلى بيت أبيها، في حي محرم بك، من الصباح ولا تعود إلا قرب منتصف الليل.

كانت تلك المعلومات، بمثابة حل مؤقت، لوجود سهير في شقة طارق. إن طارقا في شقته بمفرده، فزوجته وبناته في حي محرم بك، حتى قرب منتصف الليل، مما يتيح لسهير أن تدخل الشقة، وترفع النقاب عن وجهها، وتتحرك بحريتها، تختفي ساعتين بداخل إحدى الغرف، وبالطبع تكون غرفة النوم.

يا لها من عاهرة! صدق زوجها فيما قاله عنها، لكنه خشي أن يكون قد ظلمها، وأنها كانت في تلك الليلة مع فريدة، وليست بصحبة طارق، قد تكون اضطرتها ظروفها المادية الصعبة، أن تقوم على خدمة فريدة، نظير مقابل مادي، وأنها قضت الساعتين بداخل المطبخ، تطهو الطعام، أو تغسل الآنية أو الملابس، وليست في غرفة النوم، فقرر أن يتابع شقة طارق، حتى يتأكد مما شاهده، قبل أن يتهمها بالباطل.

شعر بالخجل، وهو يحكي لأميرة، عن مراقبته لشقة طارق، فوبخته واتهمته بالتلصص، واختراق خصوصيات الآخرين، رغم إخبارها، بأنه أراد التأكد من حقيقة سهير، فأخبرته انه ليس مبررا، يبدو أن لعبة التلصص قد أعجبته، وتطورت معه كثيرا، وسوف تتطور أكثر فأكثر، لقد انتقل من التلصص على شقة سهير، إلى التلصص على شقة طارق، وسوف يتنقل بمنظاره، من شقة

إلى أخرى، ولن يشبع من تلك العادة الذميمة. إن متعة كشف أسرار الآخرين، سوف تدفعه إلى فعل المزيد، نصحته بأن يترك سهير في حال سبيلها، فهو لا يعلم بظروفها، التي دفعتها إلى ذلك، فالظاهر لنا وعلى الله البواطن، طلبت منه حسن الظن بالآخرين، أعان الله أصحاب الظنون السيئة، فهناك مسافات طويلة جدا، بينهم وبين الراحة. رغم تلك الحقيقة، التي حاولت أميرة، أن تقنعه بها، لكن فضوله ورغبته في كشف أبعاد لغز سهير، دفعاه وبقوة إلى الاستمرار في التلصص.

- ٩ -

يعيش المهندس طارق، في شقة نمرة (4) بالطابق الثالث، بين شقة سهير، ومكتب جابر عثمان للعقارات. الشقة موقعها ممتاز، فهي في مواجهة شقة خالد، مما أتاح له القدرة على رؤية جميع غرفها من خلال المنظار بوضوح، فعلى مدار أسبوع كامل من التلصص، على شقة طارق، وإلقاء أذنيه في صالة شقته، حيث يُعقد مجلس النميمة، استطاع معرفة الكثير، عن طارق وزوجته فريدة..

طارق الأشقر، رجل في الثلاثين من عمره، يمتلك جسدا رياضيا، ووجها شديد الوسامة، يمتلك شاربا ذهبي اللون، وشفتين مكتنزتين، وعيون بنية شديدة الاتساع، وشعر غزير يميل إلى الصفرة، متأنق في ملابسه وتصرفاته، لكنه دائم النقد لتصرفات زوجته، ليس لديه القدرة، على التعامل معها بالأسلوب الأمثل، رغم أن زوجته جذابة، طويلة، شقراء، تهتم بمظهرها كثيرا، تختار ملابسها بعناية، اهتمامها بتأنقها، لا يختلف بداخل البيت عن خارجه، تحاول دائما، أن تلفت نظر زوجها إلى ملابسها الأنيقة، ورائحتها المثيرة، وتسريحة شعرها، التي تتفنن في عملها، لكنها تختار أوقاتا غير مناسبة، تدخل عليه حجرة مكتبه، وهو منهمك في عمله، لتحاول شد أنظاره إليها، وكأنها تشن حملة عسكرية، تطالبه طوال الوقت، بإلقاء عبارات الغزل، حتى مل منها ومن رغباتها، تصرفات طارق الباردة مع زوجته، وَلَدَ لديها شعورا دائما بالشك، وعدم الثقة، فتتهمه دائما، بأنه على علاقة بامرأة أخرى.

كان طارق يستجيب إلى رغبات زوجته أحيانا، فيبادلها شوقاً بشوق، فيتعانقا بشغف، يتبادلان القبلات الحارة، ثم يسحبها إلى غرفة النوم، وأحيانا كثيرة كان يتجاهلها، فتحدث بينهما مشاجرة حادة، لا تخلو من إعلان رغبتها في الطلاق، تطالبه أن يتركها ويرحل، إلى تلك العاهرة، التي يمارس معها الرزيلة، بعدها تتركه وتهرول إلى الصالة، تجلس أمام التلفاز، تمسك بجهاز (الريموت)، تضغط على أزاره بعصبية، تبحث عن أغنية حزينة، أو مسلسلا مُدبلجا، أو برنامجا للطبخ، تشاهده بلا تركيز، تلقي بعبارات غاضبة، بعصبية شديدة، رافضة أية كلمة من بناتها، فيتحول البيت إلى جحيم لا يُطاق، فيعلن طارق عن غضبه، ويهرول إلى خارج الشقة، وما إن يخرج حتى تُفتش غرف الشقة الواحدة تلو الأخرى، تفتش في ملابسه، وتشتم رائحتها، والويل كل الويل، لو رأت على ملابسه، شعرة غريبة، أو رائحة عطر أُنثوي، غير عطرها المفضل.

حياتهما رتيبة، رغم المستوى المادي الذي يعيشونه، كل الأيام تشبه بعضها البعض، تحركاتهما داخل وخارج الشقة، منتظمة وثابتة لا تتغير، الذهاب إلي العمل في الثامنة صباحا، والعودة من العمل في الثالثة عصرا، بصحبة بناتهما، يعودون جميعا في غاية الإنهاك والتعب، يلتفون حول مائدة الغداء، في الرابعة عصرا، وفي المساء، ينهمك بناتهما في عمل الواجبات المدرسية، بينما يُضيع طارق وفريدة الوقت، أمام التلفاز، أو على شبكات الانترنت. وفي يوم الخميس، تأخذ فريدة بناتها، إلى بيت أبيها في حي محرم بك، ولا تعود إلا قرب منتصف الليل، وتترك طارق في الشقة بمفرده، يفعل ما يحلو له، وكأنها إجازة أسبوعية من سجن الزوجية.

-١٠-

ظل خالد يتابع شقة طارق، حتى جاء الموعد المرتقب، يوم الخميس، وفي تمام الساعة السادسة مساء، رآه يرتدي روب أحمر، ويهرول نحو باب شقته، فتح الباب ودلفت سهير، ترتدي عباءة ملونة ونقابا أسود، بمجرد أن دخلت حتى بدأت الأمور تتضح أكثر، استقرت في الصالة، نزعت نقابها، فظهر وجهها الأبيض، فتح طارق ذراعيه بنشوة، تعانقا بشغف، تبادلا القبلات الحارة، لف ذراعه حول رقبتها، سار بها نحو غرفة النوم، أخرج زجاجة الفودكا، التي يخفيها في درج سري بخزانة ملابسه، صب كأسين، وضع أحدهما في يد سهير، تأملته في قلق، وكزها في كتفها، أشار إليها أن تتناوله دفعة واحدة، تجرعته في اشمئزاز، اقشعر جسدها، وشعرت بالسخونة، تتسلل إلى جسدها، فابتسم طارق وتجرع كأسه دفعة واحدة، انتفض جسده في سعادة، وأظلم ضوء الغرفة، فيما عدا ضوءا أحمر خافتا، تاركاً نافذة الغرفة مفتوحة، رغم البرودة الشديدة، لم يهتم بغلقها، كما يفعل حينما يضاجع زوجته، فسهير ليست سوى نزوة، لن يغار على جسدها، كما يغار على جسد زوجته، احتضنها بقوة، وألقى بجسدها على السرير، غابا لنصف ساعة، وخالد في انتظار انتهاء تلك المعركة، حتى شعر بالملل، فألقى بالمنظار، وخرج إلي الشرفة، تابع حركة الشارع، المقهى ما زال مكتظا بالرواد، رغم أن الأمطار ما زالت تتساقط، وصوت أم كلثوم ينبعث بثورة الشك، شرد بعقله، يفكر في تلك السيدة غريبة الأطوار، التي تُظهر التُقى وتُخفي

الفجور، شعر بالضيق والاشمئزاز، فقرر أن ينزل ليجلس على المقهى، بعيدا عن تلك الأجواء التي تتعب عقله، بدل ملابسه، وسحب المظلة من خلف باب الشقة، متجاهلا سؤال أمه عن وجهته، نزل إلى المقهى، حاملا رواية التلصص، التي لم ينتهِ من قراءتها، جلس على أقرب مائدة، تطل على الشارع، أشار إلى العربي، طلب منه فنجانا من القهوة، شرع يتابع القراءة... (تتردد الزغاريد من منزل حكمت، ترفع سلمى عينيها إلى البلكونة،التي تعلو بلكونة صفوت، يقف فيها عبد الحميد المجنون، ابن صاحب منزلنا، في ملابسه الكاملة، والصحيفة المطبقة في يده اليمنى، يوجه نظراته إلينا..)

رفع عيونه عن صفحات الرواية في ذهول، بعدما رأى شيئا غير عاديا، فريدة زوجة طارق، تقترب بسيارتها الحمراء الصغيرة من البناية، نظر في ساعته، فوجدها تقترب من السابعة مساء، لقد عادت على غير موعدها، وقبل أن تنصرف سهير بساعة كاملة، حتما ستكتشف خيانة زوجها، وستكون فضيحة لسهير وابنها، وسيستغل طليقها تلك الفضيحة، في الانتقام منها بأية صورة، ولكن ما ذنب أسعد، أن تُفضح أمه! فقرر أن يتصرف وبسرعة، ليتفادى الجميع عواقب تلك الكارثة، حتى إشعار آخر.

تركت فريدة بناتها بداخل السيارة، وفتحت المظلة لتختبئ من قطرات المطر المتلاحقة، دلفت إلى صيدلية المغربي، اضطر خالد أن يدخل خلفها، تظاهر بشراء علاجا للبرد، رمقهما بعيونه، لأول مرة يراها عن قرب، رشيقة الجسد، شديدة الجمال والتأنق، تفوح رائحتها إغراء، يمتلك طارق جوهرة لا يقدر قيمتها.

وقفت أمام الدكتور مدحت مدير الصيدلية، فرمق جسدها من خلف نظارته

الطبية، هرش في ذقنه الخفيفة، فردت ذراعها الأبيض الناعم، فأمسكه برفق، وغرس فيه الإبرة، فأصدرت ألما بصوت منخفض، والأنسولين ينساب بداخل وريدها، فشعرت بارتياح، ابتسم الدكتور مدحت، وقال بنبرة غزل: .سلامتك.. ده أنا حتى أيدي خفيفة..

شعرت من كلماته الناعمة، التي لا تليق بلحيته الخفيفة، وعلامة الصلاة التي تعلو جبهته، أنها محاولة ساذجة للتحرش. فريدة من ذلك النوع من النساء، التي تكره أن يتطفل عليها أحد، تعتبر كل كلمة غزل، بمثابة محاولة للتحرش، غطت ذراعها في غضب، شكرته في تحفظ، انسحبت إلى خارج الصيدلية، فتحت المظلة من جديد، هرولت نحو السيارة حيث بناتها، اطمأنت عليهن، ومسحت على رؤوسهن في سعادة. كم تمنت أن تُنجب ولدا، تُريــح به قلب زوجها المراهق!

الذي تشعر دائما، بأنه يفتش عن امرأة أخرى، يُلقى في رحمها بذرة الولد، رغم قناعتها، بأن زوجها شهواني إلى أبعد الحدود!

خرج خالد من الصيدلية، متأملا جسد فريدة، الواقفة أمام سيارتها، تحادث بناتها في سعادة، بعدما أعادت وحدات الأنسولين، السكر إلى معدله الطبيعي. حتما ستعود إلى شقتها، لكنها اتجهت نحو (السوبر ماركت)، وقف خالد شارد الذهن، يفكر في طريقة لإيقاف تلك الفضيحة، أخرج هاتفه النقال، فتش عن رقم هاتف سهير، الذي دونته من قبل على ورقة، حينما كانت في مكتبه، طلبها عبر الهاتف، رن الهاتف كثيرا، حتى قبلت المحادثة، كان صوتها ناعما، مُشبع بالنشوة، وكأنها تُدير معركة شرسة، تُرهق قواها، غَيَرَ خالد من طبقة صوته بإحكام، وقال بمنتهى الحزم، حتى لا يُعطي مجالا للشك وعدم التصديق:

.الحقي ابنك أسعد.. خبطته عربية في الشارع قدام العمارة..

ألقى في أُذنها تلك الكلمات القليلة، وأنهى المحادثة بسرعة، على وقع صوت صرخاتها الصاروخية، التي أفزعت طارق، فهرول نحوها، كتم صرخاتها بيده، فأزاحته بعيدا عنها، والتقطت قميص نومها من فوق الأرض، وألقته على جسدها، ارتدت عباءتها على عجل، وهي تبكي بشدة، عرف طارق منها القصة بصعوبة، بأن هناك شخصا أخبرها عبر الهاتف، أن ابنها أسعد، قد صدمته سيارة أمام البناية، فطلب منها أن تهدأ، حتى لا تفضحهما بصرخاتها، انتهت من ارتداء ملابسها، بينما تلفح طارق بالروب الأحمر، وهرولا نحو النافذة، وتطلعا نحو الشارع.

وقف خالد تحت إحدى الشرفات، بعيدا عن قطرات المطر، وعينيه على شرفة شقة طارق، مرت عدة دقائق، حتى رأى سهير تطل من النافذة، وطارق بجوارها، نظرا إلى الشارع أسفل البناية، فلم يجدا شيئا، لكن طارق رأى زوجته فريدة، تقف بجوار سيارتها أسفل البناية، فأصابه الذعر، سحب سهير من جسدها، ودفعها نحو الداخل، مد يده في جيب بنطاله، أخرج ورقة مالية، وضعها في يدها، ثم صرخ فيها أن تغادر شقته حالا، قبل أن تصعد زوجته، وتكون فضيحة.

نظرت سهير إليه غاضبة، طارق يتعمد معاملتها، على أنها عاهرة، تنام بين أحضانه، من أجل تلك الورقة المالية، تأملتها في خزي، ولكنها في النهاية أخذتها، هرعت إلى خارج الشقة. بينما بدل طارق ملابسه، أخفى بقايا تلك الليلة الصاخبة، ثم قبع في غرفة مكتبه، في انتظار زوجته، التي عادت على غير موعدها.

عاد خالد إلى شقته، ليتابع الموقف عبر المنظار، بعدما عادت سهير إلى شقتها مهرولة، تفتش عن أسعد، تنادي عليه ودموعها تُغرق وجنتيها، وجدته جالسا في غرفته، يستذكر دروسه، اقتربت منه، احتضنته، قبلت رأسه، طلبت منه أن يسامحها، فسألها في تعجب:

.أسامحك على إيه يا ماما!

أخبرته والدموع تنساب على خديها:

.عشان.. سبتك لوحدك..

وعدته أن لا تتركه أبدا، أن لا تُعرض نفسها، لفراقه مهما حدث، هرعت إلى الحمام، خلعت ملابسها، حتى صارت عارية تماما، وقفت تحت نافورة المياه الساخنة، تدعك جسدها بيديها، لتمسح كل أثر تركه طارق، تبكي كطفل في صمت..!

توضأت، لعل الذنب يَسقُط مع مياه الوضوء، فردت سجادة الصلاة، أطالت في السجود، أطالت في الاستغفار، أطالت في البكاء، لعل الذنب يَسقُط عن جسدها، شعرت أن يد طارق، ما زلت تتحسس جسدها، والشيطان يوسوس في أذنيها، بأنها امرأة محرومة من العشق، هجرها زوجها، ولابد أن تُشبع جسدها الفائر، ولكن ما لبثت أن لعنت ضعفها وقلة حيلتها!

ولكن ظل السؤال الذي شغل عقلها، من ذلك الشخص الذي اتصل بها، واخترع تلك الكذبة، لكي يُنقذها من تلك الفضيحة؟ يبدو أن هناك شخصا، يُتابعها جيدا، وعلى تمام العلم، بما تفعله في شقة طارق، فانقبض قلبها، خشية أن يُفضح أمرها، فتخسر كل شيء!

انتقل خالد بالمنظار إلى شقة طارق، فوجده قد بدل ملابسه، جلس في

غرفة مكتبه، يتظاهر بإعداد لوحة هندسية، دخلت فريدة شقتها، وخلفها بناتها، ألقت بحقيبتها على الأريكة، وحملت الأكياس إلى المطبخ، فتشت بعيونها عن زوجها، في غرفة النوم، الصالة، الحمام، حتى وصلت إلى غرفة مكتبه، فوجدته عاكفا على إعداد لوحة هندسية، يخط على بياض سطحها بالقلم الرصاص، بدقة وتركيز شديدين، وقفت بجواره تتأمله، وهو منهمك في عمله كالحمل الوديع، ابتسم لها، وترك اللوحة، اقترب منها، لف ذراعيه حول خصرها، ألقى في أذنها عبارات الغزل، التي دغدغت مشاعرها، اقترب بشفتيه من شفتيها، فاشتمت رائحة الفودكا، تنبعث من فمه، فشعر بالخجل، أخبرها أن الجو شديد البرودة، وأن الفودكا تشحذ همته، وتساعده على النشاط والحيوية، والإقبال على العمل، فابتسمت وأطبقت بشفتيها على شفتيه، لم ينفصل عن جسدها، إلا بدخول ابنتهما الصغرى، تخبرها بأنها تريد أن تنام، فمسحت على رأسها، وطلبت منها أن تسبقها على غرفتها، فطلب منها طارق، أن تضع قطاتها الصغيرات في الفراش، ثم تعود إليه، فلديه حديث شائق، لا يحتمل الانتظار، تحركت في سعادة، لكنه أعادها بسؤاله:

.حبيبي رجع بدري ليه الليلة؟!

أخبرته أن أختها مشيرة، حضرت إلى بيت أبيها، بصحبة زوجها، وطارق يعرف جيدا، أنها لا تُطيق زوج أختها، تشعر بالذعر من نظراته الخبيثة، كأنه يُريد أن يأكلها بعيونه، مما يُشعرها بالخجل، ويُشعر أختها بالغيرة، ربت طارق على ظهرها، مسح على شعرها، عاود التغزل في جمالها، الذي يحسده عليه الجميع، فاقتربت منه واحتضنته، فطلب منها أن تطمئن على بناتهما، ثم تسبقه إلى غرفة النوم.

رغم شعور فريدة، أن طارق يخونها باحترافية شديدة، لكنها تعشقه بلا مبرر، لكن أكثر ما يجعلها تشمئز منه، أنه بمجرد أن ينتهي من ممارسة العشق معها، يُخرج من جيب بنطاله، ورقة مالية ويضعها في يدها، مما يجعلها تصرخ في وجهه، إنها زوجته، وليست عاهرة من اللواتي يمارس معهن الرزيلة!

رغم كراهية خالد لنفسه، لتلصصه على الآخرين، غير أنه فرح كثيرا، لأن الله أنقذه، من تلك العاهرة التي تدعي الشرف، أنقذه من تلك الزيجة، التي كانت سُتلقي به إلى الهاوية، لقد أضاف صورة سهير، إلى صور اللواتي، لا يريد أن يتذكر، أنه أحبهن يوما ما. أغلق النافذة، وألقى بالمنظار في درج مكتبه، ثم خرج على صوت أمه، تخبره بأنها قد أعدت طعام العشاء، رغم أن ليس لديه رغبة في تناول الطعام، لكنه جلس بجوارها ليفتح شهيتها للطعام، ويعطيها الدواء.

-١١-

عاد خالد من المدرسة، فوجد عربات الشرطة، تقف أمام بناية ليليان، ورجال الشرطة، يقتادون أحد سكان البناية، إلى إحدى العربات، لم يقتحم المشهد، ولم يسأل عن التفاصيل، رغم أن الفضول كاد أن يقتله، ولماذا يسأل، ومجلس النميمة يُعقد في عُقر داره!.

اقترب من بناية الأباصيري، فوجد صابر بواب البناية، جالسا على الدكة بجوار باب البناية، بوجهه الأسمر المستدير، بملامحه الحادة، وجلبابه الصعيدي، والعمة البيضاء فوق رأسه، واضعا لي الشيشة في فمه، سحب نفسا عميقا، أطلق نافورة من الدخان الأزرق في الهواء البارد، رأى خالد أمامه فترك الشيشة، وهب واقفا بجواره، متابعا نظراته نحو بناية ليليان، ابتسم في تهكم، وقال ساخرا:

هو في بواب عمارة.. يوصل للي وصلته ديه.. يا جابر!

نظر إليه خالد في تعجب، ثم تركه ودخل البناية، صعد إلى الشقة، فتش عن أمه، فوجدها تقف في الشرفة، فوقف بجوارها، فوجد سهير تقف في شرفة شقتها، تتحدث مع أمه، يتابعان ما يحدث في الشارع، لاحظ أن سهير تنظر إليه، وكأنها تريد أن تحادثه، فتراجع عدة خطوات، في محاولة للهروب من الحوار معها، فنادت عليه في محاولة للدخول معه في أي حوار:

. لسه أسعد مشاغب؟.. ومستواه الدراسي في النازل يا أستاذ خالد؟

طمأنها بأن مستواه الدراسي في تحسن مستمر، وأصبح على وفاق مع زملائه،

شكرته على اهتمامه بابنها، أخبرته أنها تتابع مستواه في اللغة الإنجليزية، مع الأستاذة مروة، طلبت رقم هاتفه النقال، لكي تتابع مستواه في باقي المواد الدراسية، هَم أن يُعطيها رقم هاتفه، لكنه تذكر أنه قد اتصل بها من خلاله، حينما أخبرها أن أسعد، قد صدمته سيارة أمام البناية، وبالتأكيد ستعرف، أنه هو الذي اتصل بها، فتجاهل طلبها، وتركها وهرع إلي غرفته، فتح درج مكتبه، فرأى المنظار قابعا في قاع الدرج، منذ أن ألقاه أخر مرة.

جلس بجوار أمه على مائدة الطعام، تذكر قوات الشرطة التي داهمت بناية ليليان، وقبضت على أحد سكانها، سألها مستفسرا عن ذلك الرجل، الذي قبضت عليه الشرطة...جابر عثمان.. بواب بناية ليليان سابقا، جاء من الصعيد، منذ حوالي عشر سنوات، بصحبة ابن عمه صابر، بواب بناية الأباصيري، كان يبدو عليه الفقر الشديد، الذي كان واضحا، من هيئته المُقززة، ملابسه البالية، رائحة الطين التي تفوح من جسده، لدغات البعوض التي تحتل وجهه وذراعيه، الشقوق التي ترسم خرائط جيولوجية على كعوب رجليه، والبقجة التي كان يحملها فوق رأسه.

توسط صابر، لدى كمال أبو زيد، محامي ورثة الحاج إبراهيم الرشيدي، والمسئول عن شئون البناية، حتى وافق على عمل جابر بوابا لها، أظهر جابر نشاطا ملحوظا في عمله، كان مطيعا إلى أبعد الحدود، فأحبه سكان البناية، ساعدوه كثيرا، أغدقوا عليه العطايا، ومع الوقت بدأ العمل كسمسار، في بيع وتأجير الشقق المفروشة، ومع مرور السنوات، بدأت تظهر عليه دلائل النعم، فتح مكتبا للعقارات في شقة نمرة (5) بالطابق الثالث بالبناية، تحت اسم (مكتب عقارات أبناء الصعيد)، اشترى سيارة أخر مُوديل، صار يمتلك

عدة شُقق في البناية، وترك عمله كبواب للبناية، لابن أخيه هريدي، الذي وفد من الصعيد.

أخيرا حامت حوله الشبهات، في عمله غير المشروع في تجارة الآثار، وتم القبض عليه، ولكن لم تمر عدة أيام، حتى تم الإفراج عنه، وعاد إلى مكتبه سالما.

فهم خالد سر تهكم صابر، على ابن عمه جابر، فبالتأكيد صابر على علم ودراية، بمصادر أمواله المشبوهة، التي جمعها خلال سنوات قليلة.

-١٢-

كان خالد جالسا في غرفته، يحادث أميرة عبر الفيس، شكت له من سخونة تجتاح جسدها، فطلب منها أن تذهب إلى الطبيب، أخبرته بأنها قد أخذت بعض الأدوية، وشعرت أن درجة حرارتها، قد بدأت في الانخفاض التدريجي، طلب منها أن تهتم بصحتها، فسألته في سخرية:

. عشان مين يا حسرة؟

سكت طويلا ثم أجاب بكل ثقة وسعادة:

. عشاني أنا!

فرحت كثيرا، حينما شعرت باهتمامه وخوفه عليها، تساءلت في حيرة، هل يعشقها حقا؟ أم أنه اعتاد على وجودها في حياته؟ هل تبوح له بعشقها، وتعلقها بوجوده في حياتها؟ أم أنه سيخذلها، كما خذلها الجميع؟!

فجأة ظهر لخالد إشعار عبر الفيس، بأن هناك طلب صداقة، باسم الأميرة سهير، وصورة (البروفايل)، لسيدة منتقبة، فتح خالد صفحتها، وفتش في معلومات حسابها، فلم يتوصل إلى شيء، فأخبر أميرة عن ذلك الطلب المريب، الذي أرسلته إليه إحدى المنتقبات، فابتسمت وقالت في سخرية:

. الله يسهله.. اقبل الطلب وشوفها عايزه إيه.. وأنا أستريح وبعدين احكي لي.

بمجرد أن قبل طلب الصداقة، حتى أرسلت إليه صاحبة الطلب، رسالة إليكترونية، تخبره بأنها سهير، فشعر بالاشمئزاز، حاول أن يتهرب منها، فسألها مغتاظاً:

.أي خدمة.. أقدر أقدمها لحضرتك؟!

فشعرت بالحرج من رد فعله، فلديها رغبة شديدة، في التحدث إليه:

.حاسة إني مخنوقة أوي.. ومحتاجه حد أفضفض معاه

رق قلبه لها، رحب بسماع شكواها، سردت عليه قصة إجبارها على الزواج من رجلا مزواجا، وبعد زواجهما بشهور، بدأت تظهر عليها علامات الحمل، ومن يومها تبدلت العلاقة بينهما، حاول إجبارها على التخلص من الحمل، لكنها رفضت بشدة، تشاجر معها وضربها، حتى كادت أن تُسقط ما بداخل رحمها، أصرت على الاحتفاظ بالحمل، فهجرها وتزوج بغيرها، حتى أنجبت أسعد، كان يأتيها على فترات طويلة، وبدلا من أن يأتي حاملا أشواقه وحنينه، كان يهب عليها، كنوة شتوية غاضبة، حاملا المشاجرات التي لا تنتهي، حتى وصلت العلاقة بينهما إلى طريق مسدود، فطلبت الطلاق. وبعد سنوات من القضايا، أجبرته على فك أسرها، وحصلت على لقب مطلقة، كانت تجربة مريرة، قضت على ما تبقى من حياتها. حاول خالد أن يواسيها، بأن ما فعلته، يدل على رفضها الخضوع لجبروت زوجها، أعلنت عن رغبتها في استكمال تعليمها، طلبت منه أن يساعدها، في دخول امتحان الثانوية العامة، فوعدها أن يساعدها، وطلب منها أن تستعد لهذا القرار، حتى تحقق النجاح المرجو، وتلتحق بالجامعة.

أخذ الحوار مناح عديدة، لم يخلُ من محاولتها التقرب من خالد، الذي أبدى إعجابه بتأنقها وجمالها وسألها:

.أنتي لابسه النقاب عن اقتناع؟

صمتت قليلا ثم أخبرته، أنها تخشى على الرجال من فتنة جمالها، ولتؤكد له صدق كلامها، أرسلت إليه صورتها بدون النقاب، فشعر بالنشوة، من

جمال وجهها الأبيض الممتلئ، وعيونها العسلية المتسعة، وشفتيها القرمزية المكتنزة، فاستفزته أن يتغزل في جمالها:

.أنتي جميلة أوي.. ليه موش بتفكري تتجوزي؟

أعلنت له عن عزوفها، تكرار تجربة الزواج من جديد، لرغبتها في الاحتفاظ بابنها، فتهكم في سخرية، حادث نفسه.. ترفضين الزواج، وتمارسين الدعارة. لم يستطع إخفاء مشاعر الاشمئزاز والغيظ، كلما تذكر منظرها، وهى عارية بين أحضان طارق. شعر برغبة شديدة، في إنهاء ذلك الحوار، لقد صار يكرهها بشدة، لأنها جعلته يتلصص على الآخرين، رغماً عنه!، حتى كره نفسه، فسألها بلا خجل:

.كنتي بتعملي إيه في شقة مهندس طارق؟

تجمدت مفاصلها، شعرت بالبرودة تسري في جسدها، شعرت بأنه قد غُرس سكينا في قلبها، بمنتهى القسوة. صمتت طويلا، حاولت أن ترد، ولكن الكلمات وقفت بين أصابعها، تظهر عبارة جار الرد، ثم تختفي، حتى جاء الرد، الذي كان يتوقعه:

.أنت عرفت أزاي؟.. أنت بتراقبني؟!

.شفتك واقفة في شباك شقته!.

صمتت كثيرا، لقد عرفت الآن، الشخص الذي يتلصص عليها؟ الشخص الذي على دراية تامة بعلاقتها بطارق؟ الشخص الذي اتصل بهاتفها النقال، واخترع كذبة حادث ابنها، لكي ينقذها من الفضيحة، فأرسلت مُلصقا، عبارة عن دمعة كبيرة، ثم اختفت، تركته في حيرة شديدة، انتابه شعور كبير بالندم، ما كان يجب أن يجرحها بهذا الشكل، ما كان يجب أن يفضحها أمام نفسها، لام نفسه كثيرا، فهو لا يعرف الأسباب، التي دفعتها إلى تلك الفعلة، لماذا نَصَبَ نفسه القاضي والجلاد؟ لماذا فعلت بها ذلك يا خالد!

-١٣-

كان خالد جالسا في سريره، يستكمل قراءة رواية التلصص (..ننحرف يسارا في شارع مظلم بالأشجار. نتوقف أمام عمارة أنيقة. يقف لنا بواب نوبي. نستقل مصعدا نظيفا. يصعد ببطء دون صوت.أجلس فوق مقعد مثبت إلى جداره. نتوقف في الطابق الرابع. نطرق باب شقة طنط زينب. تفتح لنا خادمتها السوداء زهرة. ترحب بنا وتضمني إلى صدرها. تقبل خدي. أعرف قصتها من أبي. كانت ملك أهل طنط زينب. ثم ألغى الخديوي إسماعيل الرق. ولأنها لا تعرف أهلها أو من أين جاءت. بقت في خدمة طنط زينب...)

دقت الساعة الكبيرة في الصالة، معلنة تمام السادسة مساءً، فنظر إلى عقارب الساعة، ثم في لوحة التقويم، فوجدها تشير إلى يوم الخميس، فسرح بعقله، وعيونه على الشرفة، حادث نفسه.. هل ستذهب سهير إلي شقة طارق كالمعتاد؟ أم أنها أقلعت عن بيع جسدها؟

شعر بالاشمئزاز من تلك العاهرة. لقد كره اليوم، الذي قرر فيه التلصص عليها، لقد كرهها وكره تدينها المزيف، منذ أن رآها بين أحضان طارق، لقد أحسن عملا، حينما قرر الإقلاع عن مراقبتها، لكن الشيطان وسوس إليه، إنه لابد أن يتابعها الليلة، حتى يتأكد من توبتها، ولكن بمنتهى الحذر، حتى لا تكتشف تلصصه عليها. بالتأكيد سوف تأخذ حذرها الليلة، من عيونه التي تراقبها، فقرر أن يراقبها من خلال شقة طارق.

تردد كثيرا، قبل أن يمد يده إلى درج مكتبه، سحب المنظار، أطفأ أنوار

غرفته، وقف خلف شيش نافذته المغلقة، ليتابع شقة طارق، رآه يرتدي الروب الأحمر، ويتحرك نحو باب شقته، انتظر خالد أن تظهر سهير، لكنها لم تكن سهير!

كانت فتاة أخرى! يبدو من ملامحها وتصرفاتها، أنها فتاة ليل متمرسة، ترتدي معطفا أسود طويلا، بمجرد أن دخلت، حتى خلعت معطفها، فظهر قميصها الأحمر القصير، رفعت الإيشارب عن رأسها، فظهر شعرها الأصفر القصير، خلع طارق الروب، تجرع كأسا من زجاجة الفودكا، حتى شعر بالسخونة تجتاح جسده، اقترب من الفتاة، اشتم ما بين نهديها بنشوة، حملها بين ذراعيه نحو غرفة نومه.

فكر خالد، أن ينتقل وراءهما، ليتابع أحداث تلك الليلة الساخنة، لكنه خجل من نفسه، فليس هناك أدنى مبرر، لكي يقتحم تلك الجلسة الشيطانية. لقد تأكد أن سهير، قد أقلعت عن الذهاب إلى شقة طارق، وهذا ما كان يشغل عقله، انتقل بالمنظار إلى شقة سهير، فوجدها تجلس في الصالة، بجوار أسعد، تساعده في استذكار دروسه.

شعر خالد بالراحة النفسية، هم أن يُنزل المنظار عن عينيه، لكنها وقعت بداخل شقة نمرة (5) بالطابق الثالث، مكتب عقارات أبناء الصعيد، لصاحبه جابر عثمان. كان جابر واقفا بداخل مكتبه، يتحدث عبر الهاتف، أسمر الوجه كطمي النيل، طويل القامة، سمين بعض الشيء، يرتدي بذلة بيضاء. رغم الثراء الذي يعيش أوج مراحله، غير أنه ما زال بطينه كما يقولون لم تغيره المدينة كثيرا، تعجب خالد من تقلب الزمن، الذي يُعلي أناسا ويُخفض آخرين. هم بإغلاق النافذة، لكنه لاحظ أن هناك صندوقا خشبيا صغيرا،

يقبع فوق المكتب، أمام جابر عثمان، فتساءل في حيرة.. ماذا يحوي هذا الصندوق؟

أخيرا كانت المفاجأة، مد جابر يده بداخل الصندوق، أخرج تمثالا فرعونيا صغيرا، ضحك بسعادة لا تُوصف، برقت عيناه متأملا روعة التمثال، وهو يتحدث عبر الهاتف:

. أيوه يا باشا.. العروسة جاهزة.. ابعت العريس بالمهر..

أنهى المحادثة، أطلق ضحكة عالية، نفخ دخان سيجاره الكوبي في الهواء، ثم أعاد التمثال، إلى مكانه بداخل الصندوق وأغلقه بإحكام، وقف في الشرفة، ينفث دخان سيجاره في الهواء حالما، تساءل خالد في دهشة.. إذن فالبلاغ ليس كاذبا! جابر عثمان يتاجر في الآثار، ولابد من إبلاغ الشرطة. أمسك بهاتفه النقال، أبلغ الشرطة، لم تمر عدة دقائق، حتى سُمع أصوات عربات الشرطة، تُحاصر بناية ليليان، ورجال الشرطة يهرولون إلي مكتب جابر، ويلقون القبض عليه، وبحوزته التمثال الفرعوني.

شعر خالد بالرضا عن نفسه، شعر بعدم الخزي، من التلصص على سكان بناية ليليان، لقد أنقذ سهيرا من الفضيحة، وأجبرها على عدم الذهاب إلى شقة طارق، وأبلغ الشرطة عن جابر عثمان تاجر الآثار، لكنه سأل نفسه.. لماذا يترك طارق، يخون زوجته ويتلاعب بأعراض الناس، لقد خشي أن يفضحه أمام زوجته، التي حتما سوف تطلب الطلاق، وتضيع أسرته من وراء تلك النزوات.

قطع سيل أفكاره، صوت أمه المُشبع بالسعادة، سحبته من ذراعه نحو الشرفة، وأشارت إلى بناية ليليان

. عرفت اللي حصل.. البوليس قبض على جابر عثمان ومعاه آثار..

أبدى خالد دهشته، ابتسم وأمه تسرد له، ما قالته عن جابر عثمان من قبل، وكأنها نسيت أنها أخبرته من قبل، سحبها من ذراعها نحو الصالة، خوفا من أن ترى المنظار، المُلقى على وسادة سريره.

بعد عدة أيام، تم الإفراج عن جابر عثمان، وعاد إلى مكتبه سالما، بعدما تم عرض التمثال، على خبير آثار، وأكد أن التمثال ليس تمثالا فرعونيا، ولكنه تمثال مصنوع من النحاس، من تلك التماثيل التي يتم بيعها للسياح، في خان الخليلي بالقاهرة، والموجودة بالبازارات المنتشرة بشوارع الإسكندرية.

لكن الرواية التي أكدها مجلس النميمة، أن ضابط الشرطة، الذي كان يقود حملة القبض على جابر عثمان، طمع في التمثال الفرعوني، وقرر الاحتفاظ به لنفسه، واستبدله بذلك التمثال المزيف، بالاتفاق مع جابر عثمان، مقابل أن يُخرجه من تلك القضية، التي كانت ستلقي به في السجن إلى الأبد.

-١٤-

كان خالد منهمكا في عمله، حينما دخلت عليه مروة، مدرسة اللغة الإنجليزية، تلك الفاتنة، ذات الشعر الأحمر القصير، والوجه المطلي بالأصباغ، فبدت وكأنها إنجليزية المولد والنشأة، ترتدي بلوزة صفراء ضيقة، يكاد أن ينفجر منها نهديها، وبنطال جينز أسود ضيق، يظهر مؤخرتها الملفتة للنظر، ألقت تحية الصباح باللغة الإنجليزية، رد خالد باللغة الإنجليزية، فضحكت وبرزت أسنانها البيضاء المتسقة، من بين شفتيها الوردية المنمقة، عدلت من وضع نظارتها، التي تُخفي خلفها حجرين من العقيق الأخضر، قالت في خجل:

. SORRY.. افتكرت نفسي جوه الـ CLASS..

أشار إليها بالجلوس، جلست وبدا على وجهها مشكلة تؤرقها، سألها عن أسعد، فأخبرته أن مستواه ممتاز، وأن أمه تتابع مستواه، طوال الوقت عبر الهاتف، نظرت في عينيه وابتسمت خجلا، سألها عن سر تلك الابتسامة، فأخبرته أنها تعاني من مشكلة كبيرة، وتحتاج إلى مساعدته، بصفته أخصائي اجتماعي بالمدرسة، المشكلة أن هناك تلميذاً في الصف الثالث، يحبها.. ثم ضحكت كثيرا، فسألها في ذهول:

. عرفتي أزاي؟

أعطته رسالة بخط يد التلميذ، وموقعه باسمه.. كريم الدهشان، بدأ خالد في قراءة الرسالة، أسلوب التلميذ أدبياً رفيعاً، بغض النظر عن عبارات العشق الملتهبة، وكلمات الغزل العفيف منها والصريح، فهو في النهاية، طفل كبير، دخل للتو إلى مرحلة المراهقة.

شعرت مروة بالخجل، وخالد يقرأ الرسالة، فقامت من مكانها، واستأذنته في الانصراف، فأشار إليها أن تجلس، تردد كثيرا، وهو يحاول أن يشرح لها، سبب ذلك النوع من الرسائل، التي يكتبها التلميذ لمعلمته، أو لبنت الجيران، أو لزميلته في المدرسة.

إن التلميذ في هذا السن بالتحديد، يكون في أوج فترة المراهقة، تلك الفترة التي يسيطر فيها الجنس، على عقله ومشاعره وتصرفاته، خصوصا بعد انتشار الهواتف النقالة، وسهولة الوصول إلى المواقع الإباحية، التي تُلهب مشاعرهم، طلب منها أن تراعي التلاميذ في ملابسها، ثم قال في سره.. والمدرسين أيضا.

فقامت من أمامه، بعصبية شديدة، ضربت بيديها على مكتبه، نظرت إليه في غضب، اتهمته بالرجعية والتخلف، وأن القانون قد كفل لها، الحرية في ارتداء الملابس، طالما أنها تستر عورتها. حاول إقناعها بوجهة نظره بهدوء، فما كان منها، إلا أن ألقت في وجهه، بعدة عبارات حادة باللغة الإنجليزية، ظنت أنه لن يفهمها، فصمت ولم يرد، التزم الهدوء، حتى انتهت من إلقاء عبارات السب واللعن، وخرجت من مكتبه، وعيناه علي جسدها المثير. ضغط على زر الجرس الملاصق لمكتبه، فحضر بكري الساعي، فأشار إليه قائلا:

. هات الولد اللي اسمه كريم الدهشان من فصله.

مرت عدة دقائق من الانتظار، قضاها في قراءة الرسالة، باستمتاع شديد، حتى دخل كريم، رمقه خالد بنظرة إعجاب، ابتسم من ملامحه الغريبة، طفل طويل بعض الشيء، نحيل الجسد والوجه، طويل الشعر، يرتدي نظارة طبية سميكة، لديه مشروع شارب، يُريد الحفاظ عليه، لكي يبدو رجلا.

أشار إليه بالجلوس، فجلس على الفور، وبدا على وجهه، علامات الخوف والتوتر، اصفر وجهه فجأة، وأطلت البلاهة من فكه المتدلي، وصوته المتلعثم. ابتسم خالد في وجهه، ليزيل عنه بعضاً من قلقه، طلب منه أن يخبره بآخر نكتة، فتدلى فمه أكثر، تردد كثيرا، فكرر خالد طلبه، فأطلق نكتة قديمة ساذجة:

. مرة واحد رفيع.. بص من خرم الباب بعينيه الاثنين..

ضحك من قلبه، وهو يتأمل ملامح كريم، التي تشبه عصا ناظر المدرسة، لكنه طلب منه، أن يقول نكتة إباحية، صمت كريم كثيرا، من وقع المفاجأة، خشي أن يكون خالد، قد نصب له فخا، محاولا اختبار سلوكه، ولكن بطريقة غير مباشرة.

طال الصمت، وخالد لا يدري سببا لهذا الصمت، هل هو خجل؟ أم أن كريم، يفتش عبر جوجل عقله عن نكتة مناسبة؟ قطع خالد صمته، وتحرك من وراء مكتبه، ربت على كتف كريم، فانتفض واقفا، فطمئنه بابتسامة صغيرة، وقال في جدية بالغة:

. أقولك أنا نكتة.. مرة تلميذ خايب.. كتب لمدرسة الإنجليزي.. جواب غرامي قالها فيه..

مد يده وسحب الرسالة من فوق مكتبه وفتحها، وبدأ يفتش عن تلك العبارات الإباحية:

. عليك أسلوب يا ابن.. الدهشان.. كم أتمنى أن أنزع عنك تلك البلوزة الضيقة، لأشبع من نهديك.. ده أنت أديب.. بصراحة عندك حق.. مس مروة أوفر أوي.. مين بيديك اللغة العربية؟

. أستاذة عفاف..

. عمرك فكرت تكتب لأستاذة عفاف جواب إباحي.. رغم إنها أجمل من مس مروة.. ولا أنت زوقك أمريكاني.. يا ابن.. الدهشان.. قولي يا كريم.. إيه رأيك في أستاذة عفاف؟

صمت كريم خجلا، فسحب خالد الرسالة من جديد، متابعا نظرات كريم، ثم أردف:

. أستاذة عفاف.. محترمة في لبسها أوي.. ومحجبة.. قولي.. أنت شاطر في اللغة العربية؟

. أيوه.. اسأل أستاذة عفاف..

. بتقرأ روايات.. قصص.. شعر.. أنا ملاحظ إن أسلوبك ممتاز في الكتابة

. والدي عنده مكتبة كبيرة.. وأنا متعود أقرا فيها

. موش نفسك تكون أديب مشهور.. روائي زى محفوظ.. ولا شاعر زى شوقي؟

. ياريت يا أستاذ..

. خلاص سيبك من مس مروة.. وركز مع أستاذة عفاف..

. أزاي يا أستاذ؟

. يخرب عقلك.. أنت فهمت إيه.. عايزك تكتب قصة.. وتعرضها على أستاذه عفاف.. ولو عجبتها.. أنشرها لك في أخبار الإسكندرية.. وساعتها هتفرح أوي.

خرج كريم من مكتب خالد، وهو سعيد بتلك البداية الجديدة في حياته، لم يكن خالد ليعنفه، أو يهدده بالرفد من المدرسة، أو طالبه بإحضار ولي أمره، بل حاول أن يحول تلك الطاقة السلبية، إلى طاقة إيجابية.

أما مروة، فكان لابد من لفت نظرها، إلى الكارثة التي ترتكبها في حق التلاميذ، إن التلاميذ في تلك الفترة، يفتشون عن القدوة، التي افتقدوها في البيت والشارع والمدرسة، لابد أن تكون قدوة إيجابية، تمتلك أدوات بناء هذا الجيل، لا أن تشارك في هدمه، دون أن تشعر، لابد أن تفهم، أن هؤلاء الأطفال الكبار، لهم معاملة خاصة، لا يجب أن نضغط عليهم، أكثر من ذلك، يكفي ما يُذاع عبر القنوات الفضائية، ما هو مُتاح عبر الانترنت، ما يرونه من فوضى عارمة في الشوارع، يجب أن تكون المدرسة، هي النموذج الأمثل للتربية، بعد الانهيار الأُسري المتعمد.

ـ ١٥ ـ

اعتاد خالد أن لا يمر يوم، دون أن يحادث أميرة عبر الفيس، وإذا تغيب يوما عنها، ترسل إليه رسالة عبر الهاتف، لتطمئن عليه، مما أكد له، بأنه قد صار جزءاً لا يتجزأ من يومها، إذا لم يظهر خلاله، يُصبح يومها ناقصا، لكنها في الوقت نفسه، كانت تثير حيرته، هل تعشقه حقا؟ أم أنها اعتادت على وجوده في حياتها فقط!

حكى لها عن مروة، سرد لها تفاصيل ذلك الحوار المثير، الذي دار بينهما، فضحكت كثيرا، واتهمته بأنه قليل الذوق، جرح مروة ببرود منقطع النظير. كان من الممكن، أن يرسل إليها تلك الرسالة، بدون أن يجرح مشاعرها المُرهفة، فهي فتاة جذابة، ولديها ثقة كبيرة في جمالها، والبنت في تلك المرحلة من حياتها، تشعر بأنوثتها بشدة، تُحاول إظهارها بأية صورة، حتى تستطيع اقتناص فارس أحلامها، تجلبه إلي بيت أبيها، بعدها ستأخذها حياة الزوجية، وقد تذهب إلى المدرسة، بملابس المطبخ، تفوح منها رائحة البصل والثوم.

ضحك خالد من قلبه، كما لم يضحك من قبل، سألها عن أميرة، هل ما زالت محتفظة بتأنقها؟ أم أخذتها حياة الزوجية؟! فغضبت أميرة بشدة، لعدم تصديقه أنها غير متزوجة، وأن رفضها الارتباط به، بسبب ظروف خاصة، لا تستطيع الإفصاح عنها، شعرت بضيق شديد من تطفله المُستفز، خالد لا يكف عن إحراجها، توجيه الاتهامات إليها، أعلنت عن غضبها، ثم استأذنت وتركته.

شعر بالخجل من نفسه، فأرسل إليها رسالة عبر الهاتف، قدم لها اعتذارا، لكنها لم ترد، هم أن يغلق جهاز الحاسب، ولكن وصلت إليه رسالة من سهير

.أيوه كنت بروح لطارق شقته.. بس اعرف ظروفي الأول، وبعدين لومني!

قرأ الرسالة بسخرية شديدة، حادث نفسه بتهكم واضح، وسخرية لاذعة، من تلك السيدة غريبة الأطوار، تعترف بعُهرها بلا خجل! هل هناك مبرر لتلك الفعلة الشنيعة؟

لم يرد عليها، فأتبعت رسالتها برسالة أخرى، تطالبه بالرد، فأخبرها بأن هذا شيء لا يعنيه، فهي حرة في تصرفاتها، لقد كان مجرد سؤال، أراد أن يعرف، سبب تواجدها في شقة طارق، ولها مُطلق الحرية في ممارسة حياتها، بالصورة التي تراها مناسبة، فهو ليس وصيا على أحد. لم تحاول الكذب، تخبره بأنها كانت في زيارة فريدة زوجة طارق، لكنها آثرت الصدق، بأنها كانت بين أحضان طارق، الذي أغواها وأجبرها على ممارسة الرزيلة!.

طارق يفتش عن الجنس مع أية امرأة، كان ينتظرها أمام شقته، يتعمد ركوب المصعد معها، يمدح ملابسها المحتشمة، يتغزل في جمال عيونها، حاول أكثر من مرة، أن يتحرش بها، وحينما رفضت بشدة، تلك التصرفات الصبيانية، وهددته أنها ستشكوه إلى زوجته، تراجع مؤقتاً، لكنه حاول استغلال نقطة ضعفها، حاجتها إلى المال، وبالفعل استطاع، بعد محاولات كثيرة.

ذات مرة، جاء محصل الكهرباء، ولم يكن معها المال الكافي لدفع الفاتورة، فدفع المبلغ بالكامل، رغم رفضها الشديد، بل كان يُعطيها المال بسخاء، على سبيل السلف، على أن ترده إليه، بمجرد أن تحصل على نفقتها الشهرية من المحكمة، حتى تكاثرت عليها الديون، وحينما بدأ يطالبها بالسداد، لم تجد

ما تدفعه، فأغواها بأن تقضي معه، ليلة الخميس من كل أسبوع، ساعتين من المتعة، التي حُرمت منها، وتحصل على أموال، تُساعدها على المعيشة، فاستجابت له رغما عنها.

لكنها عادت إلى الله، حينما اتصل بها شخص مجهول، وأخبرها أن ابنها أسعد، دهسته سيارة أمام البناية، وحينما هرعت إلى النافذة، رأت فريدة زوجة طارق، تقف أمام البناية، كاد أن يُفضح أمرها، أمام ابنها وطليقها وسكان البناية، فأقلعت عن الذهاب إليه، أو الرد على هاتفه ورسائله التي لم تنقطع.

فكر خالد في طريقة، تُعدل من سلوك طارق، دون أن يُعرض أسرته للانهيار، طارق من ذلك النوع من الرجال، الذين لا يحتاجون إلى طبيب نفسي، حتى يتم تقويم سلوكهم، بل يجب أن يشعرون بالخطر الداهم من عاقبة تصرفاتهم، لكي يُقلعوا عن عاداتهم السيئة، طارق يخاف من تهور زوجته، ولابد أن تكون هي ورقة الضغط عليه.

عرض خالد على سهير، أن تساعده في تعديل سلوك طارق، فرحبت بالفكرة، تمنت أن لا تتعرض زوجته، لتجربة الطلاق المريرة، التي تُعاني منها، بسبب زوجها المستهتر، الذي ألقى بها على رصيف الحرمان. فريدة طيبة وكريمة، وأجمل بكثير من هؤلاء النساء، اللواتي يمارس طارق معهن الرزيلة، لكن استمراره في سلوكه، لابد أن يُوصل أسرته إلى المصير الأسود، فزوجته فريدة رغم طيبتها، عصبية جدا، ولن تتحمل تلك الصدمة، قررا أن يدخلا الشك إلى قلب فريدة، مع الحذر الشديد، أن لا تضبطه متلبسا، سألها خالد، هل لديها رقم هاتف فريدة، فأخبرته أنهما تبادلا أرقام هواتفهما، منذ أن قدمت فريدة إلى البناية، رغم أن علاقتهما ليست قوية، فأعطى خالد لسهير، الشريحة الاحتياطية لهاتفه النقال، طلب منها تنفيذ ما سيطلبه منها بدقة وحذر.

-١٦-

في تمام الساعة السادسة، من مساء يوم الخميس، أطفأ خالد ضوء غرفته، أوصد النافذة، اقترب بالمنظار من خلف الشيش، صوب نظره بداخل شقة طارق، فوجده واقفا في صالة شقته، في انتظار فريسته الجديدة. دُق جرس الباب، فتحرك طارق بالروب الأحمر، فتح باب الشقة فظهرت عواطف، ترتدي بنطلون أبيض شديد الضيق، وبلوزة حمراء، أظهرت جسدها المكتنز، نزعت الإيشارب عن رأسها، فظهر شعرها الأسود الطويل.

لم يتوقع خالد، أن تكون عواطف بتلك الأخلاق، يبدو أن غياب زوجها عنها لفترات طويلة، دفعها إلى الوقوع بسهولة بين براثن طارق، فزوجها اعتاد أن يأتي إليها أسبوعيا، ولكن ما سمعه خالد ذات مرة، من مجلس النميمة أثناء غيابها، أن زوجها بعدما تأكد، أنها غير قادرة على الإنجاب، تزوج من أخت زميله في العمل، واستقر في السويس، وترك عواطف تئن من الوحدة، ومع مرور الوقت نسيها، لم يعد يأتي إليها، كما تناسى أن يُرسل إليها، ما تحتاج إليه من أموال، فعطف عليها الجيران، فكانت تدور بين الشقق، تخدم وتقضي المصالح، ولكن بسبب عادتها السيئة، في نقل أخبار الجيران إلى مجلس النميمة، دفع الجيران إلى منعها، من اقتحام بيوتهم وكشف أسرارهم، عرضت عليها الفنانة المعتزلة سميرة سكر، التي تسكن في شقة نمرة (10) بالطابق الخامس في بناية ليليان، أن تعمل عندها في شقتها، لكنها رفضت بشدة، وقبلت العرض الذي قدمه الدكتور ثروت عياد، بالعمل في عيادته، فكانت تقضي النهار في العيادة، وفي المساء تتفرغ لحياتها مع الجيران.

بعد أن أنهى طارق ليلته مع عواطف، ظهرت في الصالة، تلف الإيشارب حول شعرها، اقترب منها واعتصر جسدها، استكمل وصلة التقبيل، ثم مد يده وأعطاها ثمن الليلة، وودعها عند باب الشقة، وشرع في التخلص من بقايا تلك الليلة الصاخبة.

في تلك اللحظة، طلب خالد من سهير، أن تحادث فريدة عبر الهاتف، كان قلب سهير ينبض بشدة، وهي تتصل بفريدة، حاولت أكثر من مرة، حتى ردت فريدة على الهاتف. فريدة من ذلك النوع، الذي لا يقبل المحادثات من الأرقام الغريبة، لكثرة المعاكسات التي تتعرض لها، لكن حينما يلح المُتصل، تضطر إلى قبول المحادثة، لم تترك سهير الفرصة لفريدة، أن تطيل معها المحادثة، قالت بصوت ناعم وبمنتهى الدلال:

.. طارق.. أنت في شقة الشاطبي.. أجيلك دلوقت؟

ثم أغلقت الهاتف، وتركت فريدة تشتعل بنيران غيرتها، ارتدت ملابسها على عجل، حينما سألتها أمها عن سبب عجلتها، بكت وصرخت بشدة، اتهمت زوجها بالخيانة، وأن إحساسها كان في محله، بأنه يجلب عاهرات إلي شقة الزوجية، سحبت بناتها، ركبت سيارتها، انطلقت إلى بناية ليليان، والجنون يسيطر على عقلها، تفكر بعمق، كيف تتصرف مع ذلك الزوج الخائن؟.

وقف خالد خلف النافذة، يتابع شقة طارق في قلق، لم تمر نصف ساعة، إلا وفريدة في شقتها، دخلت كإعصار مدمر، تفتش في كل ركن من أركان الشقة، اقتربت من زوجها تشتم رائحته، تتفحص وجهه، حتى كاد أن يموت رعبا، رغم محاولته، أن يبدو طبيعيا متماسكا، وعيونها تطلق نيران غضبها على جسده، فقرر أن يُنهي تلك المهزلة، فابتلع ريقه، وأزاحها بعيدا عنه، وصرخ فيها:

.هو في إيه.. مالك؟!

كشرت عن أنيابها، أمسكته من ياقة سترته، وفي غضب أنثوي، قارب على الانفجار قالت:

.فين العاهرة اللي كانت معاك دلوقت؟

ابتلع ريقه بصعوبة، أمسك يدها بقوة، أزاحها بعيدا عنه، وقال وهو يتهته:

.إنتي.. أنتي بتقولي إيه.. يا مجنونة أنتي؟!

أخذت هاتفه النقال، اتصلت بالرقم الذي اتصل بها، فوجدته غير مسجل على هاتفه، وجاء الرد..الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح.. فبرجاء الاتصال في وقت لاحق..

سقطت على أقرب كرسي، منهارة وجسدها يرتعش، صداع رهيب يضرب رأسها، بعدما ارتفع السكر في دمها إلى أقصى درجاته، وطارق يقف على أعصابه، عيناه تدوران في أركان الشقة، خوفا أن تكون عواطف، قد نسيت شيئا من متعلقاتها بداخل الشقة، فتكون كارثة!.

شعر أن زوجته في حاجة إلى جرعة من الأنسولين، فهرول إلى غرفتها، فتش عن قلم الأنسولين، حتى وجده في درج التسريحة، اقترب منها، غرس قلم الأنسولين في فخذها برفق، ثم ربت على كتفها، محاولا أن يهدئ من روعها، ويقنعها أن غيرتها المجنونة غير المبررة، قد تُشعل النيران في البيت يوما ما، أمسك يدها وقبل رأسها، شعرت أن وحدات الأنسولين، قد أعادت السكر إلى معدله الطبيعي، شعرت بالهدوء، حينما رأته راكعا تحت قدميها، طالبا العفو، لكنه هدوء مؤقت، حتى تطلق له العنان، للاستمرار في نزواته، حتى يسقط في قبضة يدها، ساعتها لن ترحمه.

بعد تلك الحادثة، بدأت فريدة تتابع طارق على فترات، تقوم بحملات مفاجئة عليه، تفتش غرفة نومه ومكتبه، تتفحص هاتفه النقال. كانت تلك الإجراءات، كفيلة بأن تُجبره على أن يفكر ألف مرة، قبل أن يجلب النساء إلى شقة الزوجية، وحينما جاء الخميس اللاحق، لم يُحضر امرأة كعادته، خشية أن تهبط عليه زوجته كالصاعقة، فتحرق البيت برمته.

ـ ١٧ ـ

كانت سعادة خالد لا تُوصف، لقد استطاع عن طريق المنظار، أن يُهذب من أخلاق طارق، كما استطاع تهذيب أخلاق سهير، وكان السبب في القبض على تاجر الآثار جابر عثمان. فقرر أن يُراقب باقي شقق البناية، التي تعُج بالمشكلات، التي رأى من وجهة نظره، أنه لابد من إصلاحها، فالناس في غفلة وتحتاج إلى من يُوقظها، لابد لهذا المجتمع، من مُصلح من نوع خاص، مُصلح يعمل على الأرض، لا يثرثر بمحاضرات عقيمة، مُفعمة بالحكم والمواعظ، تُمسح من الذاكرة، بمجرد الانتهاء منها، لابد أن يُجبرهم على ترك تلك الرذائل، أن يلتزم كل فرد من أفراد المجتمع، بميثاق المجتمع الأخلاقي، فالمجتمع بات فاسدا إلى أبعد الحدود، ولابد من إيقاف أفراده عند حدودهم.

لكن حدث ما أجبره، على الالتزام بميثاق المجتمع الأخلاقي، حينما كان يصلي صلاة الجمعة في مسجد الإمام الشاطبي، والإمام الواقف على المنبر، بعمامة الأزهر التي تعلو رأسه، والنور يطل من وجهه، والورع ينبع من كلماته. يتحدث عن التجسس، انخلع قلب خالد، أنصت إليه في اهتمام بالغ، شعر كأنه يخاطبه هو، يوجه إليه اللوم، يحاول أن يأخذه من فعلته الخبيثة، شعر بالرعب من عاقبة ما يفعله، مهما كان حسن النية. قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ

أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾.. حديثنا اليوم عن خُلق ذميم، ووصف قبيح؛ يُوغر الصُدور ويُورث الفجور، داء يُؤدّي إلى فساد الحياة وكشف العورات، ويُورد صاحبه موارد الهلاك.. إنه داء التجسس وتتبع العورات والزلات؛ داء يدل على ضعف الإيمان وفساد الخلق، ودناءة النّفس وخسّتها.. ويكفي التجسس سوءا وقُبحا أن صاحبه كالذباب، لا يكاد يقع إلا على المُستقذرات والمُنتنات والمُستقبحات ذوقاً وعرفاً، بل وشرعاً؛ لأنه لا يبحث إلا عن العيوب والنقائص،.. فمن الناس من ابتلي بهذا المرض، فتراه يتجسس على الناس في منازلهم وبيوتهم، للاطلاع على عوراتهم، والكشف عن سوءاتهم، إما بالاستماع من وراء الأبواب والنوافذ، أو بالنظر فوق الأسطح، أو بالدخول في البيوت، على حين غفلة من أهلها...

بعد انتهاء خطبة الجمعة، شعر خالد بدناءة ما يفعله، كيف سولت له نفسه، إتباع خطوات الشيطان، والتلصص على عورات الآخرين، مهما كانت نيته سليمة. قرر أن يمتنع عن التلصص على الآخرين، أن لا يتدخل في شئونهم، ألا يقتحم خصوصياتهم، أن يترك المجتمع وشأنه، فهناك سُلطات ومنابر مسئولة عن تقويم سُلوكهم، لكن الدرس الأصعب الذي تعلمه، هو ألا يصارح الآخرين بعيوبهم، عليهم أن يكتشفوها بأنفسهم، عليه أن يُصلح نفسه فقط، لأن ما يفعله هو الفساد بعينه، جريمة يُعاقب عليها الشرع والقانون، فألقى بالمنظار في درج مكتبه، وأعلن توبته عن تكرار تلك المعصية.

ـ ١٨ ـ

كان خالد خارجا من مكتب مدير المدرسة، سائرا في الممر الطويل المؤدي إلى مكتبه، حينما سمع صوت شخير مزعج، ينبعث من غرفة مكتبه، فهرول على عجل نحو غرفته، فوجد سمير مدرس مادة الدارسات الاجتماعية، يُلقي برأسه على المكتب، على وجهه ارتسمت علامات الإرهاق الشديد، النوم يملأ جفونه، يعزف سيمفونية شخير متواصلة، كأنه لم ينم منذ عقود.

سمير شاكر، شاب في العقد الثالث من عمره، طويل القامة، ممتلئ الجسد، قوي البنيان، أبيض الوجه، وسيم الملامح، حليق الذقن، له شارب قوي، يكسو الشعر جسده ويديه بغزارة، ظروفه الاجتماعية صعبة، يعيش في شقة أبيه، مع أخيه وزوجته وأولاده، رغم أن الشقة إيجار قديم، واسعة ومتعددة الغرف، لكنه لا يشعر بالراحة، خصوصا بعدما استولى أخوه، على الشقة بأكملها لزوجته وأولاده، ولم يترك له سوى غرفة واحدة، وضع فيها سمير كل ممتلكاته، سريره وحافظة ملابسه ومكتبته، فأصبحت محور حياته.

سمير لديه القدرة المالية على الزواج، غير أنه لا يمتلك شقة، ولن يستطيع أن يسكن بالإيجار، لأن ما سيتبقى من راتبه، لن يكفي بأي حال من الأحوال، أن يجعله يعيش حياة كريمة، ومن الصعب أن يقتسم الشقة مع أخيه، ومن المستحيل أن يطرده وأسرته منها.

هز خالد جسد سمير، في محاولة لإيقاظه من نومه العميق، فأفاق سمير وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة، فضحك خالد وقرصه من خده، كنوع من الهزار المقبول..

. مالك يا واد يا سمير..

. زهقت من البيت يا خالد.. ينفع تديني فصل في المدرسة أنام فيه؟

. ما تتجوز أسهل من كده!

ذكره سمير بمشكلة الشقة، التي لا يملك ثمنها، ولا يستطيع الالتزام بإيجار شهري، قد يلتهم راتبه، كما أن مواصفات زوجة المستقبل، صعبة المنال، فهو يريدها، متدينة، جميلة، مؤدبة، محترمة، هادئة، وهذه الصفات من الصعب أن تتوافر، في بنات تلك الأيام الصعبة، التي اختلط فيها الحابل بالنابل، فصار المجتمع كتلة من العشوائية، وتنمر الجميع، فأصبح من الصعب، أن تُفرق بين الطيب والشرير.

رغم اقتناع خالد بمبررات سمير، لكنه أخبره أن لديه عروس، فيها كل المواصفات التي يتمناها وأكثر، إنها تمتلك شقة في بناية ليليان، فتح سمير فمه كالأبله، وخالد يشرح له ظروفها، التي لم ترض سمير مطلقا، فرفض بشدة، وانفعل عليه، عاتبه عتاب الصديق لصديقه، كيف يستغل ظروفه الصعبة، فيُرشح له امرأة مُطلقة، ولديها طفل كبير، وبينها وبين طليقها، قضايا في أروقة المحاكم؟ حاول خالد أن يُقنعه، بأنها فُرصة لن تُعوض، وأن سهيرا على قدر كبير من الجمال والتدين.. بالإضافة إلى الشقة، التي ستحل جميع مشاكله.

صمت قليلا، كأنه يُدير الموضوع في رأسه، مط شفتيه الغليظتين، أخرج علبة سجائره، أخرج منها سيجارة، وهم أن يُشعلها، فأشار خالد إلى اللوحة المعلقة خلف ظهره، والمكتوب عليها (ممنوع التدخين) لكنه لم يهتم، أشعلها ونفخ دخانها في هواء الغرفة، متجاهلا تحذيرات خالد، زرع أرض

المكتب بخطواته المتثاقلة، أخرج آخر نفس من سيجارته، ثم ألقاها على الأرض، وداسها بحذائه، ثم نظر إلى خالد نظرة موافقة، وهز رأسه في اقتناع، لكنه اشترط عليه، أن يراها قبل أي اتفاق، فطلب منه خالد إعطاءه فرصة، حتى يفاتحها في الموضوع، ويحدد موعدا مناسبا، فرحب بالفكرة مؤقتا، حتى إشعار أخر.

ـ ١٩ ـ

عاد خالد إلى المنزل، فوجد مجلس النميمة منعقداً، عدة نساء من سيدات البناية، يشربن القهوة، ويتبادلن الضحكات، على صوت أم كلثوم، الذي ينبعث من التلفاز،.. هذه ليلتي.. تتوسطهن عواطف، بجسدها المكتنز، ووجهها الممتلئ الأبيض المشرب بحُمرة، وعيونها السوداء الواسعة، ووجنتيها الدسمتين، وتلك الغمازة التي تحتل ذقنها، رمقها بعيون شرهة، ابتسم إليها بنشوة، فاقشعر جسدها، لأول مرة ترى من خالد، تلك النظرة الشهوانية، التي تنم عن رغبته فيها، فبادلته النظرة بنظرة، فتركها ودلف إلى غرفته.

كعادته أنصت إليهن، كانت إحداهن تحكي عن جارتها، التي تسكن في الطابق العلوي، كان حمامها يسرب المياه إلى حمامها، وبعد عدة محاولات منها، لجعل الجارة تصلح العُطل، قُوبلت بالرفض، ومع إحساسها بالضيق، من جراء تحول حمام الجيران إلى شلال، يُسرب مياه الصرف الصحي فوق رأسها، قررت أن تتخذ إجراءات زجرية، صعدت إلى شقة جارتها، ومعها السباك، طرقت الباب، وبمجرد أن فتحته جارتها، حتى لكمتها في وجهها بقوة شديدة، فسقطت صريعة، لا تعرف ما حل بها، واقتحمت شقة جارتها رغما عنها، وطلبت من السباك إصلاح العُطل، ظلت جارتها جالسة في زاوية من شقتها، تستجمع أنفاسها، وترمقها بنظرات الخائفة، حتى أنهى السباك عمله، دفعت له الأجرة، وصرخت في وجهها، وهي تغادر الشقة

. لو حصل تسريب تاني.. وما أتصلحش على حسابك.. هيكون يومك أسود!

تبادلن الضحكات في هستيريا، ثم قررن الانصراف، تحرُجا من خالد، الذي

عاد من عمله، ويُريد أن يستريح، ويتناول طعام الغداء، انصرف الجميع، لكن عواطف تسمرت في مكانها، لم تستطع نسيان، تلك النظرة التي أشعلت نيران رغبتها، عرضت على أم خالد، أن تساعدها في شئون البيت، لكنها شكرتها، وعرضت عليها، أن تتناول معهما طعام الغداء، فشعرت بالحرج، وانصرفت على الفور.

كانت تلك النظرة، التي أهداها خالد إلى عواطف، بمثابة إعلان عن رغبته في جسدها، فعواطف شخصية مجهولة المصدر، منذ أن حضرت مع زوجها إلى بناية ليليان، لم يطرق بابها أحد من أقاربها، ولا حتى أقارب زوجها، حتى انتشرت الإشاعات، بأن وراء عواطف قصة مثيرة، لقد كانت ابنة تاجر كبير، في منطقة العتبة بالقاهرة، وكان هاني يعمل عند أبيها، أشعل هاني نيران العشق في جسدها، وطلبها للزواج، لكن أباها رفض بشدة، وهدده بالطرد من العمل، فأقنعها هاني أن تسرق مبلغا كبيرا من مال أبيها، ويهربا سويا، ليتزوجها ويعيشا معا إلى الأبد، فسارت خلفه كالمنومة، نفذت تعليماته حرفيا، وجاء بها إلى الإسكندرية وتزوجها، واشترى تلك الشقة في بناية ليليان، بالمبلغ الذي سرقته، ثم سافر إلى السويس، للبحث عن عمل، تاركا عواطف تئن من الوحدة.

في تلك الليلة، كان خالد قابعا في غرفته، فتراءى له نور، يظهر ويخفت على جدار غرفته، تكرر الأمر مرات كثيرة، بعدها حاول خالد تبين مصدر الضوء، وحين أطل من النافذة، لمح عواطف، تقف في نافذة شقتها، بملابس أظهرت بعضا من مفاتنها، بدأت تشاكسه وتعاكسه بحركات جريئة، ارتعدت لها فرائصه، فقام مباشرة، وأغلق النافذة، مغلقا معها باب كل الاحتمالات، نادماً على تلك النظرة، التي أشعلت نيران شبقها.

-٢٠-

شعر خالد بالخجل وهو يفاتح أمه، في موضوع زواج سمير من سهير، تردد قليلا، لأنه على علم، بأن أمه سوف تُذكره، بأن سنه قد كبر، وبدلا من أن يبحث لصديقه عن عروس، يُفتش لنفسه، حتى ترى أحفادها، قبل أن تموت، كما أنها تشعر بالشفقة تجاه سهير، التي عانت بشدة من زيجتها الأولى، التي تركت شرخا كبيرا بداخل قلبها، ما زالت تُعاني من آثاره، سيجعلها تفكر عشرات المرات، قبل أن تُفكر في الزواج مرة أخرى، سترفض بشدة أن تجلب لابنها زوج أم، قد يُنكد عليه حياته، ويكون سببا في ضياعه وضياع مستقبله.

حاول إقناع أمه، بأن سميرا رجل مثالي، يفتش عن الاستقرار، ولا يُفكر في زواجها، من أجل المتعة، فهو لم يرها أصلا، لكنه أعجب بها، من كلمات خالد عنها، أدارت أم خالد الموضوع في رأسها، ثم أخبرته أنها ستدعوها للزيارة، وستعرض عليها الموضوع، وتترك لها حرية الاختيار. فطلب منها أن لا تُضيع الفرصة، فخير البر عاجله، قبل أن يُغير سمير رأيه. شعرت أم خالد بالضيق، فخالد يجبرها على فعلة، لم تكن لتقوم بها، وكان من باب أولى، أن تُفتش عن عروس لابنها، الذي تخطى عمره الأربعين، بدلا من أن تفتش لغيره، فسألها في خجل:

. لو كنت طلبت سهير لنفسي.. كنتي هتوافقي؟

سرحت قليلا، ضيقت حاجبيها، نفخت في وجهه، قالت بغيظ شديد، بأنها

لن تقبل لابنها، إلا زوجة بِكر، ولابد أن تكون أجمل من الحور العين، وإلا ستتبرأ منه إلى يوم القيامة.. فطلب منها أن تُفتش له عن حور العين تلك، وحينما ستجدها لن يتأخر للحظة.

خرجت أم خالد إلى الشرفة، فوجدت سهير تقف في شرفة شقتها، تتأمل منظر الغروب والبحر، نادت عليها، فالتفتت نحوها، طلبت منها أن تأتي على الفور، شعرت سهير بالقلق، أن يكون خالد، قد أفشى سرها لدى أمه، وقفت تتساءل في حيرة.. لماذا تريدني أم خالد بهذه السرعة؟ وعلى وجهها أمارات الجدية! هل أترك أسعد في الشقة بمفرده؟ أم أصطحبه معي؟ حتى أجبرها على عدم التجاوز في الكلام؟ بدلت ملابسها على عجل، أخبرت أسعد أنهما سيزوران أم خالد، ففرح وبدل ملابسه، وخرجا سويا من الشقة.

دقت سهير جرس الباب، ففتح لها خالد، وما أن رأته أمامها، حتى طأطأت رأسها خجلا، ثم نظرت في عيونه، فنظر في عيونها العسلية الواسعة، تذكر ذلك الوجه الناصع، الذي تخفيه خلف نقابها الأسود، شعرها الغجري الطويل، جسدها البض، نهديها البارزين، اللذين رآهما بين أحضان طارق، أطال التحديق فيها، حتى أتاه صوتها بالسلام، اخترق أذنه وسحبه من عالمه، فشعر بالحرج، ربت على شعر أسعد، سلم عليهما ودعاهما للدخول، ودخلوا جميعا إلى غرفة الجلوس.

أقبلت عليهم أم خالد من باب المطبخ، تحمل طبقا من الفاكهة، وضعته أمامهم، ثم جلست، وبدأ الحوار عاديا، عن الأحوال والصحة، والزواج والطلاق، حتى وصل قطار الحوار، عند محطة الغرض من الزيارة.

مَدحت جمال وأدب وتقوى سهير، فشعرت سهير بالخجل، نظرت في عيون

خالد، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، زادت من خجلها، شعرت أم خالد بالخجل يطل من عيونها، فأشارت إلى خالد، أن يأخذ أسعد إلى غرفته، فأخذه وتركهما في الصالة بمفرديهما.

طلبت من سهير، أن تصنع لهما فنجانين من القهوة السادة، وأن تترك القهوة تغلي على النار لمدة دقيقتين، وبعد أن تصب القهوة في الفنجان، تنتظر أربع دقائق، قبل تحريكها. ففهمت سهير أنها تريد أن تقرأ لها الفنجان، هرولت إلى المطبخ، صنعت القهوة، ثم عادت إلى الصالة، وضعتها أمام أم خالد، وشرعا يشربان القهوة، طلبت منها أم خالد، أن تترك ثلث الفنجان، وبعد أن تنتهي من شرب القهوة، تترك الفنجان مقلوبا، لمدة خمس دقائق. أمسكت أم خالد بفنجان سهير، تتأمله بعيونها:

. فنجانك لونه فاتح.. وده دليل على نقاء قلبك وطيبتك.. وكمان الخطوط جوه الفنجان عُشبية، وده يدل على الحيرة المستمرة، صحيح الكلام ده يا سهير؟

تنهدت وألقت بعيونها بداخل الفنجان، فابتسمت أم خالد، وانفرجت أساريرها، وأشارت إلى رسم، في جانب الفنجان، أقرب إلى شكل الزهرة، طلبت منها أن تنظر إليه، فابتسمت سهير وقالت:

. وده معناه إيه يا أم خالد؟

ده معناه.. زواج قريب.

شعرت بالخجل وطفر الدم إلى وجهها، كان لديها شعور كبير، أن تلك المقدمة، تُبشر بأن هناك خبراً ساراً في انتظارها، وأن أم خالد قد أرسلت إليها، لكي تفاتحها في موضوع الزواج، كانت تُمني نفسها، بأن خالد يريد أن يتزوجها،

ولكن كيف! بعدما اكتشف تلك العلاقة القذرة، التي كانت بينها وبين طارق، هل يرضى أن يتجوز من امرأة، نامت في أحضان رجلين، أحدهما في الحلال، والآخر في الحرام؟ شعرت بالخزي من نفسها، لكن قلبها ما زال يخفق بشدة، وأم خالد تدغدغ مشاعرها، وتفاتحها في موضوع الزواج، وبأن هناك عريسا، يريد أن يراها، ففهمت أنه ليس بخالد، الذي رآها بالتأكيد.

رفضت فكرة الزواج بشدة، رفضت أن تجلب إلى ابنها زوج أم، يُنغص عليه حياته، يكفي ما لاقاه من أبيه، كما أن أسعد، في مرحلة خطيرة من مراحل حياته، تخشى أن يتسبب زواجها، في كسر مشاعره، فيفقد القدرة على الاستقرار في حياته.

حاولت أم خالد إقناعها، أنها ما زالت في ريعان شبابها، ولابد لها من رجل، يحميها من تقلبات الدهر، ويساعدها على مصاريف المعيشة، ويكون عونا لها ولابنها، كما أن العريس، إنسان طيب، سيصونها ويصون ابنها، سيكون بمثابة أب لأسعد، يُعوضه عن حرمانه من أبيه، الذي هجره وهرب، كما أنه سوف يعيش معهما في الشقة، أي أن أسعد لن يفارقها، سيظل بين أحضانها.

شعرت بالخجل، فهي في حاجة إلى رجل يمتلك تلك المواصفات، يكون عوضا لابنها عن أبيه، يرعى شئون حياتها، يكون لها سندا، أمام توحش البشر، أن يروي عطش جسدها الفائر، الذي قارب على الذبول، يحميها من تكرار تلك التجربة القذرة، التي خاضتها مع طارق، تُنجب لأسعد أخا، يُؤنس وحدته. صمتت قليلا، ثم حركت رأسها بالموافقة، لكنها اشترطت أن ترى العريس أولا، ثم تأخذ قرارها، بالقبول أو الرفض.

مرت ساعة، وخالد يجلس في غرفته، محاولا عبثا الانتهاء من قراءة رواية

التلصص (...أتطلع من ثقب المفتاح، تصطدم نظارتي بالباب، أضغطها على أنفي، أتطلع من جديد، أراها جالسة في الحوض، ولا يظهر منها غير كتفيها العاريين...). وأسعد يجلس على جهاز الحاسب الآلي، يلعب عبر الانترنت، شعر بالملل فأغلقه، وجلس بجوار خالد، الذي مسح على شعره، أخبره أن أستاذة مروة، تمدح في مستواه في اللغة الإنجليزية، ففرح أسعد كثيرا، وأخبره أن الفضل يرجع إلى الأستاذة مريم، التي تساعده في دروس اللغة الإنجليزية، سأله خالد في تعجب:

. مين أستاذة مريم دي؟

مريم خليل، فتاة في الثلاثين من عمرها، تعيش مع أمها المُسنة، في بناية ليليان، عاشت قصة حب منذ الصغر، مع ابن عمها إبرام، الذي تخرج من الجامعة، وعمل طبيبا بمستشفى الشاطبي الجامعي، بمجرد أن أنهت مريم دراستها الجامعية، بكلية التربية قسم اللغة الإنجليزية، واستلمت العمل في مدرسة الشاطبي الإعدادية، حتى تقدم إبرام لخطبتها، وتم تحديد موعد الزفاف، كانت سعادتهما لا تُوصف، بعدما أوشكت قصة حبهما على الاكتمال، بالزواج المقدس، وفي يوم الزفاف، وهما في طريقهما إلى كنيسة مار جرجس، اصطدمت سيارة الزفاف، بشاحنة نقل ثقيلة، لقي إبرام مصرعه، وأُصيبت مريم بصدمة عصبية، أفقدتها القدرة على الحركة، فظلت حبيسة الكرسي المتحرك.

شعر خالد بالأسى، حينما تذكرها، لقد كانت زميلته في مدرسة الشاطبي الإعدادية، شعر بالخزي من نفسه، لقد كانت أخر زيارة، قام بها إليها، منذ سنوات طويلة، بعدها لم يسأل عنها مطلقا، لكنها كانت السبب في تلك

القطيعة، فهي انطوائية إلى أبعد الحدود، قليلة الأصدقاء، ملتزمة في علاقاتها مع الآخرين، تتنقل بين الفصول في رشاقة الغزلان، حتى تُنهي يومها الدراسي، ثم تنصرف في هدوء، دون أن يشعر بها أحد.

انتهت المفاوضات بين سهير وأم خالد، واستأذنت سهير للانصراف، فنادت على أسعد، الذي أستأذن من خالد، هرول نحو الصالة، وجد أمه واقفة في انتظاره، خرج خالد خلفه، نظر في عيون سهير، فرأى الابتسامة، تطل من عينيها، رغم الخجل الذي بدا عليهما، وخيبة أملها، أن يكون خالد هو العريس. ما أن خرجت سهير من باب الشقة، حتى حكت أم خالد لابنها، تفاصيل تلك المقابلة، وطلبت منه، أن يدعو صديقه سمير لرؤية سهير.

- ٢١ -

دخل خالد مكتبه، فوجد الطالب كريم الدهشان في انتظاره، لقد مر شهر، منذ الاتفاق الذي تم بينهما، حتى كاد أن ينساه، كان يحمل بين يديه، رواية مكتوبة بخط اليد، فرح كثيرا وهو يمسك الرواية بين يديه، جذبه أسمها (ابنة الجيران) رواية تقع في حوالي، مائة صفحة من القطع المتوسط، تصفحها على عجل، فلاحظ أن بها أخطاء لغُوية كثيرة، لكنه لم يصدمه، بل أخذها منه، وأعطاه شُحنة كبيرة من الأمل، طلب منه أن يهتم بدراسته، وألا تكون الكتابة، سببا في تأخر مستواه الدراسي، أن يجعل الكتابة في أوقات الفراغ، فوعده أن يتفوق في دراسته، بشرط أن يقرأ الرواية، ويخبره برأيه، الذي يشتاق لمعرفته، فوعده بأن يقرأها، ويعطيها للأستاذة عفاف، لعمل المراجعة اللغوية اللازمة، وفي حال إعجابه بها، سيعرضها على دور النشر. بينما هما واقفان، حتى دخلت عليهما الأستاذة مروة، نظرت إلى كريم، فطأطأ رأسه خجلا، واستأذن للانصراف، وبمجرد أن انصرف، حتى سألها خالد:

. أخبار كريم إيه دلوقت؟

فأخبرته أنه صار أكثر تأدبا معها، وبدأ يهتم بدروسه أكثر، وتناسى تلك الرسائل الفارغة، التي كان يكتبها، رغم أنها لم تُغير من ملابسها المثيرة، التي كانت السبب في انحرافه، كما كان يدعي خالد.

لم يحاول أن يجرحها من جديد، سألها عن سبب الزيارة، فجلست أمامه،

وأخبرته في خجل، أنها تريد أن تأخذ رأيه في موضوع خاص، بصفته صديق، وتريد أن تعرف رأيه بصراحة، فابتسم ساخرا

. وبعدين تزعلي.. وتفتحي عليا قاموس إلياس للشتايم!

ضحكت كما لم تضحك من قبل، خلعت نظارتها، ومسحت عيونها وقالت في خجل:

. حد قالك تجرحني بالشكل ده! على العموم يا سيدي.. بتأسف لحضرتك.

نظر في عينيها الخضراء، تمنى أن يبسطهما بساطا، ويجلس على ضفاف أحداقهما..تسمرت عيونهما فشعر بالخجل، لقد غير التلصص من أخلاقه كثيرا!

. إيه بقا الموضوع الخاص ده يا مس مروة؟

صمتت قليلا، زمت شفتيها خجلا، فشعر بالتردد يطل من عينيها، ففهم أن جو المدرسة غير مناسب لسرد التفاصيل، فعرض عليها، أن يجلسا في مكان هادئ، بعيدا عن جو المدرسة، المشحون بالعمل، انفرجت شفتاها عن ضحكة ساحرة، وصفين من اللؤلؤ المتناسق، وأومأت بالموافقة.

ـ ٢٢ ـ

على شاطئ البحر، وفي كازينو الشاطبي، جلست مروة أمام خالد، ترتدي معطفا أسود طويلاً، تغطي شعرها بوشاح، فبدت ملابسها محتشمة، تماشيا مع طبيعة خالد الملتزمة، حاول خالد أن يكون هادئا، رغم اضطراب قلبه، فمنذ سنوات طويلة، لم يضرب موعدا مع فتاة، في مثل جمال وروعة مروة، لماذا لم يدرجها، ضمن قائمة الذين عشقهم في حياته؟ فمنذ أن قدمت للعمل في المدرسة، وهي محط أنظار الجميع، بجمالها الأوربي المميز، جسدها المتناسق المثير، رشاقتها منقطعة النظير، قلبها الطيب، ونشاطها الملفت للنظر، رغم أنها في البداية، حاولت لفت أنظاره إليها، لكن عشق علياء، كان لا يزال يجري في دمه، لم يفارقه يوما، منذ أن رحلت إلى الأبد!

تذكر تلك المائدة، التي كانا يجلسان عليها، تلك الوعود الوردية، التي قطعتها على نفسها، أن تظل معه حتى نهايات العمر، لكنها تركته مع أول اختبار، وحيدا يعيش على بقايا عشقها، الذي حطم حياته!

قطع شروده، صوت النادل ذي البابيون الأحمر والسترة السوداء، يرحب بهما، طلب خالد فنجانين من القهوة، كان الخجل يطل من عيون مروة، وخدودها تشبعت بالحمرة، مما أشعره بالقلق.

. خير يا مس مروة.. إيه الحكاية؟!

خلعت نظارتها ومسحت زجاجها، وأعادتها إلى عيونها، ثم قالت بتردد واضح، إن هناك عريساً تقدم لخطبتها، فشعر خالد بخيبة أمل، حتى في تلك

اللحظة، التي شعر برغبته في مروة، خطفها شخص أخر. يبدو أنه تعيس الحظ في الحب، لكنه رغم ذلك، انفرجت أساريره، فهذا ما يتمناه لها.

كانت تشعر بفرحة شديدة، وهي تحكي عن المركز المالي والاجتماعي لذلك العريس الذي تقدم لخطبتها، لكنها أظهرت ترددها الشديد في الموافقة، فسألها في تعجب:

. ليه مترددة؟

فبدا على وجهها الانفعال الشديد، تخلت عن هدوءها وخجلها، قالت في غضب:

. اشترط ألبس الملابس الواسعة.. والحجاب كمان..

ضحك كثيرا، حاول إقناعها، بأن المرأة بعد الزواج، تكون ملكاً لزوجها، فما الداعي أن ترتدي الملابس الضيقة المثيرة، تترك شعرها الغجري، يعبث به هواء الشتاء، تتزين لكل عابر سبيل، يُمني نفسه بجسدها، فهذا يغازلها بلسانه، وذلك يغازلها بعيونه، وذاك يحاول مغازلتها بجسده، غير نظرات النسوة اللواتي ينظرن إليها بغيرة، فتتحرك الألسن، وتُتُهم بقلة الأخلاق وعدم التربية!.

ذكرها بالتلميذ كريم الدهشان، الذي كاد أن يُجن بها، من فرط تبرجها، ليس هو فقط، فكل الطلبة والمدرسين والمدراء والموجهين وأولياء الأمور، ينظرون إليها نفس النظرة الشهوانية، فضحكت كثيرا، لشعورها بأنوثتها المفرطة، قالت في إعجاب أنثوي ملحوظ:

. حتى أنت؟!

شعر بخجل شديد، لم يرحمه من نظراتها المثيرة، سوى حضور النادل، الذي

وضع القهوة أمامهما، مد كل منهما يده، لسحب فنجان القهوة، فاصطدمت أيديهما، فشعرا بأن ماساً كهربائياً قد صعقهما، فسحب كل منهما فنجانه، ورشف منه رشفة.

حملق خالد في عيون مروة، تلك الحسناء التي تبدو مختلفة، عن مروة المُعلمة، التي تتنقل بين الفصول، تحتضن حقيبتها، تمسك عصاً صغيرة، للسيطرة على التلاميذ، تذكر كلمات والدته، عن فتاة أحلامه، التي تريدها أجمل من الحور العين، فمروة من الحور العين،.. تعال يا أمي، قبل أن تخطفها الشياطين!

لكنه شعر بالخجل من نفسه، فغير دفة الحوار، سألها عن سبب رفضها الالتزام، بغض النظر عن أنه مطلب ديني، في المقام الأول.

. أنا موش رافضه الاحتشام.. أنا رافضة مبدأ السيطرة.. دلوقت طلب مني أغير من استايلي.. بكره يطلب مني أترك الشغل.. بعده الله أعلم.. التنازل يبدأ بخطوة.. وأنت عارف الرجالة في مجتمعنا الشرقي كويس.

مروة تريد أن تستقل بشخصيتها، لا تريد أن يفرض عليها أحد رأيه، حتى ولو كان صحيحا. اقترح عليها أن تضع شروطها قبل الزواج، منها أن لا تترك العمل، أو تتنازل عن حقوقها المشروعة، التي كفلها لها الشرع والقانون، حتى ولو طلبت وضع العصمة في يدها!

نظرت إليه باقتناع، تشجعت وطلبت منه طلبا أخر، فالعريس الذي تقدم لخطبتها، هو دكتور مدحت، صاحب صيدلية المغربي، الكائنة في بناية ليليان، طلبت منه أن يسأل عنه، تريد أن تعرف كل شيء، عن حياته وماضيه وحاضره، حتى تطمئن على مستقبلها معه، وتتخذ القرار الصحيح.

الدكتور مدحت، حفيد الدكتور شوقي المغربي، مؤسس صيدلية المغربي في بناية ليليان، كان جده رجلا كريما، ماهرا في عمله، يساعد الفقراء والمرضى، يُعطي الدواء للمحتاجين بلا مقابل، لم يبخل بعلمه ولا بماله على أحد، ولكن حفيده مدحت، على عكس جده تماما، فهو مادي لدرجة غير معقولة، لا يترك قرشا واحدا، من ثمن فاتورة العلاج، عصبي للغاية، معاملته جافة مع الآخرين، غير أنه يسقط بسهولة، تحت أقدام الجنس الناعم، فتجده يبدو ليناً ووديعا معهن إلى أبعد الحدود، رغم تلك اللحية الخفيفة، التي تكسو وجهه، التي أطلقها منذ أن كان طالبا، بكلية الصيدلة جامعة الإسكندرية، فأثناء تلك الفترة، انضم مدحت إلى جماعة دينية متشددة، وأطلق لحيته والتزم في الصلاة، لكنه رفع الراية البيضاء، مع أول صدام مع الأمن، حينما أُلقى القبض عليه، وقضى في الحجز عدة أيام، قبل أن يتدخل جده الدكتور شوقي، باتصالاته الواسعة، حتى تم الإفراج عنه، بعدها تعهد مدحت إلى جده، أن لا يعود إلى الانضمام، إلى أية جماعات دينية، ورغم عزوفه عن ذلك الطريق، غير أنه احتفظ بلحيته الخفيفة، والتزامه في الصلاة.

لمدحت تجربة سابقة مع الزواج، تزوج بعد قصة حب عنيفة، مع إحدى زميلات الجامعة، لكن مرت السنوات، ولم يرزقا بطفل، وبعد عمل الفحص الطبي اللازم، تبين أن مدحت هو السبب في عدم الإنجاب، وبمجرد أن عرف أهل زوجته ذلك، حتى فرضوا سيطرتهم عليه، رضخ مدحت كثيرا لطلباتهم، لكنه في النهاية، قرر الانفصال، وتنازل عن كل شيء، وبعدها قرر العزوف عن فكرة الزواج، حتى قارب على الأربعين.

لكنه فجأة، قرر أن يخوض تجربة الزواج من جديد، فالوحدة كادت أن تقتله،

فاختار مروة، تلك الفتاة المُثقفة الجميلة، التي تفوح فتنة، لتُعوضه عن حرمانه، لسنوات طويلة من الزواج.. حقا إن مدحت، عرض لا يمكن رفضه!

رحب خالد بفكرة الارتباط، بين مروة ومدحت، لكن بقى السؤال، الذي حيره، هل يُخبر مروة، بأن مدحت له تجربة زواج سابقة، وأنه غير قادر على الإنجاب؟ أم يصمت حتى لا يُفسد عليها فرحتها؟ لكن الأمانة تُحتم عليه، أن يخبرها بكل ما يعرفه عن مدحت، ولكن قد يكون تم علاجه، وأصبح قادرا على الإنجاب، ولعل مروة تنجب له ذرية، ترث كل ثروته، التي ورثها عن جده!

هل يخبرها بأنه مادي لدرجة كبيرة؟ ولكن قد يكون مادي مع الآخرين، ولكنه مع زوجته، سيكون كريما لأبعد الحدود، والدليل على ذلك، أنه تنازل عن كل شيء لزوجته الأولى. هل يخبرها أنه عصبي؟ أم أن عصبيته تلك،لا تظهر إلا في الصيدلية، نتيجة لضغط العمل. لم يشأ أن يُعكر صفو فرحتها، أو يُزيد من ترددها، قد يكون مدحت قد تغير للأفضل، بدرجة تجعل مروة سعيدة معه، لذلك قرر أن يصمت، حتى إشعار آخر.

-٢٣-

حكى خالد لأميرة، عن لقاءه مع مروة، وعرض الزواج المقدم من الدكتور مدحت، وعن حيرته في إخبارها بحقيقة مدحت، خشية أن يُفسد تلك الزيجة، التي ستُغير كثيرا من شخصية مروة، ستُجبرها بالتأكيد على التخلي عن ملابسها المثيرة، وتُدخلها طريق الالتزام، وتُريح الجميع من إغرائها المثير، الذي يُفقدهم أعصابهم، ولتتحول مروة رغما عنها إلى نسخة كربونية، من الأستاذة عفاف، مثال الأخلاق والالتزام.

ضحكت أميرة كثيرا، وأخبرته أنه سيفقد تلك النشوة المجانية، التي يحصل عليها من تلك الفاتنة، رغم أنها كانت تفضل أن يرتبط بها خالد، فمروة تمتلك مواصفات الزوجة المثالية، جميلة ومثيرة ومثقفة، ويبدو أنها تريده.

صمت خالد طويلا، ثم أخبرها بأنه لم يجد، من تستطيع إقناعه بالزواج منها، بعد صدمته في علياء وسهير. صمتت أميرة طويلا، حتى شعر أن كلماته قد أزعجتها، فطلب منها أن تخبره كيف يتصرف. نصحته أن يُخبر مروة، بكل المعلومات التي يعرفها عن مدحت، بعدما استأمنته على حياتها، لابد أن يكون صادقا معها، ويضع أمامها الحقيقة كاملة، قبل أن تخوض التجربة، ويحدث صدام ما بعد الزواج، وتحمل لقب مُطلقة، وتتكرر مأساة سهير من جديد، ساعتها لن تنسى لخالد تلك الخيانة.

اقتنع بوجهة نظرها، التي دائما ما تكون عند حسن ظنه، تعطيه حلولا، قد يعجز عن التوصل إليها، تُرشده إلى القرار الصائب، لقد قرر أن يُخبر مروة بالحقيقة كاملة، ويترك لها حرية الاختيار.

في صباح اليوم التالي، التقى بمروة، أخبرها أن مدحت إنسان ممتاز، لكنه كان متزوجا، فأخبرته أنها تعرف أنه كان متزوجا، كما أنها تعرف سبب الانفصال، إنه عدم قدرة زوجته على الإنجاب، صُدم خالد من تلك الكذبة، فكر أن يصححها، لكنه صمت.. ربما تكون تلك هي الحقيقة، وأن مدحت من النبل، ما جعله يُخفي الحقيقة في ساعتها، لكي لا يفضح زوجته.

أخبرها أن مدحت، مادي بعض الشيء، فأخبرته أنه كريم معها أشد الكرم.

أخبرها أن مدحت عصبي، في معاملته مع الآخرين، فأخبرته أن عصبيته تلك، بسبب قلقه الدائم، من حياته الفارغة بلا زوجة، وأنها قادرة على تحويل ذلك الكائن العصبي، إلى ملاك هادئ.

شعر أن مروة، قد اتخذت قرارها بالموافقة، ولن تقبل أي نقد، قد يُوجهه إلى مدحت، وأن تلك المخاوف، التي كان يُخفيها في قلبه، قد تبددت، وأن أية محاولة لإظهار عيوب مدحت، سُتعتبر بمثابة محاولة لإفشال تلك الزيجة.

كما أنه لم يشعر برغبة قوية في الارتباط بمروة، إنها نزوة جسد مشتاق إلى الجنس ليس أكثر، لقد أيقظ تلصصه على أجساد النساء، ذلك المارد الذي حاول قتله لسنوات طويلة، تبا لك يا طارق!. لم يجد أمامه سوى رسم الابتسامة على وجهه فرحاً، تمنى لها زواجاً سعيداً، ورحب بها ضيفة جديدة في بناية ليليان.

بعد عدة أيام، أعلنت مروة خبر خطبتها على زملائها في المدرسة، بل وحددت موعد حفل الزفاف، مدحت في عجلة من أمره، وأسرتها ترفض فكرة طول مدة الخطوبة، طالما كل الإمكانيات متوفرة، وهناك قبول من كلا الطرفين، فخير البر عاجله.

بعد عدة أسابيع، كانت بناية ليليان، تتلألأ بالأضواء، استعدادا لاستقبال العروسين، في شقة نمرة (8) بالطابق الرابع في البناية تلك الشقة التي كان يسكنها الدكتور شوقي المغربي لتكون سكنا مؤقتا، حتى ينتهي مدحت من تشطيب فيلته في حي لوران.

وصلت السيارة التي تقل العروسين إلى باب البناية، فاشرأبت أعناق سكان البناية، والبنايات المجاورة، لرؤية العروسين، اللذين وقفا وسط المدعوين، تزفهما أشهر الفرق الموسيقية بالإسكندرية، بعدها دخل العروسين باب البناية، وصعدا إلى شقتهما في سعادة بالغة.

ـ٢٤ـ

دخلت سهير عليهم في غاية الخجل، وضعت العصير على المائدة، وجلست بجوار أم خالد، أطرقت رأسها إلى الأرض، وسمير يرمقها بعيونه، أُعجب كثيرا بعيونها العسلية، أعرب عن سعادته بفكرة الارتباط، التي ستُجبره على الاستقرار، والتطلع إلى المستقبل بنظرة تفاؤل، طلبت منه أم خالد، أن يُشجع صديقه، على اتخاذ تلك الخُطوة، حتى ترى أحفادها قبل أن تموت، فربتت سهير على يديها، ودعت لها بطول العمر، ما أن سمع سمير صوتها الرقيق، حتى شعر بالنشوة تجتاح جسده، فأشار إلى خالد، بأنه يريد أن يرى وجهها، ففهمت أم خالد، ما يريده سمير، فمن حقه الشرعي، أن يرى وجهها، فنظرت إلى سهير وسألتها:

. هو الليلة كام من الشهر العربي يا سهير؟

نظرت إليها في خجل، أخبرتها إنها ليلة الرابع عشر، فطلبت منها أن تفتح النافذة ليرى سمير البدر، حتى لا يُغير رأيه بعد الزواج، ضحك الجميع، وسهير ترفع النقاب عن وجهها، في خجل شديد، ما أن رأى سمير وجهها، حتى شعر بأن روحه هفت لأعلى، حلقت بين النجوم، أن نور وجهها، قد اخترق جسده، وتسلل إلى قلبه، كأنه شحنة نورانية. شعر بالنشوة تجتاح جسده، فألقى بعبارات غزل، دغدغت مشاعرها، وأشعرتها بالخجل، فأنزلت النقاب على وجهها مرة أخرى.

أطلقت أم خالد زغرودة قوية، أشعرت الجميع بالسعادة، إلا شخصا واحدا،

كان يبدو عليه علامات الحزن. إنه أسعد، الذي طأطأ رأسه إلى الأرض، غطى وجهه بكفيه باكيا، تساقطت الدموع من عينيه، اقترب منه خالد، وربت على ظهره، مسح على شعره، أخبره أن سميرا، سيكون بمثابة أبيه، الذي لم يراه، منذ أن وُلد، وحينما رآه، لطمه على وجهه، سوف يعيش سمير معهما في الشقة، ولن يأخذ أمه من بين أحضانه.

شعرت سهير بالحزن من منظر ابنها، الذي كساه الحزن فجأة، كأنه على وشك، أن يفقد أمه إلى الأبد، فهرولت إلى حضنه، أعلنت أنها لن تقبل بالزواج، إلا بعد أن ترى الرضا، عن تلك الزيجة على وجهه، وإذا اعترض حتى بدون إبداء الأسباب، فلن تتزوج مطلقا، مهما كانت العواقب.

انفرجت أسارير أسعد، نظر في عيون أمه الدامعة، ثم احتضنها، فقبلت رأسه، فقبل يدها وباركها في سعادة، فغمرت السعادة الجميع، وأم خالد تُطلق الزغاريد من جديد، وهم يتفقون على ترتيبات الزواج. بعد الانتهاء من الاتفاق، وتناول العشاء الفاخر، استأذن سمير في الانصراف.

نزل خالد بصحبة صديقه سمير، جلسا على مقهى الرشيدي، ليدخن سمير الشيشة، ويستكمل حواره مع خالد، على صوت أم كلثوم،.. أنت عمري... كان المطر يهطل بلا توقف، والسحب تنتابها نوبات رعدية، والمارة يَجدون في السير، لكن سميرا شعر بالدفء يجتاح جسده، كأنه قد تشبع بمشروب الفودكا، أعرب عن سعادته، بتلك الخُطوة الجديدة في حياته، أُعجب بتلك الفاتنة التي وجد فيها كل المواصفات التي تمناها في زوجة المستقبل. أشار خالد ناحية شقة سهير في بناية ليليان، وهنأه بالعروس والشقة، أخيرا سيرتاح من مشاكله، وسيترك لأخيه الشقة، ليعيش فيها مع أسرته بحريته.

أبدى سمير إعجابه بالمنطقة، والبناية الخلابة، القريبة من المدرسة، الشارع المريــح للنفس، المقهى الممتلئ بالرواد، هواء البحر العليل، شكر خالد على كل ما فعله من أجله.

فجأة طلب من خالد، سرعة الانصراف، وحينما سأله عن سبب تحول مزاجه، ورغبته في الانصراف، لم يجبه، وانطلق خارجا من المقهى، وقف على الرصيف، تحت إحدى المظلات، بعيدا عن وابل المطر. أشار خالد إلى العربي، وأعطاه الحساب، اقترب من سمير في قلق، طلب منه أن يفسر له سبب تصرفه، والقلق الذي ظهر عليه فجأة، رغبته الملحة في الانصراف، فقال سمير في دهشة:

. معقولة يا خالد تقعدني على قهوة مشبوهة!

. مشبوهة أزاي؟!

أخبره أنه رأى نادل المقهى، يُخرج من جيبه تذكرة مخدرات، ويُعطيها لأحد الزبائن، أنكر خالد ذلك، مؤكدا له أن مقهى الرشيدي، من أشهر مقاهي الشاطبي، وأن له تاريخاً مشرفاً، وأن المعلم رمضان، صاحب المقهى، رجل محترم ونقي، وليس له في ذلك الطريق المشبوه. فأكد له أنه رأى نادل المقهى، يخرج من جيبه، تذاكر مخدرات، إلى أكثر من شخص، فوعده خالد أن يتحقق من ذلك، ومضى سمير نحو محطة الترام، ليركب الترام المتجه إلى الجامعة، تحت قطرات المطر المتساقطة.

-٢٥-

ألقى خالد بجسده على سريره، محاولا النوم، لكن عقله ما يزال يفكر، فيما قاله سمير عن مقهى الرشيدي. انتفض من فراشه، هرول نحو الشرفة، وقف يلاحظ حركة المقهى، وذلك النادل الذي يُدعى العربي.

مقهى الرشيدي، أنشأه الحاج إبراهيم الرشيدي، على بقايا حانة ديمتري، بعدما اشترى بناية ليليان، من ورثة رياض باشا الأغا، كان يديره بنفسه، بجانب مطعم الأسماك، الذي أنشأه على بقايا مطعم الخواجة باكوس، ولكن ورثة الحاج إبراهيم الرشيدي، باعوا المقهى إلى المعلم رمضان.

المعلم رمضان، رجلا تخطى الستين من عمره، قوي الجسد والملامح، وافر الصحة، رغم الشيشة التي لا تُفارق يده، طوال فترة تواجده في المقهى، له شعبية كبيرة بين سكان المنطقة، خصوصا بعد شرائه المقهى، الذي أبقاه على حاله، وكأن الحاج إبراهيم الرشيدي، ما زال يديره، فلم يشعر رواد المقهى، بأية تغييرات جوهرية، عدا تلك التطورات الطفيفة، فحلت تلك الشاشة التليفزيونية العملاقة، محل جهاز الراديو، لجذب عشاق كرة القدم، لمشاهدة المباريات المحلية والعالمية، والتي تدر دخلا كبيرا إلى إيراد المقهى، بالإضافة إلى شبكة (الواي فاي)، التي يطالب بها رواد المقهى من الشباب، للدخول على شبكة الانترنت، ومواقع التواصل الاجتماعي، ولكن بقيت الروح القديمة للمقهى، صوت الشيخ محمد رفعت، ينبعث في الصباح الباكر، وجلسات لعب الطاولة، تنعقد بين رواد المقهى، على صوت أم كلثوم طوال الليل.

يبدو أن ذلك التغيير الذي رآه سمير، حدث بسبب ذلك الوافد، الذي جاء من بورسعيد، اسمه العربي، شاب في العشرين من عمره، فارع الطول، نحيف الوجه، أشقر الشعر، كثير الكلام، سريع الحركة، نشيط إلى حد ملفت للنظر، اجتماعي إلى درجة كبيرة. لكن حينما تلاحظه بتركيز، تشعر أن وراءه كارثة، دائم التلفت حول نفسه، يخشى الاقتراب من رجال الشرطة، ينقلب حاله، إذا دخل أحدهم المقهى، يقف أمامه في أدب جم، يُحضر إليه طلباته، ثم ينصرف في هدوء، يقضي كل وقته بداخل المقهى، ومع نهاية سهرة رواد المقهى، يقوم بأعمال التنظيف وتجهيز المقهى، لاستقبال رواد الصباح، من الطلاب والعمال والموظفين، وبعد أن ينتهي من عمله، يبيت بداخل المقهى، بعدما يُغلق عليه بابها من الداخل.

في مساء اليوم التالي، جلس خالد على مقهى الرشيدي، لكن هذه المرة، عاود ليمارس عادة التلصص، التي أقلع عنها، بدأ يُراقب العربي عن كثب، لاحظ أنه يلتزم بالقواعد العامة، طوال فترة تواجد المعلم رمضان بالمقهى، منذ الصباح الباكر، وحتى موعد انصرافه اليومي، إلى مسجد الشاطبي ليصلى العشاء، ثم يعود إلى بيته، ليتناول طعام العشاء، ويجلس مع أسرته الصغيرة، ثم ينام حتى صلاة الفجر. بمجرد أن ينصرف الحاج رمضان من المقهى، حتى يبدأ العربي، في ممارسة عمله غير المشروع، في توزيع تذاكر المخدرات.

لقد تأكد خالد مما رآه سمير، لم يكن هناك مفر، من إبلاغ الشرطة عن ذلك (الديلر)، الذي يُوزع المخدرات على زبائن المقهى، بل ويخدع المعلم رمضان، ويُعرضه للمسائلة القانونية، وقد يصل الأمر إلى إغلاق المقهى. قرر أن يُبلغ المعلم رمضان، قبل أن يصل الأمر إلى الشرطة، وتكون كارثة!.

في مساء اليوم التالي، صلى العشاء بجوار المعلم رمضان في مسجد الشاطبي،

وتبعه إلى مقام الإمام الشاطبي، وقف بجواره أمام شباك المقام، مد المعلم رمضان يده، ومسح على الستار الأخضر، الذي يفوح عطرا، قرأ الفاتحة في خشوع، وبعد خروجهما من باب المقام، اصطدم المعلم رمضان بجسد خالد، فنظر إليه في تعجب، فابتسم خالد في وجهه، وأخبره بأنه يريد أن يحادثه في موضوع هام.

طلب منه المعلم رمضان، أن يعودا ليجلسا على المقهى، أو أن يذهب معه إلى البيت، يتناولا طعام العشاء سويا، ويتحدثان على حريتهما، بدلا من الوقوف أمام باب المسجد كالشحاذين، لكن خالدا عرض عليه، أن يتمشيا سويا على الكورنيش.

أثناء سيرهما على الكورنيش، ومع هواء الشتاء البارد، الذي ينبعث من البحر، حكى له كل ما رآه في المقهى، فاندهش المعلم رمضان، شعر بصدمة شديدة، وقرر أن يقتحم المقهى، على غير عادته، ويكشف العربي على حقيقته، بل ويسلمه إلى الشرطة بنفسه.

بالفعل تأكد المعلم رمضان، مما قاله خالد، لكنه لم يكشف الحقيقة للعربي، بل أبلغ الشرطة، وطلب من ضابط القسم، أن يقبض عليه في هدوء، حفاظا على سُمعة المقهى، التي قد تتأثر بمداهمة الشرطة، اقتنع ضابط القسم، بوجهة نظر المعلم رمضان، وتم وضع المقهى تحت المراقبة، وانتظر رجال الشرطة، حتى فرغ المقهى من رواده، وقبل أن يُوصد العربي أبوابه، داهمته الشرطة في هدوء، وتم القبض على العربي، وبحوزته المخدرات، وتم إيداعه سجن الحضرة. استيقظ رواد المقهى على نادل جديد، وحينما سألوا المعلم رمضان عن العربي، أخبرهم بأنه قد رحل إلى بورسعيد، واختفى بعدها العربي إلى الأبد، شكر المعلم رمضان خالد، على تلك الصنيعة، التي لولاها لتم إغلاق المقهى، ولضاعت سُمعته هباء.

-٢٦-

انتهى خالد من قراءة رواية كريم الدهشان (ابنة الجيران) رواية ممتعة، أسلوبها شيق، لغتها سهلة، تتميز بالحبكة المتقنة، استخدام أسلوب الراوي الذاتي، في سرد الأحداث، تتحدث عن شاب قارب على الأربعين، مر به العمر، دون أن يشعر، كان يعشق ابنة الجيران، لكن ظروف حياته مع أمه المريضة، حالت دون أن يتزوجها، لم يفق إلا بعد وفاة أمه، بعدما ضاع عمره، وضاعت حبيبته إلى الأبد، حاول أن يبدأ حياته من جديد، ولكنه فشل بامتياز. (.. أخذت أتابع المارة، الذين يجوبون الشارع بلا انقطاع، لكن عيني تفتش بشغف عن تلك الفتاة، التي تسكن في الطابق العلوي، فهذا موعد عودتها من الجامعة، فعلى مدار سنوات طويلة، وأنا أنتظرها، منذ أن كانت طالبة في المدرسة الثانوية، بمريولتها الكُحلي، تحتضن حقيبتها المدرسية، كانت تأخذ قلبي معها، وهى تُشير إلى صديقاتها، بإشارات الوداع، عند مدخل البناية، وضفائرها تتحرك في الهواء، تضحك فأسمع وقع صوت ضحكاتها، يعزف لحناً فيروزياً، فلطالما سمعتها تدندن، بمقاطع من أغاني فيروز، حتى عشقت صوت فيروز...)

لامست أحداث الرواية قلبه، شعر أن الرواية، تسرد قصة حياته، فبعد رحيل علياء، مر العمر بلا رحمة، رفض أن يتخلى عن أمه، أضاع الفرصة تلو الأخرى من أجلها، رغم أنه مازال يمتلك، ذلك الشعور السخيف بأن أمه، كانت السبب في موت أبيه، السبب في رحيل علياء، السبب في بقائه بلا

زواج، حتى ضاع عمره هباء، لكنه غير نادم، على قضاء الله وقدره، فوجود أمه في حياته، أهم من كل شيء، فأين ستذهب لو تخلى يوما عنها، وارتمى في أحضان زوجة تكرهها؟ هل يُلقي بها في الشارع؟ أم يتركها تعيش بمفردها، حتى تموت كمدا وحزنا؟ من سيرعاها في مرضها؟ لقد رفضت علياء الارتباط به، لوجود أمه معه، لقد نست الغبية أنها زوجة عمها، كانت الأولى برعايتها، لقد أدرك أن علياء لم تكن تكره أمه، لكنها لم تعشقه كما ينبغي، اختلقت الأعذار لكي ترحل وتتركه وحيدا!.

عرض خالد الرواية على الأستاذة عفاف، طلب منها أن تقرأها، وتُصححها لغويا، فرحبت كثيرا، وشكرته على اهتمامه بالطلاب، فبادلها الشكر على تفانيها في العمل، طلب منها أن تتابع المواهب، حتى يخرج من بين هؤلاء التلاميذ، العالم والأديب والفنان والسياسي والقائد أيضا.

عفاف، سيدة في بداية الخمسينات من عمرها، متفانية في عملها، رفضت أن تتولى منصب مديرة المدرسة، لرغبتها في إنهاء حياتها المهنية بداخل الفصل، أرملة، توفى عنها زوجها، وهي في ريعان شبابها، فعاشت من أجل أبنائها، فصار منهم المهندس حسام، الذي يعمل في شركة المقاولون العرب، وليلى، خريجة كلية الحقوق، التي تتمرن على المحاماة في مكتب كمال أبو زيد المحامي، القاطن في بناية ليليان.

بعد أسبوع، انتهت عفاف من قراءة وتصحيح الرواية، أعجبت بها كثيرا، وأبدت دهشتها من قدرة كريم، على كتابة رواية بهذه الروعة، وهو في ذلك السن المبكر، فأخبرها خالد أن لدى كل تلميذ، مواهب كثيرة، ولكن أسلوب التدريس العقيم، والتكدس الطلابي بالفصول، ومناهج التعليم غير المنظمة،

تُجبر التلاميذ على أن يتحولوا، إلى آلة لحفظ المناهج، حتى يُخرجوها في قوالب محفوظة، على ورقة الإجابة، وبعدها يضغطوا على زر حذف كل ما تم دراسته، فأضافت عفاف على كلامه، إن الغرب يقف بجوار الفاشل حتى ينجح، ونحن في الشرق، نقف ضد الناجح حتى يفشل.

بدأ خالد رحلة عرض الرواية، على دور النشر، اكتشف أنها مهمة شاقة ومُرهقة، كريم في بداية مشواره الأدبي، ومن الصعب أن تُوافق دور النشر، على نشر رواية لكاتب في بداية طريقه، بتلك السهولة، حتى ولو كانت الرواية قوية ومُبهرة، وتستحق أن تأخذ مكانها في النشر. دور النشر تنشر أعمال الأدباء الكبار، أصحاب التاريخ الطويل، في الكتابة والنجاح، حتى يضمنوا أن الرواية، سوف تُباع وتُحقق الأرباح المرجوة منها. فاضطر أن يراهن على كريم، اختار دار نشر كبيرة بالإسكندرية، اتفق على نشر الرواية، على نفقته الخاصة، مع الاحتفاظ بنسبة من الأرباح، مع عمل الدعاية اللازمة للرواية، اصطحب كريم إلى دار النشر، ووقع على العقد، وبدأت الدار في نشر الرواية، وطرحها في المكتبات، وظل خالد في انتظار النتيجة.

-٢٧-

خلال إجازة نصف العام، تمت مراسم الزواج بين سهير وسمير، وتم عقد القرآن، في قاعة المناسبات بكازينو الشاطبي، بحضور الأقارب والأهل والجيران، تبادل الجميع التهاني، على أصوات الأغاني والموسيقى الراقصة والزغاريد، بعدها أخذ خالد العروسين، وجاب بهما شوارع الإسكندرية، التقطوا الصور الفوتوغرافية، في أحد استوديوهات الشاطبي، ثم عاد بهما إلى بناية ليليان.

صعدا إلى الشقة، على أصوات الزغاريد، فتح سكان البناية أبواب شققهم، وشاهدوا سمير يتأبط ذراع سهير، التي ترتدي فستاناً أبيض طويلاً، مكشوف الصدر، خلعت النقاب، وأطلقت شعرها الغجري الأصفر، فبدت كعروس البحر، وتم إشهار زواجهما، وباركه الجميع، إلا شخصا واحدا، كان يرمقهما بعيونه، التي تُطلق شرار الغيرة، إنه طارق الأشقر، الذي تذوق حلاوة سهير، وما زال ينتظر اليوم، الذي تعود فيه إلى أحضانه من جديد، لقد كان زواجها بمثابة نهاية لتلك العلاقة، فلن تحتاجه بعد اليوم، ألقى على سمير نظرات الغيرة، بعدما لاحظ علامات الفحولة، تطل من جسده ووجهه، تمنى أن تكون تلك الفحولة، فارغة من الحيوية، وتحن سهير إلى لياليها معه.

طلب خالد من سهير، أن يبقى أسعد، في شقة أم خالد، خلال الإجازة، حتى يترك المجال للعروسين، فهما في شهر العسل، ولا يجب أن يكون أسعد بينهما، خلال تلك الفترة، حتى لا يسبب له ذلك، مشاكل نفسية، احتضنت

سهير ابنها، هرعت الدموع الساخنة من عيونها، وخالد يأخذه من بين أحضانها.

حاول خالد خلال تلك الفترة، أن يُشغل وقت أسعد، بممارسة الهوايات، اللعب عبر الانترنت، يصطحبه إلى سينما بيرم التونسي، يأخذه لحضور مباريات كرة القدم، في نادي الإتحاد السكندري، يُجلسه على مقهى الرشيدي، يلعبان الطاولة، يأخذه إلى مكتبة الإسكندرية، الكائنة على شاطئ الشاطبي، يُعطيه كتابا ليقرأه، يأخذه للصلاة في مسجد الشاطبي.

شعر أسعد خلال تلك الفترة، بسعادة غامرة، وتمنى أن يظل مع خالد، ويترك أمه لزوجها، فخالد لديه الكاريزما، والقدرة على جذب أي شخص إليه، مهما كانت ميوله.

اشتاق أسعد إلى مريم، فلقد اعتاد على زيارتها، فكان أحيانا يذهب إليها بمفرده، لتساعده في دروس اللغة الإنجليزية، وأحيانا أخرى يزورها مع أمه، التي تتطوع لمساعدة أم مايكل، في أعمال المنزل، نظرا لكبر سنها، ولظروف مريم المرضية، التي أقعدتها عن الحركة.

طلب من خالد، أن يذهب معه لزيارة مريم، فشعر بالحرج الشديد، فمنذ ذلك الحادث المؤلم، لم يزورها إلا عدة مرات، بصحبة زملاء المدرسة، فطلب من أسعد، أن يستأذنها قبل أن يذهب معه إليها. اتصل أسعد بمريم، واستأذن للزيارة، فرحبت كثيرا، خصوصا حينما أخبرها، بأن خالدا سيحضر معه.

-٢٨-

اصطحب أسعدُ خالداً إلى بناية ليليان، التي لم يدخلها منذ سنوات طويلة، قد تكون منذ تلك المرة، التي زار فيها مريم، بعد ذلك الحادث الأليم، دلف خالد بصحبة أسعد إلى مدخل البناية، هرول أسعد نحو المصعد، لكن خالدا طلب منه، أن يصعدا عبر الدُرج، إلى الطابق الخامس، حيث شقة مريم، وجدها خالد فرصة، لرؤية البناية من الداخل، وصلا إلى الطابق الثاني، حيث شقة أم معاذ، تلك السيدة التي تعيش، مع ابنها الصغير بمفرديهما، منذ أن مات زوجها، اقشعر قلب خالد، حينما اقترب من تلك الشقة، والتي كانت يوما، شقة عمه شهاب، والتي عاشت علياء بين جدرانها، قبل أن تغادر أسرتها إلى القاهرة.

أبحرت الذكريات شراعا في دمه، ترسو ذكريات البراءة والصبا، على شاطئ حلمه الضائع، بداخل الشقة، وأمام بابها، وعلى الدُرج الرخامية، رأى بقايا اللوحة القديمة، التي كانت تحمل اسم عمه، تسمر لدقائق، لم يشعر إلا وأسعد، يجذبه من يده، لاستكمال صعود الدرج، هروبا من شقة العفاريت!

وصلا إلى شقة مريم، رحبت بهما أم مايكل، سيدة عجوز قاربت على السبعين خريفا، رسم الدهر على وجهها النحيف، خرائط متشعبة، شعرها أسود قصير غزاه الشيب، يتدلى من أذنيها حلقا صغيرا، ترتدي سترة شتوية سوداء، وعلى صدرها النحيف، يرقد صليبا خشبيا كبيرا.

دعتهما للدخول، فسارا بجوارها عبر الصالة، سألته عن صحة أمه، وعن

الجلسات التي تعقدها، وقراءة الفنجان التي تعشقها، فضحك خجلا وأخبرها أنها اعتادت على تلك الجلسات، منذ أن تركت العمل، بعد بلوغها سن المعاش، فصارت جزءاً من حياتها، ولم يعد من الممكن أن تُغيرها، ألا اللعنة على الفراغ!

هم خالد بالجلوس، على أقرب كرسي قابله في الصالة، فاصطدمت قدماه بقطة بيضاء صغيرة، مكتنزة تشي بالصحة وحُسن التغذية، خرجت للتو من غرفة مريم، كانت تُصدر مواء بصوت ضعيف، كأنها ترحب به، ثم عادت إلى غرفة مريم، التي ينبعث منها صوت فيروز.. تذكر آخر مرة شفتك سنتا.. تذكر وقتها آخر كلمة قولتا.. وما عدت شفتك.. وهلأ شفتك.. كيفك أنت ملأ أنت... شعر أن مريم تعاتبه بصوت فيروز!

جلس يتأمل تلك الشقة، التي ما زالت تحتفظ بطرازها القديم، حينما تدخلها، تشعر بأنك داخل إلى ستينيات القرن الماضي، الأبواب والنوافذ الكبيرة، التي تقترب من السقف، الجدران المغطاة بورق الحائط، الأرضية التي يكسوها البلاط المصنوع من الرخام، والتي تبدو كرقعة الشطرنج، الأثاث العتيق الطراز، صور السيد المسيح، والسيدة مريم العذراء، معلقة على الجدران، ولوحة كبيرة تمثل العشاء الأخير، تتصدر الحائط المواجه لباب الشقة.

صمت صوت فيروز، فألقى بعينيه على الممر بين حجرة مريم والصالون، فسمع صوت مريم، تنادي على أسعد، الذي سحب خالداً من يده، وانطلق به نحو غرفة مريم، وردية الجدران، التي يترامى البحر، في زرقة صافية عبر نافذتها، وتُلاعب رياح الشتاء ستائرها، رآها جالسة على الكرسي المتحرك، بجوار النافذة، والقطة تجلس على رجليها، وخلفها مكتبة كبيرة عامرة

بالكتب، وبجوارها نسخة من الكتاب المقدس، وبيانو صغير، قابع في ركن من أركان الغرفة.

لقد اختصرت العالم في القطة والنافذة والكتاب المقدس والمكتبة والبيانو، وذلك الكرسي الذي تجلس عليه منذ سنوات طويلة، فصار توأمها الملتصق، الذي لا تستطيع الفكاك منه، ومزجت كل هذا بصوت فيروز، المليء بأشجان المراهقة منذ الأزل.

كانت عيناها تحمل عتابا صامتا، كعيني راهبة في أحد الأديرة العتيقة، خدودها الوردية صارت ذابلة، كوردة في فصل خريفي، وجسدها الرشيق تحول إلى النحافة، فبدت كشجرة مقطوعة الأغصان، صارت ملامحها غريبة، عن تلك الفتاة المُنطلقة، التي كانت تتنقل بين الفصول، في رشاقة الغزلان،لا تكل ولا تمل من العمل، صوتها الجهوري، الذي كان يتهادى بداخل فصول المدرسة، صار ضعيفا منكسرا، حاولت أن ترسم على وجهها ابتسامة، لكنها بدت واهنة رغماً عنها، صمتت طويلاً، وكأنها تعاتب الدنيا، التي هجرتها فجأة، بدون أية مقدمات، حادثت نفسها في حزن.. لماذا هجرني الجميع هكذا؟!

حاولت أن تتماسك، لكي تبدو قوية، حاولت أن تتذكر، نصائح الأطباء النفسين، الذين صدعوا رأسها، بكلامهم عن الثقة بالنفس، ومحاولة نسيان الذكريات الأليمة، حتى تستطيع تجاوز تلك المحنة.

رحبت بخالد، ودعته للجلوس، فجلس على مقربة منها، والخجل يكبله، طأطأ رأسه وأبدى اعتذاره الشديد، لعدم سؤاله عنها، طُوال تلك الفترة، لكنها لم تهتم، فليس وحده من هجرها، حاول أن يتقمص دور مدرب التنمية البشرية، يقنعها بأن تستغل الوقت، في اكتساب مهارات جديدة،

تُدون مذكراتها، أو خواطرها، تقرأكتبا في كيفية تنمية الذات، أو تكتب رواية أو شعرا، أشار إلى البيانو، القابع في ركن الغرفة، طلب منها أن تحترف العزف عليه، فابتسمت في سعادة، وتحركت بالكرسي المتحرك، نحو البيانو بأصابعه السوداء البارزة، وأصابعه البيضاء المنخفضة، هرولت القطة خلفها نحو البيانو في سعادة، التفتت مريم نحو خالد، وقبل أن تشرع في العزف، سألته عما يُحب أن يسمع، فتبسم ضاحكا، وطلب منها أن تعزف، ما يحلو لها، فعزفت لحن أغنية فيروز (شط إسكندرية يا شط الهوا)، وما أن انتهت من العزف، حتى صفق لها بحرارة، حتى عادت إلى جواره في سعادة، قفزت القطة على فخذها من جديد، فمسحت على شعرها.

دخلت أم مايكل بصينية الشاي والكعك، وضعتها أمامهم، على مائدة مستديرة مفروشة بغطاء أبيض، عليها إبريق صغير من الخزف، ممتلئ بالحلوى، مدت يدها في الإبريق، وأعطت لأسعد قطعة حلوى، ثم جلست بجوارهم تشاركهم الحوار.

لقد جربت مريم على مدار تلك السنوات الطويلة، كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، لتشغل عقلها عن التفكير، في تلك الكارثة التي تعيشها، لقد رفضت العلاج النفسي، تلك المسكنات العقيمة، التي يُلقي بها هؤلاء الأطباء النفسيين، الذين فشلوا بامتياز، في إخراجها من تلك المحنة. إن كل ما تتمناه، أن تعود إلى الشارع، تسير وسط الناس، تركب الترام، تجلس أمام البحر، تسمع صوت أمواجه، وتُفتش عن أصدافه، وتُشاهد طيور النورس، تذهب إلى السينما التي تعشقها، تذهب إلى كنيسة مارجرجس في أيام الآحاد، لتؤدي الصلوات، وتستمع إلى موعظة القس، وتحصل على بركاته.

شعر خالد أن لديها رغبة شديدة، في مغادرة الشقة ورؤية الشارع، فعرض عليها أن تُبدل ملابسها، ليتمشوا على شاطئ البحر، لم تُصدق أذنيها، أنها ستنزل إلى الشارع، وتجلس على البحر.

فرحت أم مايكل كثيرا، أخيرا وجدت من يهتم بابنتها، يمد يده، ليسقي تلك الوردة، التي ذَبُلت على مدار سنوات، يفتح باب السجن، ليُحرر تلك المُعتقلة، بداخل جدرانه الصماء، تئن من الوحدة، حتى خشيت عليها من الجنون، فالسنوات تمر بقسوة، وأم مايكل تقترب من عتبات الموت، فمرض القلب يهدد حياتها كل ليلة، كيف ستعيش مريم بمفردها، من سيعتني بها، بعدما انقطع عنهما الجميع.

خرج خالد وأسعد إلى الصالة، بينما أغلقت أم مايكل باب غرفة مريم، لتُساعد ابنتها في تبديل ملابسها. كادت مريم أن تموت من فرط السعادة، وخالد يقود الكرسي المتحرك، أخيرا ستخرج عبر المصعد، إلى خارج الشقة، التي ملت جدرانها، بل إلى خارج البناية، أخيرا ستحتضن الشوارع والناس والترام والبحر والشاطئ والأمواج والأصداف وطيور النورس.

كانت في قمة سعادتها، حينما وصلوا إلى شاطئ البحر، وجلسوا في كازينو الشاطبي، لم تنقطع عيونها عن البحر، تذكرت حبيبها إبرام، حلمها الذي تمنته يوما، ولكنها خسرته للأبد، تذكرت تسلق الشجر، تقليد الطيور، لعق حبات المطر، جلست تتأمل أسراب الطيور المهاجرة تلامس الأفق، والطائرات الملونة تعلو وتعلو فوق البحر، كشك السجائر، الذي كان يبتاع منه إبرام علبته المفضلة، وممر الأشجار ذات الجذور العتيقة والفروع المتشابكة، والبنايات المتشابهة على البحر.. اكتفت بالصمت، بعدما مات

الكلام في حلقها، منذ أن رحل إبرام بلا مقدمات، حادثت نفسها في حزن.. لماذا تركتني يا إبرام.. أتجرع لوعة الفراق وحدي.. أنا التي خسرت كل شيء في تلك الليلة.. شعر خالد بالسعادة، تنطلق من وجهها، لقد تبدل حالها في ثوان، رغم الحزن الطالع من عينيها.

كانت الشمس قد انتصفت في السماء، فخشيت مريم، أن تُرهق خالد معها، فطلبت منه العودة إلى البناية، خرجوا من الكازينو، واقتربوا من بناية ليليان، اصطدمت عيون خالد بمطعم الرشيدي، رائحة السمك المشوي تخترق مسام قلبه، فلطالما تناول فيه وجبات السمك الشهية، مع حبيبته علياء.

طلب منها أن تقبل دعوته على الغداء، فرحبت في سعادة بالغة، فهو نفس المطعم، الذي طالما جلست فيه مع حبيبها إبرام، دخلوا المطعم، شعر خالد بأن علياء، ما زالت بداخل المطعم، تجلس على نفس المائدة في انتظاره، أجلس مريم في نفس المكان، الذي كانت تجلس فيه علياء، وجلس أسعد بينهما، شعرت مريم بسعادة بالغة، لقد عادت الروح إلى جسدها، والدماء إلى خدودها، واللمعة إلى عينيها. تناولوا وجبة سمك شهية، ثم عادوا إلى الشقة، وحينما رأتها أمها، شعرت أنها ترى مريم أخرى، غير مريم التي كانت قابعة في غرفتها، تنتظر النهاية. طلب خالد من مريم رقم هاتفها، حتى يتواصل معها، ويرتب معها مواعيد الخروج، لكنها ارتبكت ونظرت إلى هاتفها النقال، وأخبرته أن بطارية الهاتف، قد فصلت شحن، وطلبت منه أن يدون رقم هاتفه في ورقة، وستتصل به في المساء. بالفعل اتصلت به، وشكرته كثيرا على اهتمامه بها، وإنه أعاد إليها روحها القديمة، وأن حالتها النفسية، قد ارتفعت إلى عنان السماء.

-٢٩-

على مدار إجازة نصف العام، اعتاد أن يصطحبها، إلى الأماكن العامة، حتى بدأت حالتها النفسية في التحسن، وأقبلت على الحياة، تمنى أن تحدث المعجزة، وتتخلص من ذلك المرض العصبي، الذي أقعدها على الكرسي المتحرك.

كان جالسا في غرفته، حينما وصلت إليه، رسالة من أميرة

.أنت فين يا رخم.. طمني عليك موش بتفتح ليه؟

ضرب رأسه بيديه، هرع إلى جهاز الحاسب الآلي، فتح صفحته عبر الفيس بوك، فوجد عشرات الرسائل من أميرة، تسأل عنه، تطمئن عن أخباره، تُعاتبه على غيابه، وعدم سؤاله عنها، طوال تلك الفترة، اعتذر إليها كثيرا، حكى لها عن مريم، تلك الفتاة التي أخذته من نفسه، طوال تلك الفترة، وعن الظروف التي تُعاني منها، على مدار سنوات، وعن محاولته مساعدتها، للخروج من تلك الأزمة.

فسألته هل ما يفعله معها، شعور بالشفقة؟ أم أنها شرارة العشق، تنطلق من جديد، نحو ساكنة جديدة من سكان بناية ليليان؟ فأخبرها بأن قلبه، لم ولن يدق لمريم، لأسباب كثيرة، منها أنها على غير دينه، وأن ظروفها الصحية والنفسية، لن تسمح بالوصول إلى تلك المرحلة، فعلى أميرة أن تطمئن، فضحكت كثيرا وحاولت إقناعه، بأنه ليس في عقلها أصلا، فسألها

عن سر قلقها عليه، فاتهمته بأنه ثقيل الظل، وأنها أخطأت، لأنها سألت عنه، وشعرت بالقلق من غيابه، فليهتم بمريم حبيبته الجديدة.

كانت كلمات أميرة، بمثابة ناقوس، دق بعنف في شغاف قلبه، وعزف على أوتار مشاعره، المحرومة من العشق، وأثار زوبعة من التساؤلات، بداخل قلبه وعقله ومشاعره.. لماذا يهتم بمريم؟ هل بدأ قلبه يدق من جديد؟! ولكن مريم مُختلفة كل الاختلاف، الوضع لا يصلُح مُطلقا، لمثل هذا التفكير، هل يتراجع عن اهتمامه بها؟ هل يُطفئ تلك السعادة، التي أشعلها في قلبها؟ مريم ليست ساذجة إلى تلك الدرجة! فتعتبر اهتمامه المفاجئ بها، عشقا داهم أسوار قلبه، واجتاح حياته من جديد، فظروفهما واحدة، كلاهما يعيش مع أم، قاربت على كتابة سطور النهاية، بعدها سيدخلان مرحلة الوحدة، وسيفتشان عن شريك يُؤنس وحدتهما، ويشاركهما أفراحهما وأحزانهما، ولكنهما على النقيض، خالد مسلم ومريم مسيحية، خالد متحرك ومريم ساكنة، خالد تخطى الأربعين، ومريم قاربت على الثلاثين..

إن اهتمامه بمريم، هو جزء من طبيعته التي تعرفها جيدا، جزء من صميم عمله، كأخصائي اجتماعي، هدفه هو مساعدة الآخرين بلا مقابل، تاجر السعادة، الذي يبيع الأفراح، وقلبه ممتلئ بالأحزان، ذلك المطرب الذي يغني للعشق، وهو محروم منه. بعد تفكير عميق، طرد تلك الأوهام من عقله وقلبه ومشاعره، وترك للأيام، وضع ملامح تلك العلاقة البريئة!.

-٣٠-

انتهت إجازة نصف العام، وجاءت سهير بصحبة سمير، لاستلام أسعد والعودة به إلى شقتها، لاحظ خالد أن سهير، قد تغيرت كثيرا، رائحتها تفوح فتنة، بعدما عاودت الاهتمام بتأنقها، خلعت النقاب، واستبدلته بوشاح مُلون، لفته حول رأسها ورقبتها، استبدلت ملابسها الفضفاضة، بالملابس الضيقة الأنيقة، ذات الألوان المُبهجة، تضع الأصباغ باحترافية شديدة، فبدت كعروس البحر، التي سمع عنها في الأساطير، الوجه الأبيض المُشبع بحمرة، العيون العسلية الواسعة، الخدود الحمراء المتوهجة، القد الممشوق الذي يوحي بالفتنة، بارك الله لك يا سمير!

أبدى سمير سعادته بتلك الزيجة، هدية العمر التي عوضته، عن سنوات حرمانه وشقائه، شكر خالد على تلك الهدية، التي كان السبب فيها، فطلب منه خالد أن يحافظ عليها، وأن يراعي مشاعر أسعد، وأن يلتزم بالآداب العامة في حضوره، وألا يحاول استفزاز مشاعره، حتى لا تتسلل الغيرة إلى قلبه، فهو ما زال في فترة المراهقة، بالتأكيد سيشعر بالغيرة على أمه، من ذلك الغريب، الذي أخذها من بين أحضانه. طلب منه سمير، الطمأنينة وعدم القلق، فسهير إنسانة عاقلة، وصديقه رجل يُقدر الظروف حق تقديرها، وأسعد منذ تلك اللحظة، التي وافق فيها على زواجه من أمه، صار ابنه وقرة عينه. مرت الأيام بينهم في سعادة بالغة، بعدما استطاع سمير، الاندماج مع أسعد، استطاع أن يصل إلى قلبه بسهولة، اتخذه صديقه، اصطحبه في كل مكان

يذهب إليه، ساعده على استذكار دروسه، ترك له حرية اختيار لا حدود لها، لم يُجبره على فعل شيء يكرهه. حتى شعر أسعد بأن هناك تغيرا جذريا، قد طرأ على حياته، أدرك معني أن يكون له أب، يرعى شئون حياته، يخاف عليه، يحميه من تقلبات الدهر، يُوجهه بلا عصبية، شعر أن سمير، صار أباه الحقيقي، بعدما استطاع سمير بمهارة فائقة، أن يشارك سهير، في قلب ابنها أسعد.

الشيء الوحيد الذي نغص على سهير حياتها، وأقلق منامها، وهدد ذلك البيت السعيد، تلك النزوة التي مارستها مع طارق، لقد عاود طارق، ممارسة سخافاته من جديد، يستغل فرصة وجودها بمفردها في الشقة، فيُطرق عليها باب شقتها، ويحاول الدخول، يركب معها المصعد، ويحاول التحرش بها، وحينما نهرته وهددته، أنها ستشكوه لزوجته، أرسل إليها عبر (الواتس أب)، مقطع فيديو، صوره لها، وهي بين أحضانه، وهددها بأنه سيرسله، إلى طليقها أبو أسعد، وزوجها سمير، إن لم تستجيب لرغباته، وتعود لممارسة الرزيلة معه، وحينما هددته أنها سترسل الفيديو إلى زوجته، طلب منها أن تشاهد الفيديو جيدا، الذي لا يُظهر وجهه، فالتصوير تم من عدسة خلفية، أظهرت وجهها وجسدها، في حين يُظهر ظهره فقط، وتم التعتيم على وجهه باحترافية شديدة، حتى لا يستطيع من يُشاهد الفيديو التعرف عليه!

طارق الأشقر، ينتقم من ماضي مجهول، لا يعرفه الكثيرون، إنه مريض منذ الطفولة، بحالة نفسية مُعقدة، منذ أن مات أبوه، وتركه صغيرا بين أحضان أم عاهرة، تتنقل بين أحضان الرجال، كانت تحبسه في غرفته، وتنفرد بالرجال في غرفة نومها، لكنه كان يسمع صوتها المشبع بالنشوة، يتسلل من خلف

باب غرفتها، وحينما أعلن رفضه لممارسات أمه، صفعته على وجهه، فتركها وهرب إلى بيت عمه، ورفض الرجوع إلى أحضانها حتى ماتت، لكن بقيت تلك النظرات المسمومة، التي تنهش جسده، والهمسات التي تُشعره بالخزي، بأنه ابن العاهرة، أي شيء أسوأ من أن تكره أمك، أن تبغضها، أن تحتقرها، سيرتها تحاصرك بداخل نفسك، أين تفر منها؟ فقرر الانتقام من كل النساء، لابد أن يُحول كُل نساء الأرض، إلى عاهرات مثل أمه.

شعرت سهير أن الدنيا تدور برأسها، لم تكن تتوقع، أن يكون طارق بكل تلك القذارة، كيف سلمت شرفها إلى ذلك الشخص المريض، الذي يريد أن يهدم بيتها فوق رأسها، دعت الله أن يحفظ حياتها الجديدة، أن يستر عليها، ويغفر لها زلتها، ألا يفضحها أمام ابنها. ترددت كثيرا، قبل أن تلجأ إلى خالد، وتحكي له تلك الكارثة، التي ستقلب حياتها رأساً على عقب، ستُضيع منها الدنيا الجميلة، التي ابتسمت لها أخيرا.

-٣١-

بعد انتهاء شهر العسل، أطلت مروة بثوبها الجديد، تغيرت كثيرا، حتى يكاد من يراها أن لا يعرفها، اعتادت ارتداء الحجاب، والملابس الواسعة، وأقلعت عن وضع المساحيق، إلا بالقدر الكافي، الذي لا يظهر للعيان، مسحة خفيفة من الكحل في عينيها، ومسحة خفيفة من أحمر الشفاه على شفتيها، حتى لا تُتهم بالتبرج، ظهرت عليها علامات التدين، تمسك بمسبحة صغيرة في يدها، تتمتم بالذكر طوال الوقت، المصحف لا يفارق حقيبتها، تُصلي الظهر في غُرفة المدرسات، شعر خالد بالراحة النفسية، لأنه استطاع إقناعها باتخاذ قرار الزواج من مدحت الذي أثبت بالفعل أنه يستحقها.

كان خالد في غرفة مكتبه، حينما دخلت عليه مروة، وعلى وجهها علامات التُقى والورع، جلست أمامه وعينيها في الأرض، أبدى إعجابه بذلك التغيير، سألها عن أخبارها مع مدحت، فأخبرته بأنه أروع إنسان في الدنيا، وأنها كانت ستخسر كثيرا، لو رفضت الزواج منه، لقد غير شخصيتها للأفضل، واستطاعت أن تغير من شخصيته، أصبح كريما مع الجميع، وتخلى عن عصبيته، التي كان سببها، تأخره في الزواج، بعد فشل زيجته الأولى، وما أن تزوج من مروة، حتى استقرت حياته، وليس هذا فحسب، لقد تأكدت من صدق كلامه، بأن زوجته الأولى، كانت السبب في عدم الإنجاب، بعدما أخذها إلى الطبيب، وأكد لهما أن لديهما القدرة على الإنجاب، وأنها مسالة وقت ليس أكثر، فرغم محاولة مدحت الحفاظ على مشاعر زوجته الأولى، فلم

يفضحها، لكن أهلها استغلوا طيبة قلبه، فحاولوا ابتزازه، فقرر الانفصال.
استمر الحوار بينهما، حتى جاءت محطة السبب من الزيارة، لقد جاءت لتشكو إليه، من المهندس طارق، جارهما في بناية ليليان، لقد بدأ يرمي شباكه عليها، كرر تلك الممارسة السخيفة، التي مارسها مع سهير، ينتظرها أمام باب شقتها، يتعمد ركوب المصعد معها، يمدح ملابسها المحتشمة، يتغزل في جمالها، حاول أن يتحرش بها، ولكنها نهرته بشدة، وهددته أنها ستشكوه إلى زوجته، وإن لم يُقلع عن تلك التصرفات الصبيانية، فإنها ستضطر أن تخبر زوجها، ليتصرف معه، لكنها رأت أن تشكوه لخالد، قبل أن تتفاقم المشكلة، فزوجها شديد الغيرة، وقد يتصرف معه بتهور شديد.
قرر خالد، أن يرد على جنون طارق بصرامة، ليجبره على التزام حدوده، لقد أصبح فيروسا خطيرا، يهدد بيوت جيرانه، التي باتت تحت رحمة رجل مستهتر، لم يكن يرضي شهواته فقط، بل يصور ضحاياه ليبتزهم. رغم أنه لم يفضحه أمام زوجته رحمة به، ولكنه لا يستحق الفضيحة فقط، بل يستحق الموت، ولكن كيف سيُوقع بطارق؟ بعدما أقلع عن التلصص! ولكن الضرورات تبيح المحظورات!

-٣٢-

انتظر خالد ذلك اليوم، الذي يُجلب فيه طارق فرائسه، في غياب زوجته، أمسك بالمنظار المقرب، أطفأ ضوء غرفته، وأوصد النافذة، واقترب بالمنظار من خلف الشيش، ألقى بعيونه إلى داخل شقة طارق، شاهده يرتدي ملابسه ويستعد للخروج، يبدو أنه قد غير من طقوسه، التي اعتاد عليها، بعد تلك الشكوك التي دخلت قلب زوجته، منذ مكالمة سهير، التي أشعلت نيران غيرتها، فشرعت تراقبه كظله، فأصابته بالارتباك، فقرر أن يأخذ حذره، حتى لا يقع تحت طائلة زوجته، التي لن ترحمه، وقد تتحول إلى إعصار مدمر يهدم مملكته!

جلس خالد على المقهى، في انتظار خروج طارق من باب البناية، حتى يراقبه ويعرف أين يقضي نزواته، والتي يبدو أنه يقوم بها خارج البناية، لقد اعتاد طارق ممارسة الرزيلة، حتى صارت جزءاً منه، لا يستطيع التخلي عنها، يفتش عنها في أي مكان، ومع أي مؤنث سالم.

مرت ساعتان، منذ أن خرج طارق من شقته، ولم يظهر في الشارع، رغم أن خالد ظل جالسا في المقهى، وعيونه لم تفارق مدخل البناية، حتى شعر بالملل،

وفجأة ظهرت زوجته فريدة تهبط من سيارتها، عائدة من بيت أبيها بصحبة بناتها.

فأسرع بالعودة إلى شقته، وتلصص على شقة طارق، فوجده في غرفة مكتبه،

يرتدي ملابس البيت، يتظاهر بالانهماك في عمله كالعادة، دخلت عليه زوجته، احتضنها وقبلها، ووقفا يتبادلان الضحكات، ويداعب بناته الصغار.

ما هذا اللغز المحير؟!

يبدو أن طارقا، يمارس نزواته بداخل البناية، ولكن كيف؟ وأين؟ ومع من؟ من تلك العاهرة التي تسكن البناية؟ يبدو أنه يذهب إلى عواطف في شقتها، تبا لزوج عواطف النذل، الذي هجر زوجته، فدفعها إلى البحث عن من يؤنس وحدتها، ويُشبع حرمان جسدها.

ولكنه قرر أن يتأكد، قبل أن يكون سببا، في فضيحة عواطف، فطارق شخصية محيرة، شُعلة من النشاط، لا يُضيع وقتا، شيطانه حاضر طوال الوقت، يلعب على نقطة ضعفه، نزواته مع النساء فقط، هذا النوع من الرجال، تستطيع بسهولة، أن تُجبره على فعل أي شيء، طالما ألقيت في طريقه امرأة، سيبيع مبادئه من أجل قضاء ليلة ساخنة.

اضطر خالد أن يُبلغ سهير بالقصة، ويطلب منها مساعدته، في التوصل إلى حل لذلك اللغز المحير، طلب منها، أن تُتابع طارق من خلال العين السحرية، بباب شقتها، حتى إذا خرج من شقته، تفتح باب شقتها، وتراقبه دون أن يشعر بها، حتى يعرف إلى أين يذهب، رفضت بشدة أن تراقبه، مهما كانت الضرورة، فهي ترفض تتبع عورات الناس. لم يُرد إجبارها على التجسس على طارق، لكنه طلب منها أن تتصرف بمفردها، حيال تهديداته، التي قد تُدمر أسرتها، حكى لها عن تلك السخافات، التي يمارسها مع مروة، فوافقت على مضض، وبالفعل استطاعت مراقبته دون أن يشعر بها.

في يوم الخميس، وفي تمام الساعة السادسة، طلبت من أسعد وسمير، أن

يخرجا لشراء بعض مستلزمات البيت، ووقفت خلف باب شقتها، نظرت من خلال العين السحرية، حتى فتح طارق باب شقته، التفت حوله، وبدلا من أن يهبط الدرج، ليخرج من البناية، وقف أمام المصعد، وكان من حسن حظها، أن المصعد كان معطلا، فصعد الدُرج، فتحت باب شقتها بهدوء، وراقبته حتى صعد الطابق الخامس، ودخل شقة الفنانة المعتزلة سميرة سكر.

-٣٣-

اكتشف خالد أنه من الصعب، التلصص على شقق الطابق الخامس، البعيدة عن مستوى نظره، ولو فكر جديا في التلصص عليها، فلابد أن يصعد إلى سطح بناية الأباصيري، التي يسكن فيها، حتى يتمكن من رؤية شقة سميرة سكر بوضوح.

صعد خالد إلى سطح البناية، درس الموقع جيدا، اكتشف أن تلصصه، من فوق سطح البناية، سيكون عُرضة للانكشاف، فالسطح مكشوف للبنايات المجاورة، كما أنه يموج بأطباق (الستالايت)، وقد يصعد أحد السكان إلى السطح، على حين غفلة، لإصلاح (الستالايت)، ويكتشف تلصصه، وتكون فضيحة!

فكر في وسيلة، تكون أكثر أمانا، فابتسم وهو يتأمل بقايا برج الحمام، الذي كان ملكا لوالده يوما ما، لكنه أهمله منذ وفاة والده، فقرر أن يُجهز مكانا بداخل البرج، ليكون مرصدا له، يستطيع من خلاله، متابعة شقة سميرة سكر.

في يوم الخميس، وبعد أن خرج طارق من شقته، صعد خالد إلى برج المراقبة الجديد، كان الطابق الخامس يحوي ثلاث شقق، شقة نمرة (10) وتسكنها الفنانة المعتزلة سميرة سكر، وشقة نمرة (11) وفيها مكتب كمال أبو زيد المحامي، وشقة نمرة (12) وتسكنها أم مايكل. كانت مريم جالسة في الشرفة، التي تزيّنها بالأزهار، يبدو أنها تقرا كتابا، أو تعبث بهاتفها النقال، صوب منظاره نحو شقة سميرة سكر، في انتظار دخول طارق.

سميرة سكر، فنانة إسكندرانية معتزلة، بدأت حياتها الفنية، على مسرح الإسكندرية الثقافي، حيث لفتت نظر المخرج عبد الرحمن عليوة، الذي كان يعرض مسرحية ليلة الزوجات، على مسرح بيرم التونسي، خلال الموسم الصيفي، فاختارها في أحد الأدوار الصغيرة، دور فتاة ليل، لا يتعدى دورها أكثر من ثلاثة مشاهد، لكنها استطاعت من خلال تلك المشاهد القليلة، أن تخطف الأضواء بحُضورها المتميز، وخفة ظلها بالإضافة إلى قدها الممشوق، وملامحها التي تُوحي بالإغراء. قررت السفر إلى القاهرة، للعمل في السينما، بعد أن زكاها المخرج عبد الرحمن عليوة، عند أحد زملائه من المنتجين، فاختارها في دور شبيه بدورها في المسرحية، دور راقصة في إحدى الحانات.

قدمت سميرة سكر تنازلات كثيرة، لكي تستمر في عملها في السينما، وافقت على القيام بمشاهد التعري، لكنها لم تخرج عن كونها، كومبارس متكلم، حتى اختارها أحد المخرجين في دور كبير، كان سيقلب حياتها رأسا على عقب، ولكن حدث ما لم تكن تتوقعه، فأثناء ذهابها إلى موقع التصوير، أُصيبت في حادث سير، إصابة بالغة، سببت لها أعاقة في قدمها، وظلت حبيسة البيت، حتى تناساها الجميع، فقررت العودة إلى الإسكندرية، لتُكمل بقية حياتها، في شقتها القديمة ببناية ليليان، ومع قلة الدخل، اضطرت إلى تحويل شقتها إلى كازينو صغير، تستقبل فيه ضيوفها المقربين على فترات بعيدة، يقضون سهرة على أنغام الموسيقي، والرقص وشرب الحشيش، مع وجود بعض الساقطات، وعلى فترات طويلة تُقام مائدة القمار. تنتقي سميرة ضيوفها بعناية، مع وجود حماية من أحد الكبار، حتى لا تتعرض للفضيحة

والمساءلة القانونية، وفي نهاية السهرة، يُخرج كل منهم مبلغا من المال، ويضعه في يدها.

تابع خالد الضيوف، الذين توافدوا على الشقة، كانوا لا يُعدون على أصابع اليدين، رجال مراهقون ونساء ساقطات، وخمر وموسيقى ورقص، تتوسطهم سميرة سكر، رغم سنها الذي تخطى الخمسين، غير أنها ما زالت بخيرها، ترتدي فستانا أحمر، يكشف صدرها الأبيض، وشعرها الأصفر يزين كتفيها، تضع بين أصابعها اليمنى سيجارة، وبيدها الأخرى كأس، ترحب بضيوفها، ثم تتركهم يتنقلون بحريتهم، بين غرف الشقة، كل رجل حظي بسيدة وجلس بجوارها.

دُق جرس الباب، فتحركت سميرة نحوه، فظهر جسدها الممتلئ، وتلك الإعاقة القديمة، التي تبدو من حركتها، كان هذا العرج الخفيف، يعطيها فتنة خاصة، نظرت من خلال العين السحرية، تأكدت أن طارقا ضمن قائمة الضيوف، ففتحت له بسرعة، سلم عليها، واحتضنها وقبل وجنتيها، فشعرت بالسعادة.

. في معادك مظبوط يا بشمهندس..

. هو أنا اقدر أتأخر عن نجمتنا الجميلة..

تنهدت بعدما ذكرها بماضيها الجميل، ربتت على كتفه، وأدخلته وأغلقت الباب، وما أن دخل حتى تخلص من سترته، وجلس بجوارها، يتبادلان النكات والضحكات والقُبلات.

ما كان يشغل عقل خالد، هو كيفية التخلص من ذلك القذر، الذي لا يتورع عن ارتكاب نزواته، وتهديد ضحاياه وابتزازهم، لقد أصبح الآن في قبضة

يده، لن تأخذه به شفقة ولا رحمة، وكل الخيارات متاحة أمامه، وله حرية الاختيار في طريقة الإيقاع به، قد يُبلغ الشرطة، عن تلك الشقة المشبوهة، في وجود طارق، فيتم القبض عليه معهم، وقد يُصوره بكاميرا الهاتف النقال، ويُهدده بالفيديو، مقابل الفيديو الذي يُريد فضح سهير به، وقد يُبلغ زوجته فريدة، فتضبطه مُتلبسا مع سميرة سكر، وتنتهي القصة.

ترك خالد شقة سميرة سكر، وانتقل بالمنظار إلى شقة مريم، فوجدها ما زالت جالسة في الشرفة، فحادث نفسه، ألا تمل مريم من تلك الجلسة، سنوات طويلة لم تجد من يشاركها وحدتها، يُمسك بيدها ويربت على ظهرها، فقرر أن يعاود زيارتها، فيأخذها في نزهة على البحر، أو يعرضها على أحد الأطباء النفسيين، لمساعدتها على العودة إلى الحركة والانطلاق.

بينما ينتقل بالمنظار من شقة مريم، ويعود إلى شقة سميرة سكر، حتى وقعت عيناه بداخل مكتب كمال أبو زيد المحامي، كان جالسا على مكتبه، ويجلس أمامه رجل في حوالي الخمسين من عمره، ويبدو من إشارات الأيادي، والحدة في الحوار أنهما يتشاجران.

كان الرجل هو شوقي مدكور، الموظف بمحكمة الإسكندرية، والذي طالما أستخدمه أبو زيد، في الحصول على صور مستندات القضايا، ومعرفة معلومات عن المُوكلين، أو تغيير مستندات القضايا، أو تغيير حرز القضايا إن لزم الأمر، ومع كل صفقة، كان يخرج شوقي مدكور من مكتب أبو زيد، وجيوبه منتفخة بالأموال، ولكن يبدو أنهما اختلفا هذه المرة، في تقسيم أرباح الصفقة، فحصل أبو زيد على نصيب الأسد، بينما ترك لشوقي الفُتات، حتى لا يطمع فيه، فهدده شوقي مدكور:

. أنا عايز نص المبلغ.. هو أنت عملت إيه يعني؟.. أنا اللي غيرت مستندات القضية!

نظر إليه أبو زيد بسُخرية شديدة، وألقى في وجهه بضحكة عالية، أثارت حفيظته

. هدي نفسك شويا.. أنت عارف إن رقبتك في أيدي.. بس ما يهون عليا أخنقك..

شعر شوقي بالارتباك، فماضيهما سويا قذر للغاية، منذ أن أدخله أبو زيد في ذلك الطريق، وأشبعه من المال الحرام، فاستطاع شراء بناية في الأزاريطة، لكنه أيضا يمسك برقبة أبو زيد وبقسوة، فلقد جني من ورائه الكثير، ملايين تمتلئ بها البنوك، وأراض وعقارات، فاظهر عدم خوفه من التهديد، بل صرخ في وجهه:

. وأنت كمان رقبتك في أيدي.. وان ما أخذتش النص.. أطلع المستندات الأصلية.. فاكرها؟ اللي بدلتها بالمزيفة.. وأقلب القضية ضد الباشا اللي طلعته من مؤبد.. وعليا وعلى أعدائي يا أبوزيد!

ابتلع أبوزيد ريقه، حاول أن يُهدئ من ثورة شوقي، فمد يده نحو خزانته، فتح بابها بعنف، سحب منها عدة رُزم مالية، وألقاها أمام شوقي، وقال في غضب:

. أظن كده أخذت حقك.. وزيادة عن كل مرة!

نظر شوقي إلى رُزم الأموال، وضحك بسخرية، ووقف خارجا من المكتب، مُهددا أبو زيد، أنه سيُبلغ النائب العام، بأن مستندات القضية قد بُدلت، وساعتها سيتم إعادة التحقيق في القضية، التي ستنتهي بعودة المتهم إلى الحبس المؤبد، ودخول أبو زيد سجن الحضرة، مرتديا البذلة الزرقاء.

شعر أبوزيد بالرعب، من تلك التهديدات الرعناء، التي ستهدم مملكته في عالم المحاماة، فجذب شوقي من ملابسه، وتعالت صيحاتهم، فدخلت عليهما ليلى ابنة الأستاذة عفاف شعرت بالرعب من منظرهما، ذئبان في غابة، يتصارعان من أجل البقاء، حاولت أن تُهدئ من ثورتهما:

.أهدى يا أستاذ شوقي.. صلوا على النبي يا جماعة..

لكن الشجار كان قد تطور، وتحول إلى تشابك بالأيدي، فما كان من أبو زيد، إلا أنه أمسك بتمثال معدني، كان قابعا فوق مكتبه، لسيدة عارية الصدر، معصوبة العينين، وضرب شوقي بالتمثال على رأسه ضربة واحدة، أسقطته على الأرض، وسالت الدماء من رأسه، ما أن رأت ليلى، منظر شوقي وهو يترنح على الأرض، والدماء تسيل من رأسه، ويُخرج أنفاسه الأخيرة بصعوبة، حتى سقطت على الأرض بجواره، فاقدة الوعي.

حدث ارتباك شديد، أبو زيد يتحرك حركات عشوائية في المكتب، محاولا إخفاء أثار جريمته، وفجأة اختفى عن أنظار خالد، وهدأت الحركة بداخل المكتب تماما، شعر خالد بالذعر، انتفض جسده كعصفور بللته قطرات المطر، وانتقل إلى شقة سميرة سكر، فرأى السهرة مازالت مستمرة، وإحدى الفتيات ترقص، على أنغام الموسيقى، وطارق يجالس إحدى السيدات، يلف ذراعه حول رقبتها، ويداعب شعرها. انتقل إلى شقة مريم، فوجدها مازالت جالسة في الشرفة، تتابع الشارع، عاود الانتقال بالمنظار إلى مكتب أبو زيد، فوجده ما يزال على هدوءه، حتى ظهر أبو زيد من جديد، وبصحبته مصيلحي ساعي المكتب، وهريدي بواب البناية، كان يبدو على أبو زيد الاندهاش والصدمة، أخرج هاتفه النقال، وأبلغ الشرطة.

لم تمر عدة دقائق، إلا وعربات الشرطة والإسعاف، تقف أمام بناية ليليان، نزل منهم رجال الشرطة والإسعاف، وهرولوا إلى الطابق الخامس، انتقل خالد إلى شقة سميرة سكر، التي انزعجت من صوت عربات الشرطة، وفجأة اختفى جميع ضيوفها في لمح البصر، أطل سكان البناية والبنايات المجاورة، بعيونهم نحو الشارع، حيث مصدر صوت الإسعاف والشرطة، انتشرت قوات الشرطة بداخل الشقة، يفتشون في أرجاء الشقة، ويرفعون البصمات، ويستجوبون أبو زيد، وساعي مكتبه وبواب البناية.

ظل خالد يراقب مدخل البناية، حتى رأى رجال الإسعاف، يخرجون من باب البناية، وهم يحملون جسدين إلى سيارة الإسعاف، جُثة شوقي مدكور، وجسد ليلى ابنة الأستاذة عفاف. فشعر بالارتباك، تجمدت مفاصله، وسحب المنظار وهرع إلى شقته، كانت أمه تقف في الشرفة، تتابع الموقف عن كثب، لم يلتفت إليها، هرول إلى غرفته، وجسده ينتفض، وأنفاسه المتقطعة ترهقه، خبأ المنظار في دُرج مكتبه، وبدل ملابسه، وألقى بجسده على السرير يفكر، هل يُبلغ عفاف بما حدث لابنتها؟ هل يُهرول خلفها إلى المستشفى؟ أم يُهرول إلى قسم الشرطة، ويشهد بما شاهده؟ لكن الرعب شل تفكيره، والخوف من الفضيحة، طارده كذئب يريد أن يفترسه، فقرر الانتظار حتى الصباح، حتى يعرف ما حدث بالتفصيل، ويتصرف على أساس ما حدث، حتى لا يفضح نفسه بلا فائدة!

-٣٤-

استيقظ من نومه بتكاسل واضح، على صوت أمه، تُخبره بأن صلاة الجمعة قد حانت، شعر بصداع شديد يضرب رأسه، وعقله يسترجع أحداث تلك الجريمة، استسلم للنوم من جديد، لكنه أفاق على صوت أمه، تناديه من جديد، خرج إلى الصالة، فوجدها جالسة على مائدة الإفطار، جلس بجوارها وسحب كوب الشاي، ورشف منه عدة رشفات، مُنتظرا أن تُخبره، عن ما حدث بالأمس في بناية ليليان، طال الانتظار ولم تحكي كعادتها، فكر أن يُنشط ذاكرتها، لكنه فضل الانتظار، حتى تذكرت، وبدأت تسرد ما تعرفه، أبدا عدم الاهتمام، ولكنه أنصت إليها، بلع ريقه خوفا، من تلقي أخبار سيئة، عن ليلى ابنة عفاف، بدأت في سرد ما حدث، أنهم قد وجدوا قتيلا، في مكتب أبو زيد المحامي، حاول إبداء الدهشة، تدلى فكه واتسعت عيناه، وسألها عن التفاصيل، فسردت له ما سمعته من الجيران، بأن أبو زيد المحامي، دخل مكتبه مساء أمس، فوجد أحد عملاء مكتبه، غارقا في بركة من الدماء، وبجواره ليلى ابنة زميلته عفاف، فاقدة الوعي، فاتصل بالشرطة، التي حضرت على الفور، ومعها سيارة الإسعاف، وتم نقل القتيل إلى المشرحة، وليلى إلى المستشفى.

أخذ حماما ساخنا، ونزل لأداء صلاة الجمعة، كان عقله شاردا، فلم يستوعب كلمة واحدة، مما قاله الخطيب الواقف على المنبر، رغم استيعابه، موضوع الخطبة، كتم الشهادة (ومن يكتمها فانه آثم قلبه)، خرج من المسجد،

وصراع مرير دائر بين عقله وقلبه، وقف أمام كشك الجرائد، القابع بجوار المسجد، اشترى الجريدة، تصفح صفحاتها بحثا عن الخبر، وجده يتصدر صفحة الحوادث (جريمة قتل في مكتب محاماة بعمارة ليليان بمنطقة الشاطبي بالإسكندرية)

الخبر يسرد ما رواه أبو زيد، بأنه عاد إلى مكتبه، بصحبة ساعي مكتبه وبواب البناية، فوجد السيد شوقي مدكور، الموظف بمحكمة الإسكندرية، غارقا في الدماء، والمحامية تحت التمرين ليلى عبد الرحمن، راقدة بجواره في غيبوبة كاملة، ذُهل خالد من شهادة أبو زيد، التي تُخالف الحقيقة.

-٣٥-

كانت ليلى راقدة، في إحدى غرف مستشفى الشاطبي الجامعي، ويقف على باب الغرفة، عسكري فارع الطول، بملامح قروية. اقترب وكيل النيابة من الغرفة، وخلفه كاتب النيابة، فانتفض العسكري، وأعطى له التحية العسكرية. دخل وكيل النيابة على ليلى، بعدما طرق عليها الباب، فوجدها ما بين النائمة واليقظانة. اقترب منها، وسألها عن حالتها، فحركت رأسها في هدوء، وأخبرته أنها بخير. أشار إلى كاتب النيابة، أن يدون الاستجواب، سألها عن اسمها وسنها وعنوانها، وطبيعة عملها في المكتب، فأجابته عن كل تلك الأسئلة، التي يبدأ بها أي تحقيق، ثم طلب منها، أن تسرد ما حدث ليلة وقوع الجريمة، فأجابت بكل ثقة وهدوء.

.كنت في المكتب.. لما حضر شوقي مدكور.. وطلب يقابل الأستاذ أبو زيد، دخلت بلغته، فطلب مني أسمح له بالدخول.. كان عم مصيلحي ساعي المكتب واقف معانا.. وطلب منه شوقي مدكور.. يشتري له علبة سجاير.. فأخذ منه الفلوس ونزل.. وبعدها دخل شوقي مدكور.. مكتب الأستاذ وقفل الباب.. ورجعت أكمل شغلي.. بعدها سمعت صوت خناقة كبيرة.. بين الأستاذ وشوقي.. فهمت من صوتهم العالي إنهم مختلفين على تقسيم فلوس.. دخلت عليهم وحاولت أهدي بينهم.. لكن بدأت الأيادي تتحرك بعنف.. وفجأة مسك الأستاذ أبو زيد.. التمثال الحديد اللي على مكتبه.. وضرب بيه شوقي على رأسه.. فوقع على الأرض..والدم نزف من رأسه.. أول

ما شفت منظر الدم.. وشكل شوقي وهو ممدد على الأرض.. وقعت من طولي.. وما فوقتش إلا وأنا هنا في المستشفى..

. ما هي طبيعة العلاقة بين شوقي مدكور وكمال أبو زيد؟

كمال أبو زيد محامي كبير، وله قضايا كثيرة في أروقة المحاكم، وأحيانا يحتاج إلى شوقي مدكور، الذي يعمل في محكمة الإسكندرية، في الحصول على صور من مستندات القضايا لدراستها.

. ما هو سبب الشجار الذي حدث بينهما، والأموال التي كانا يتشاجران من أجلها؟

هزت رأسها بالنفي، وأنها لا تعلم شيئا، عن تلك الخلافات المالية التي بينهما، فاطرق وكيل النيابة رأسه للأرض، وهرش في ذقنه، وعدل من وضع نظارته، وسألها في صرامة:

. هل حاول شوقي مدكور أن يتحرش بكِ؟

نفت أن يكون قد حدث ذلك، فشوقي مدكور رجل تخطى الخمسين عاما، وأنها في عمر ابنته، ولم يحاول خلال المرات الكثيرة، التي حضر فيها إلى المكتب، أن يتحرش بها مطلقا، ولم تظهر من تصرفاته، ما يدل على أنه رجل شهواني، كما أنها ملتزمة في علاقاتها مع الآخرين، وتضع دائماً مسافة كبيرة، بينها وبين عملاء المكتب، لقد تربت على الأخلاق الحميدة، وعدم الدخول مع الآخرين في أية علاقات.

. وماذا عن تلك الخدوش، التي في وجهك وصدرك، وما هو سبب تمزق ملابسك ؟

رغم إنكارها، حدوث أية محاولة للتحرش، من جانب شوقي مدكور، لكنها

شعرت بالحرج، وكادت دموعها أن تهرع من عيونها الضيقة، وهي تؤكد أنها في غاية الدهشة، من تلك الخدوش التي بجسدها، ولا تعلم سر تمزق ملابسها.
أخرج وكيل النيابة، تقرير المعمل الجنائي، الذي يُؤكد، أن تلك الخدوش، التي ترتكز في منطقة الصدر والوجه، تدل على أن المجني عليه، حاول التحرش بها، وأن هناك بقايا في أظافر المجني عليه، من جلد صدرها ووجهها، كما أكد التقرير، أن شوقي مدكور، يتعاطى حبوبا مخدرة، تُستخدم في زيادة القدرة الجنسية، وأنه سكير من العيار الثقيل.
صرخت ليلى في وجه وكيل النيابة، وأقسمت أن شوقي مدكور، لم يلمسها مطلقا، وأن المشاجرة كانت بينه وبين كمال أبو زيد، حاول وكيل النيابة، أن يُهدئ من روعها، لكنها رفضت أن تهدأ، ورفضت أن تستكمل التحقيق.
دخل عليهم طبيب المستشفى، وخلفه مجموعة من الممرضات، على صوت صرخاتها، فوجدها مُنهارة للغاية، وعلى وشك الدخول في حالة من الانهيار العصبي، فطلب من وكيل النيابة، أن يكتفي بما تم من تحقيق، وأمر الممرضة الواقفة بجواره، أن تُعطيها حُقنة مُهدئة، مما اضطر وكيل النيابة إلى إنهاء التحقيق، وخرج من الغرفة، وخلفه كاتب النيابة، والممرضة تعطيها الحُقنة.

-٣٦-

في مكتب وكيل النائب العام، جلس الشاهد الأول، هريدي بواب البناية، والذي قدم من الصعيد، إلى عمه جابر عثمان، البواب السابق لبناية ليليان، عمل تحت إمرته لفترة، حتى ترك له عمه بوابة البناية، وفتح مكتب العقارات، يحمل هريدي الكثير من صفات عمه، وصولي إلى درجة كبيرة، يُداهن سكان البناية، ولا يتورع عن فعل أي شيء من أجل المال، يُغمض عينيه عن انحرافات سكان البناية، طالما أنهم يملئون كفه بالعطايا، خصوصا سميرة سكر وزبائنها، ومهندس طارق ونزواته، وأخيرا تستُره على الجريمة، التي ارتكبها كمال أبو زيد في مكتبه، خلال فترة وجيرة، استطاع هريدي شراء مطعم الرشيدي، ولا أحد يدري هل أشتراه من أمواله، أم أنه اشتراه لصالح عمه جابر عثمان، نظر إليه وكيل النيابة، وسأله عن اسمه وسنه وعنوانه، ابتلع هريدي ريقه ثم أجاب:

. هريدي محروس عثمان.. 35 سنة.. بواب عمارة ليليان

. تعرف إيه عن الحادث؟

. أنا كنت قاعد قدام باب العمارة..لما جيه الأستاذ أبو زيد.. ركن العربية.. وطَلع منها أكياس كتيرة.. وطلب مني أطلعها معاه المكتب.

. كمال أبو زيد متعود يرجع مكتبه الساعة كام؟

. مواعيده من خمسة لعشرة بالليل.. بس اليوم ديه كان جاي متأخراً.. كانت تيجي تسعة.

. تعرف إيه السبب؟

. ما خبرش.. أنا بواب.. مش وكيل نيابة يا بيه!

نظر إليه وكيل النيابة في سخرية، ثم طلب منه أن يستكمل ما رآه وسمعه في تلك الليلة..

. بمجرد ما أتحركنا ناحية الساسانسير.. لقينا عم مصيلحي.. سأله كمال بيه.. كنت وين.. فقاله إن في واحد اسمه.. اسمه.. أيوه.. شوقي مدكور.. منتظره في المكتب.. مع أستاذة ليلى.. وإنه طلب منه يشتري له علبة دخان..عطيت الأكياس لعم مصيلحي.. لكن كمال بيه طلب مني أطلعها بنفسي.. وطلعنا في الساسانسير ودخلنا مكتب كمال بيه.. لقينا الأستاذة ليلى ملقحة على الأرض..وجنبيها القتيل غرقان في دمه

. حالتها كان شكلها إيه؟

.. خلاجتها مقطعة....ووشها وصدرها عريان مليانين خرابيش..وحالتها.. استغفر الله العظيم..مبهدلة..

هز وكيل النيابة رأسه، وأشار إليه أن يُوقع على أقواله وينصرف، وطلب من العسكري، أن يُنادي على الشاهد الثاني، وقف العسكري على باب الغرفة، ونظر في ورقة بيده، ونادى على الشاهد الثاني:

. مصيلحي عبد التواب

كان مصيلحي واقفا بجوار الباب، يُشعل سيجارة، وعيناه تترقبان في قلق، بمجرد أن سمع اسمه، حتى ألقى بالسيجارة على الأرض، وداس عليها بطرف حذائه، طرق الباب ثم دخل، جلس أمام وكيل النيابة. مصيلحي عبد التواب، ساعي مكتب كمال أبو زيد، رجل تجاوز الخمسين من عمره، نحيف الجسد،

قصير القامة، أصفر الوجه، حاد الملامح، يعمل في مكتب أبو زيد منذ عقود، فهو ولي نعمته، الذي يطيعه طاعة عمياء، قال أمام وكيل النيابة، كل ما طلبه منه أبو زيد، كانت أقواله صورة كربونية، من أقوال هريدي بواب البناية، لم يستطع وكيل النيابة، أن يحصل منه على تفاصيل، تختلف عما رواه أبو زيد وهريدي، ولن يتراجع عن أقواله مطلقا، فلو دخل أبو زيد السجن، سيُغلق المكتب إلى الأبد، وسيفقد مورد رزقه الوحيد، لقد اتفق ثلاثتهم على تلك الأقوال، وبقيت أقوال ليلى عبد الرحمن، تُحير وكيل النيابة... لماذا تُصر ليلى على أقوالها؟! وترفض الاعتراف بأن شوقي مدكور، حاول التحرش بها؟! رغم أنها تصب في مصلحتها!

توالت الأخبار في الصحف وشبكات الانترنت، خصوصا بعد أن أفاقت ليلى من الغيبوبة، وأنكرت كل ما ذكره أبو زيد، وسردت الحقيقة، التي رآها خالد بعيونه، ولكن تحقيقات النيابة مع الشهود، وتقرير المعمل الجنائي، أكد وجود جروح بجسدها وتمزق ملابسها، مما يُؤكد حدوث مشاجرة بينها وبين شوقي مدكور، ومما يؤكد أيضا، صدق أقوال كمال أبو زيد، وشهادة الشهود، وأصبح السؤال الذي حير الجميع، وأثار الرأي العام، لماذا تنكر ليلى مُحاولة التحرش بها؟ رغم أن كل الأدلة تُؤكدها، وهي السبيل الوحيد، لحصولها على البراءة، وفقا لقانون العقوبات، إذا حاول شخص اغتصاب فتاة، ولم يكن يوجد أمامها، سوى سكين أو آلة حادة، فكلها تُعتبر من وسائل الدفاع الشرعي عن النفس، وبالتالي فالنيابة لا تُقدمها للمحاكمة، بل تحفظ القضية، حيث لا يكون هناك وجه لإقامة الدعوة.

- ٣٧ -

ظل خالد في حيرة من أمره، ماذا يفعل ليُنقذ تلك الفتاة البريئة من الفضيحة، ويُسلم القاتل إلى العدالة، هل يتقدم بشهادته إلى النيابة؟ لكنه إذا ظهر وشهد بالحقيقة التي رآها، سوف يُعرض نفسه للفضيحة، وربما للمساءلة القانونية، ولكنه حادث نفسه.. هل التلصص على الجيران، جريمة يُعاقب عليها القانون؟ إنها الفضيحة يا خالد! إنها جريمة أخلاقية في المقام الأول، ولكنك ستُنقذ فتاة بريئة من العقاب والفضيحة، ستُنقذ أسرة عفاف، من القيل والقال، فالشائعات التي تترد، قد تُطيح بمستقبلها إلى الأبد!

عاد إلى المدرسة، فوجد الجميع في حالة شديدة من الحزن، لما حدث لليلى، لقد أكد الجميع تصديقهم لروايتها، لأنهم يعرفونها جيدا. ليلى ليست من ذلك النوع من الفتيات، التي قد تُثير رجل تخطى الخمسين من عمره، فجمالها متواضع، وملابسها محتشمة، بالإضافة إلى أنها خجولة، نُسخة كربونية من أمها، في الأخلاق والالتزام وحُسن السيرة. وفي المُقابل، فإن كمال أبو زيد محامي داهية، له علاقات مُتشعبة، مع رجال أعمال وسماسرة ولصوص آثار وأراض، ولديه القُدرة على التلاعب بالقانون، يبيع مبادئه من أجل المال، كم أخرج مجرمين من قضايا شائكة! وأودع أبرياء وشرفاء إلى ظلمات السجون!.

في المساء كان بصحبة زملاء المدرسة، في زيارة عفاف، التي تعيش في شقة إيجار قديم، في شارع هومير، على بُعد خطوات من المدرسة، كان حالها يُرثى له، تبكي طوال الوقت، بعدما أصبحت أحداث الجريمة، على كل لسان في

الإسكندرية، واتخذتها مواقع التواصل الاجتماعي، مادة لا تُكف عن الحديث عنها ليلا ونهارا، كما أن البعض ألف حكايات، عن وجود علاقة مشبوهة بين ابنتها، وبين القتيل شوقي مدكور، وأن بينهما عقد زواج عرفي، وأن في أحشائها جنين منه، وأنهما قد ذهبا إلى طبيب، للتخلص من الجنين، لكن الطبيب رأى أن محاولة التخلص منه، قد تُؤدي بحياتها، وظلت الإشاعات تنتقل من لسان إلى لسان، ومع كل لسان تكبر الإشاعة، رغم أن الموضوع كله، غير صحيح!

ولكن كيف تُقنع الناس، بأن كل تلك الأقوال أكاذيب، أطلقها أصحاب النفوس المريضة، وأن ليلى ابنتها بريئة، من كل تلك الاتهامات، باتت عفاف في هم وغم، لا تعرف كيف تتخلص من تلك الورطة،التي ستقضى على ابنتها إلى الأبد.

خرج من بيت عفاف، مُشتت الذهن، من تلك الحيرة الرهيبة، بين أن يُنقذ ابنة عفاف من الفضيحة، وبين أن يفضح نفسه، إنه شاهد عيان على ما حدث، ويكفي أنه سيساند ليلى في شهادتها، فتتحول الدفة لصالحها، أو تُعيد النيابة التحقيقات، على أسس جديدة. لكنه تردد، وخشي أن يفضح نفسه، بدون أدنى فائدة تصب في مصلحة ليلى، لقد دبر أبو زيد كل شيء بإتقان شديد، ولم يترك ثغرة واحدة تُوقع به.

كان خالد يقضي جُل وقته، في غرفته صامتا، شارد الذهن، وحينما يذهب إلى المدرسة، لا يُطيق أن يرى علامات الحزن، في عيون زملاء عفاف، يسأل عن أخبار ليلى، فتأتي الأخبار السيئة، بأن حالتها النفسية تسوء يوما بعد يوم، وأن إصرارها على أقوالها، قد تضطر النيابة إلى تحويل القضية إلى المحكمة.

قرر أن يُساعد عفاف بكل ما يستطيع، غير أن يفضح نفسه، ويظهر أمام الناس بمظهر المتلصص. ذهب معها إلى أستاذ رشدي المحامي، الذي يُتابع القضية، فأكد أن كل الأدلة، تُشير إلى صدق أقوال أبو زيد، وخصوصا أن هناك شهود إثبات في القضية، ساعي المكتب وبواب البناية، اللذان أكدا أن المجني عليه، كان مع ليلى بمفردها، وأنهما قابلا كمال أبو زيد، يهبط من سيارته، في التاسعة مساء، وصعدا معه إلى المكتب، وشاهدا ما شاهده أبو زيد.

سأله خالد، هل يصب ذلك في مصلحة ليلى، بأنها كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس، فأخبره أن ليلى ترفض تلك الأقوال من الأساس، وتُصر على أن المجني عليه، كان بصحبة أبو زيد، وأنها دخلت عليهما، على أثر صوت المشاجرة بينهما، وأن أبو زيد هو الذي ضربه على رأسه. شعرت عفاف بالحيرة والعجز، وسالت المحامي وعيونها دامعة:

. وإيه الحل يا أستاذ رشدي؟

أكد رشدي، أن على ليلى أن تُقر بشهادة الشهود، حتى يُطبق عليها نص المادة رقم (61) من قانون العقوبات والذي ينص على (لا عقاب على من ارتكب جريمة، ألجأته إلى ضرورة وقاية نفسه أو غيره، ولم يكن لإرادته، دخل في حدوثها، ولا في قدرته، منعه بطريقة أخرى) حادثت عفاف نفسها.. هل ستوافق ابنتها ليلى، على قبول تلك الفضيحة على نفسها، هل ستوافق على الكذب، هل ستتخلى عن تلك المبادئ، التي تربت عليها، ليلى تحفظ وتنفذ أقوال أمها، عن المبادئ والقيم كأنها قرآن، ولكن لابد أن نكذب يا ليلى، حتى نتخلص من ذلك الكابوس!

-٣٨-

جلس خالد يفتش عبر شبكة الانترنت عن أخبار الحادث، إن أكثر ما يقوي رواية أبو زيد، هما شاهدا الإثبات، ساعي المكتب، وبواب البناية، اللذان شهدا بأن أبو زيد، حضر إلى المكتب بعد وقوع الجريمة، رغم أن الحقيقة عكس ذلك. أن تغيير هذين الشاهدين لشهادتهما، قد يُنقذ ليلى من الفضيحة، التي لحقت بها، لكن محاولة إقناع شاهدي الإثبات، بالتراجع عن شهادة الزور، من رابع المستحيلات. كما أن شهادة خالد رغم صدقها، لن تُغني ولن تُسمن، لأنها ليست قائمة على دليل. القضية ستُحول إلى المحكمة لا محالة، ولابد من التفكير في طريقة، لإنقاذ ليلى من تلك المتاهة، لابد أن ترضخ ليلى لشهادة الشهود، وتُغير أقوالها، وتقر بأن شوقي حاول التحرش بها، وأنها كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس.

اقترح خالد على عفاف، أن تذهب لمقابلة أبو زيد في مكتبه، للتوصل إلى حل وسط، ولمعرفة كيفية مساعدة ليلى، في الخروج من ذلك المأزق. رغم رفض عفاف، رؤية ذلك الرجل، الذي دمر حياة ابنتها، لكن ابنها حسام، وافق على اقتراح خالد، وذهبوا جميعا إلى مكتب أبو زيد.

كان أبو زيد، جالسا في مكتبه كعادته كل مساء، دخلوا عليه فرحب بهم، وطلب من مصيلحي أن يُحضر لهم الشاي، وبدا عليه ملامح الحزن، على ما أصاب ليلى، وأبدى دهشته الشديدة، من إصرارها، على توجيه الاتهام إليه، رغم أن كل الأدلة، تُؤكد صدق شهادته.

طلب منه خالد، أن يدع تفاصيل الحادث جانبا، ويُفكر في طريقة قانونية، تُخرج ليلى من تلك الورطة، فأكد لهم أن الحل الوحيد، في يد ليلى نفسها، وهو أن تعترف، بأن شوقي، حاول التحرش بها، وأنها كانت في حالة دفاع عن النفس، وفي تلك الحالة ستخرج من سرايا النيابة، بضمان محل الإقامة.

سألته عفاف في قلق واضح على ابنتها:

. ولو النيابة سألتها.. ليه غيرت أقوالها؟

تهكم أبو زيد في سخرية، دون مراعاة لمشاعر عفاف، وقلقها على ابنتها، طلب منها أن تُقنع ابنتها أن تقول الحقيقة ليس أكثر، بأن حالتها النفسية كانت سيئة، وأنها خشيت على نفسها الفضيحة، خصوصا بعد تعرضها لمحاولة اغتصاب، أفقدتها الوعي والقدرة على التركيز، فحاولت أن تبعد عن نفسها شُبهة، قد تُضر بسمعتها. كتم الجميع غيظه من ذلك المحامي القذر، سأله حسام في قلق ممزوج بالحيرة:

. وهل اعتراف ليلى.. يعرضها للعقوبة؟

فطلب منهم أن يطمئنوا، ففي حالات الدفاع عن الشرف، المحكمة ستُخلي سبيلها، لعدم وجود تعمد في القتل، أو أنها أفرطت في القتل، إنها ضربته ضربة واحدة، بقصد دفع الضرر عنها، وليست هناك شُبهة تعمد، حاول خالد أن يثبت له أنه كاذب، فسأله في سخرية:

. وحضرتك عرفت أزاي إنها ضربته ضربة واحدة موش ضربتين؟

ارتبك قليلا، وصمت قليلا، وتلعثم قليلا، واتسعت عيناه قليلا، وضرب على المكتب بيده، في حين التفتت نحوه عفاف وابنها حسام، في انتظار الرد، فقال في ارتباك:

. من تحقيقات النيابة.. وتقرير المعمل الجنائي طبعا.. الأهم هو إقناع ليلى، تقول الحقيقة، وتأكد أقوال الشهود في تحقيق النيابة.. هو ده الحل الوحيد!

نظر إليه خالد في غضب، وحادث نفسه.. يا لك من مراوغ، قتلت شوقي مدكور بدم بارد، وخرجت من الجريمة، بدون أن تأخذ يوماً واحداً، وأوقعت تلك الفتاة البريئة، في الوحل بمنتهى القذارة.. لقد لعبتها كما ينبغي، يا لك من داهية!

-٣٩-

في صباح اليوم التالي، زاروا ليلى في محبسها، بعدما أمرت النيابة، استمرار حبسها على ذمة التحقيق، بعدما رأت أن إصرارها على الإنكار، وإلقاء التهمة على أبو زيد، رغم شهادة الشهود، محاولة منها لتضليل العدالة، ودليل قوي على وجود شُبهة جنائية في الجريمة.

كان يبدو علي ليلى الانهيار، مُنتفخة العينين، كمن لم تذق للنوم طعما طوال الليل، شاحبة الوجه، والدموع ترسم على وجنتيها علامات، والهُزال يلف جسدها النحيف، ما أن رأت أمها، حتى هرعت إلى أحضانها باكية، طلبت منها أن تأخذها معها، أن تُنقذها من ظُلمات السجن، لقد فكرت جديا في الانتحار، لم تتمالك عفاف دموعها، اعتصرت جسد ابنتها، وربتت على رأسها وبكت، حاولت إقناع ابنتها بتغيير أقوالها، حتى تنجو بنفسها من السجن، سردت لها ما دار بينها، وبين أبو زيد، الذي أكد أنه لا يوجد سوى مخرج واحد، من تلك الورطة، لابد أن تُغير أقوالها، أن تُؤكد على رواية أبو زيد وشهادة الشهود، حتى تعتبر النيابة، أن ما فعلته كان دفاعا شرعيا عن النفس.

لكن ليلى صرخت باكية.. واحتجت..وأصرت.. ورفضت أن تُزيف الحقيقة، أن تدع الجاني يهرب بفعلته، لقد رأت أبو زيد، يضرب شوقي على رأسه، فسقط على الأرض، غارقا في دمائه.

كيف ستضرب بكل ذلك عرض الحائط؟ كيف ستقف أمام الله، حينما يسألها عن كذبها وتزييفها للحقيقة؟ لامت أمها كثيرا، كيف تطلب منها أن

تكذب؟ وهي من علمتها الصدق، علمتها أن تقول الحقيقة، ولو كان على حساب حياتها، ليست تلك هي المبادئ، التي تربت عليها! يبدو أنها كانت دروس شفهية، لا تمت للواقع بصلة، ومع أول اختبار حقيقي، سنكذب بلا تردد، سنسرق بلا حساب، سنقتل بلا رحمة.

رغم اعتراض ليلى الشديد، وتحفظها على ذلك المقترح السخيف، وشعورها بالانكسار والمهانة، لكنها في النهاية، رضخت.. وتنازلت... ووافقت على تغيير أقوالها، لتخرج من هذا الكابوس، لقد سقطت وبجدارة، في أول اختبار لها مع الحياة.

مع أول عرض لها على النيابة، نفذت ليلى كل ما طُلب منها حرفيا، أكدت أنها تعرضت لصدمة عصبية، أثرت على ذاكرتها، وأن الحقيقة بعينها، هي ما ذكرها أبو زيد، وشهود الإثبات، لقد حاول شوقي مدكور التحرش بها، ولم تجد ما تُدافع به عن نفسها، سوى ذلك التمثال المعدني، لتلك السيدة عارية الصدر، معصوبة العينين، القابع على المكتب، فضربته به على رأسه، ضربة واحدة بغرض التخويف، ولكن القدر كان له رأي أخر.

قررت النيابة إخلاء سبيلها، وبراءتها من التهمة المنسوبة إليها، حيث إنها كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس، وتم حفظ القضية، حيث لا يوجد هناك وجه لإقامة الدعوة.

ـ ٤٠ ـ

. اللي عملته ده حرام.. أزاي تساعد القاتل يهرب من العدالة.. الساكت عن الحق شيطان أخرس يا أستاذ!

كانت تلك الكلمات، التي ألقتها أميرة في ضمير خالد، بمثابة أسياط عذاب، كيف سولت له نفسه، أن يكتم شهادته؟ أن يساعد أبو زيد على الهروب من العدالة؟ أن يكون سببا في فضيحة تلك الفتاة المسكينة؟ أن يتركها للاتهامات الكاذبة، تُشوه سُمعتها، وتُدمر مستقبلها!

وعدها بأنه لن يترك أبو زيد، يفلت بفعلته، سيُغرر به حتى يُوقعه في قبضة العدالة، سيظل يُراقبه حتى ينال منه، فطلبت منه أن يكف عن التلصص على الآخرين، يكفي ما فعله، لقد تحول إلى مسخ سخيف، إن ما فعله جريمة أخلاقية، في حق الآخرين، ماذا فعل بما رآه في شقة طارق، وشقة سميرة سكر، ومكتب جابر عثمان، ومكتب كمال أبو زيد؟ إن كل ما فعله، هي محاولة سخيفة، لكشف عورات الآخرين، ومحاولة فضحهم أمام أنفسهم أولا، ثم أمام الآخرين! إنها كارثة مدمرة! أن نتحول إلى بصاصين على بعضنا البعض، ألا يخجل من نفسه! حينما ينتهك حرية الآخرين، حينما يراهم عرايا أمامه؟ صمت خجلا ولم يرد، فأميرة معها كل الحق، لقد أدخل نفسه في دوامة كبيرة، منذ أن أمسك بذلك المنظار الملعون، وألقى بعيونه خلف الجدران، ليكشف ما ستره الله، ليتدخل في حياة الآخرين بلا استئذان.

شعرت أميرة أنها كانت قاسية عليه، فحاولت أن تُخفف من حدة الموقف،

فسألته عن مريم، فأخبرها أنه أهملها خلال الفترة السابقة، لانشغاله بليلى ابنة عفاف، فأخبرته إن الحسنة الوحيدة في كل ما فعله، هو مساعدته لتلك البنت المسكينة، ولو استطاع أن يُساعدها، حتى تتحرك من سكونها، فذلك هو الخير كله، فسألها ألا تغار من مريم، فصرخت في وجهه:

. هو أنت ليه مفكر.. إني بحبك وبغير عليك؟!

. إحساس!

. إحساسك خانك يا أستاذ!

أميرة لا تفكر فيه مطلقا، إنه مجرد صديق، ضمن مئات الأصدقاء، الذين قابلتهم وتقابلهم وستقابلهم، على مواقع التواصل الاجتماعي، كلهم أصدقاء افتراضيين، سرعان ما تأخذهم حياتهم الواقعية، وتتلاشى كل تلك العلاقات المزيفة، بضغطة واحدة من زر مسح بلوحة المفاتيح. إنه عالم صنعته في خيالها، عالم كله كذب وزيف وخداع، عالم حاولت أن تهرب بداخله، من حياتها الضائعة، لكنها اكتشفت أنه الضياع بعينه. لقد قابلت كل صنوف البشر، وكلهم يحملون صفة الكذب، لا يتورعون عن نهش جسدها، لو تحينت لهم الفرصة، إنه عالم المتاهة، ومن يدخله لن يخرج منه رابحا، سيخسر كل شيء حتى نفسه!

ـ ٤١ ـ

طوال الفترة السابقة، انشغل خالد بقضية ليلى، كان لديه شُعور عميق بالذنب، لم ينتهِ منه، إلا بخروجها من سرايا النيابة، وعودتها إلى أحضان أمها، ولكنها عادت ولم تعد، عادت مكسورة.. جريحة.. انكفأت على نفسها، قررت اعتزال الحياة العملية، قبل أن تبدأ، بعدما فشلت في إثبات براءتها، واستسلمت لرواية، ذلك الداهية كمال أبو زيد، اختارت أيسر الطُرق، لكي تنجو من تلك الورطة، لقد فشلت أن تُقدم المجرم الحقيقي إلى العدالة، واكتفت بأن تحارب من أجل أن تنجو بنفسها، فكيف ستستطيع الدفاع عن المظلومين، من بطش اللصوص وقطاع الطرق والأرزاق!

أهمل خالد متابعة نجاح رواية (ابنة الجيران)، لتلميذه كريم الدهشان، لقد اتصل به صاحب دار النشر، وأخبره أن الطبعة الأولى قد نفدت، وطلب منه أن يزوره، لكي يحصل على أرباحه، من مبيعات الطبعة الأولى، والموافقة على إصدار الطبعة الثانية. لكنه لم يهتم، ولم يُخبر كريم بنجاحه، ولم يُحدد موعد حفل توقيع الرواية، ولم يُشجع كريما، ليبدأ في كتابة روايته الجديدة.

أهمل شكوى سهير ومروة، من سخافات طارق، التي لا تنتهي، ومحاولته النيل منهما، واصطيادهما إلى مملكة حريمه، بالترغيب أو الترهيب، بعدما حول تهديده الشفهي لسهير، إلى تهديد فعلي، لقد وجدت سهير، أسفل باب شقتها، اسطوانة مُدمجة، عليها نسخة من الفيديو الفاضح، الذي يجمعها بطارق، فشعرت بالانزعاج، حاولت كثيرا أن تبث لخالد شكواها، ولكنها

وجدته منشغلا عنها، فحاولت أن تُهادن طارقا، بأنها ستنتهز أقرب فرصة، وستزوره في شقته، فأخبرها أنه في انتظارها على أحر من الجمر، حتى تفي بوعدها، ولكن انتظاره لن يطول، وعليها أن تتحمل تبعات رفضها الانصياع لرغبته.

شكت له مروة من استمرار سخافات طارق، وإنها لمحت لزوجها، أن أحد سكان البناية يستعرض سخافاته عليها، فانفعل وطلب منها، أن تُخبره باسم ذلك النذل، حتى يُوقفه عند حده، ويُجبره على عدم التمادي في سخافاته، فشعرت بالرعب خشية تهور زوجها، وأخبرته أنه أراد فقط، أن يتعرف عليها، لكنها صدته وتجاهلته، ولم يظهر بعد ذلك مطلقا. لقد عاد طارق، ليُشكل خطرا يُهدد أسرة سهير وأسرة مروة، ولابد من إيقافه للأبد، وبمنتهى القسوة، فقرر أن يُعاود مراقبة شقة سميرة سكر، ليتأكد أن طارقا، ما زال ضيفا، على تلك الشقة المشبوهة، وساعتها سيُرتب الخطة، التي ستُوقع به إلى الأبد.

ـ ٤٢ ـ

في الموعد المحدد، كان طارق يطرق باب شقة سميرة سكر، فهرولت إلي الباب، وتأكدت من خلال العين السحرية، أنه ضمن قائمة المدعوين، ففتحت الباب بسرعة، ورحبت به، تنحى بها جانبا، تبادلا حوارا جانبيا ساخنا، لم يخلو من ضحكاتها الماجنة. كان زوارها قليلين، فمنذ تلك الليلة، التي داهمت فيها الشرطة مكتب أبو زيد المحامي، وكانت شقتها عامرة بالضيوف، شعرت ساعتها بالخطر، رغم أنها استطاعت تسريب ضيوفها، لكنها قررت أن تُقلل من أعداد ضيوفها، حتى لا تقع في المحظور.

جلس خالد في برج المراقبة، يُفكر في حل جذري لهذا الداهية، هل يُبلغ الشرطة، أم يُبلغ زوجته فريدة، لكنه فضل أن يُبلغ زوجته، ولتحدث الكارثة، فهذا ما يستحقه وأكثر!. أخرج هاتفه النقال، واتصل بفريدة، ولكنها لم ترد، كرر المحاولة أكثر من خمس مرات، حتى قبلت المُحادثة، وحينما سمعت صوت خالد، حاولت أن تُنهي المحادثة، واعتبرتها معاكسة، لا تليق برجل محترم، لكنه قرر أن يُلقي إليها بتلك القنبلة، التي تمنى أن تنفجر، في وجه زوجها المستهتر فتدمره، فأخبرها بأن زوجها طارق، يقضي ليلة ساخنة، في شقة الفنانة المعتزلة سميرة سكر، في الطابق الخامس في بناية ليليان، ثم أغلق الهاتف، دون أن ينتظر الرد.

ظل خالد في برج المراقبة، في انتظار وصول فريدة، شرع يقلب المنظار بين شقق الطابق الخامس، كانت مريم جالسة في الشرفة تُتابع الشارع، وبين

يديها كتاب، وعلى فخذها ترقد قطتها، شعر بالشفقة عليها، تنهد مفكرا في طريقة تبدل حالتها تلك إلى الأفضل، لقد أخبرته أميرة أن مساعدة مريم، هي أفضل ما فعله على الإطلاق. وقعت عيون خالد بداخل مكتب أبو زيد، كان جالسا بصحبة جابر عثمان، ويجلس وسطهم رجلا نحيل الجسد، تبدو عليه الملامح الأوربية، بوجهه الأبيض المشبع بحمرة، وعيونه الواسعة الملونة. وشعره الذهبي القصير.

وصلت فريدة إلى بناية ليليان، أدخلت بناتها الشقة، ثم مسحت الشقة بعيونها، بحثا عن زوجها، لكنها لم تجده، فتأكدت من صدق المتصل، فكرت أن تتصل بزوجها، لتعرف مكانه، لكنها قررت أن تقتحم شقة سميرة سكر، لتكون نهاية ذلك الخائن فضيحة مُدوية، يسمع عنها القاصي والداني، فتقطع عليه باب العودة، ولا يلومها بعد ذلك أحد!

لم تمر عدة دقائق، حتى كانت فريدة، تقف على باب شقة سميرة سكر، دقت جرس الباب، فتحركت سميرة نحو الباب، نظرت من خلال العين السحرية، وما أن رأت، ذلك الوجه الأنثوي الغريب، غير المدرج ضمن قائمة الضيوف، حتى عادت أدراجها، وبإشارة من يدها، اختفى جميع ضيوفها في لمح البصر!.

ظهرت سميرة سكر، ترتدي الحجاب، تحركت نحو باب الشقة وفتحته، وهي جالسة على كرسي متحرك، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة، رحبت بالزائرة الغريبة، ارتبكت فريدة حينما رأتها، لم تعرف ماذا تقول، فيبدو أن تلك السيدة، بمفردها في الشقة، وأنها تعاني من شلل، يمنعها من الحركة، حارت عيونها بين تلك السيدة القعيدة، وبين غرف الشقة، التي ظنت أن زوجها،

في إحدى غرفها، طال الصمت، وفريدة تُفتش عن أي سؤال، تُطلقه في وجه تلك السيدة، لتنهي تلك النظرات الصامتة، وسميرة تُفكر في الرد، لكنها قررت مبادرتها بالسؤال، حينما رأت على وجهها علامات الارتباك:

.أي خدمة يا هانم؟.. أتفضلي..

ما أن سمعت فريدة كلمة تفضلي، حتى هرولت إلى داخل الشقة، تفتش بعيونها عن زوجها، كان صوت القرآن، ينبعث من إحدى الغرف، وبدا على سميرة، الهدوء والطيبة والمسكنة، اعتذرت عن تأخرها في فتح الباب، لأنها كانت تُصلي صلاة العشاء، وخادمتها ذهبت إلى الصيدلية، لتشتري لها علاج القلب، فمنذ أن توفى زوجها، وهي تعيش بمفردها بالشقة، لا يزورها أحد، ولا يطرق بابها أحد، ولا يُؤنس وحدتها، سوى الصلاة والتسبيح وقراءة القرآن. صمتت فريدة ولم تستطع الرد، لم تنطق سوى بكلمات الاعتذار على اقتحامها الشقة، دون سابق معرفة، أو إذن مُسبق.

مرت عدة دقائق من التعارف بينهما، فتشت خلالها فريدة بعيونها، غرف الشقة المفتوحة على مصراعيها، ولكنها فشلت في العثور على دليل واحد، بأن زوجها بالداخل، أو أن هناك شخصا، غير تلك السيدة القعيدة، فاستأذنت للانصراف، فتحركت سميرة خلفها، وشكرتها على تلك الزيارة، التي لا تعرف سببها، دعتها إلى تكرار الزيارة، في أقرب فرصة، فهما جيران، ولابد أن يطمئن الجار على جاره، خصوصا حينما يكون في مثل ظروفها.

خرجت فريدة من شقة سميرة سكر، وهي تشعر بخيبة أمل، اتصلت بالرقم، الذي أخبرها بتلك الكذبة، لكي تُسدد له اللعنات، ولكنها وجدته مغلقا كالعادة، اكتشفت أنه نفس الرقم، الذي حاول الوقيعة بينها وبين زوجها،

رغم أن الصوت في المرة السابقة، كان صوت امرأة، وصوت الليلة هو صوت رجل، فتأكدت أنهم مجموعة من المنحرفين، يريدون الوقيعة بينها وبين زوجها، وتساءلت من هؤلاء الذين يكرهونها إلى هذا الحد.

اتصلت بزوجها لتعرف مكانه، فأخبرها أنه في صيدلية المغربي، يشتري علاجا للبرد، وحينما هبطت إلى الشقة، وجدته جالسا بين بناتها، يلف جسده بغطاء ثقيل، مدعيا أنه يُعاني من برد شديد.

كان خالد لا يزال في برج المراقبة، منتظرا أن يظهر ضيوف سميرة، ولكنهم اختفوا للأبد، خلعت سميرة الحجاب، وقامت من فوق الكرسي المتحرك، وظهر جليا أنها في الشقة بمفردها. فعاد إلى شقته، وتطلع إلى شقة طارق، فوجده في شقته، وسط بناته وزوجته، وظل السؤال الذي حيره، أين ذهب ضيوف سميرة سكر؟ وكيف وصل طارق إلى شقته، دون أن يخرج من باب شقة سميرة؟، بل ووصل إلى شقته، قبل أن تهبط زوجته، من الطابق الخامس إلى الطابق الثالث.

ـ ٤٣ ـ

حكى خالد لأميرة عن حيرته، من ذلك الاختفاء الغريب، لضيوف سميرة سكر، فذكرته أن أبو زيد، اختفى أيضا من مكتبه، بعد أن ارتكب الجريمة، ورآه بواب البناية، وقابله ساعي المكتب، في مدخل البناية، وشهدا أمام النيابة، أنه قد حضر بعد وقوع الجريمة، يبدو أن لشقق البناية، بابا للخروج، غير باب البناية الرئيسي، فضرب على رأسه، لقد تذكر أن هناك سلما للخدم، من باب المطبخ إلى الشارع الخلفي، ذلك السلم الذي طالما لعب على درجاته، مع حبيبته علياء، تردد في أذنه صوتها الرقيق:

. بابا قرر يترك إسكندرية ويعيش في مصر.. هتنساني يا خالد؟

لكنه أفاق على صوت هاتفه النقال، ما أن رأى المتصل حتى ارتبك، أخبر أميرة، أن فريدة تتصل به، سألها كيف يتصرف، قرر أن يغلق الهاتف وينزع الشريحة، ولكنها طلبت منه أن يرد عليها، ويعرف ماذا تريد، عاودت فريدة الاتصال من جديد، فقبل المحادثة، وكان أول سؤال سألته:

من أنت؟ حاول أن يتهرب من الإجابة، ولكنها أتبعته بسؤال أخر، لماذا تريد أن تهدم أسرتي؟ وتزرع الشك بيني وبين زوجي؟ حاول أن يشرح لها سبب ما يفعله، ولكنها أتبعته بسؤال ثالث، من تلك السيدة التي اتصلت المرة السابقة من نفس الرقم؟ حاول أن يُجيب عن كل تلك الأسئلة، ولكنها أتبعته بسؤال رابع، من الذي يُحرضك على فعل ذلك؟ هل هو زوج أختي مشيرة؟ ثم بكت بشدة، وأغلقت الهاتف، وهي تكرر في حزن، حسبنا الله ونعم الوكيل.

في تلك الليلة، لم يستطع خالد النوم، ظل يتقلب في فراشه طوال الليل، من فرط التفكير، لقد كانت تلك الدعوة، بمثابة ناقوس رهيب يدق في ضميره، هل تحول إلى شرير؟!، وتحول الهدف النبيل، الذي يرنو إليه، إلى كابوس يُؤرق حياته، وحياة من يُحاول مساعدتهم، ماذا استفاد المجتمع من تلصصه على سكان البناية، هل قدم كمال أبو زيد للمحاكمة، هل أنقذ ليلى من الفضيحة، التي مازالت الإشاعات تطاردها، لقد كانت شهادته، كفيلة بأن تُغير مجرى القضية، وتُدخل الجاني إلى السجن، وتُزيل عن ليلى كل تلك الإشاعات.

لقد كره اليوم، الذي تلصص فيه على الناس، لقد قرر أن يترك الجميع في حاله، لن يكون قاضيا أو جلادا، سيتفرغ لحياته، التي نسيها حتى ضاع منه العمر هباء، لا أحد يستحق اهتمامه، لا أحد يستحق أن يُضيع حياته من أجله، لن يهتم إلا بمريم، سيحاول أن يساعدها، لكي تخرج من محنتها.

فتح درج مكتبه، رأى المنظار قابعا في قاعه، أمسكه بقسوة، وضربه في الحائط فانكسر، وتناثرت شظاياه، ثم ألقى بجسده على السرير وبكى بشدة!

في اليوم التالي، عرض على مريم، أن يخرجا معا إلى السينما، ففرحت ووافقت على الفور، فطلب منها أن تُجهز نفسها، وسيمر عليها خلال دقائق. كانت سعيدة للغاية، لم تكن تتخيل يوما، أن يجلس خالد زميل المدرسة، بجوارها في السينما، كانت العلاقة بينهما قاصرة، على إلقاء التحيات الصباحية.

ما بالها تقترب منه هكذا! لقد عوضها الله به، عن حبيبها إبرام، الذي كان كل الدنيا، كل الناس، تذكرت أخر مرة جلست بجواره، في نفس سينما بيرم التونسي، يشاهدان فيلما رومانسيا، فمد يده وأمسك يدها، نظر في عيونها،

حاول أن يخطف قُبلة، لكنها شعرت بالخجل، واكتفت بعصر يده، وإلصاق كتفها في كتفه، كانت تشعر معه بالأمان، لماذا خطفه الموت بلا رحمة؟ لماذا سلبت الحياة سعادتها بلا مبرر!

التفت إليها خالد متذكرا حبيبته علياء، التي كانت تجلس بجواره، في نفس السينما، مستمتعان بمشاهدة فيلما رومانسيا، أين علياء الآن؟ لقد رحلت وتركته يعاني الوحدة والفراغ العاطفي.

أفاقا على أصوات تصفيق الجمهور، مع إطفاء أضواء السينما، وبدأت شاشة العرض تعرض الفيلم، فاكتشفا أن كليهما يُمسك بيد الآخر، وقلبهما يصعد ويهبط، فشعرا بالخجل، وترك كلا منهما يد الآخر، والتفتا نحو الشاشة العملاقة، لمشاهدة الفيلم الرومانسي، عاود كلا منهما تذكر حبيبه، الذي تركه للوحدة تنهش قلبه بلا رحمة، خرجا من السينما، وسارا على الكورنيش. الليلة باردة، ولكنها صامتة لا يُسمع للرياح فيها صوتا، أبدت رغبتها، في الذهاب إلى الكنيسة، لحضور قُداس الأحد، فرحب برغبتها، واتفقا على أن يمر عليها في الصباح، ويأخذها إلى الكنيسة.

ـ ٤٤ ـ

شعور بالخجل انتاب خالد من نظرات أم مايكل، التي تنم عن عدم ترحيبها، بزياراته المتكررة، بازدياد تعلقه بابنتها يوماً بعد يوم، ماذا يريد من ابنتها؟ هل يعشقها حقا؟ هل يُريد أن يتزوجها؟ هل كان قائد السيارة، التي صدمتها في ليلة زفافها، ويريد التكفير عن خطيئته؟! أم أنه ملاك بجناحين، في ذلك العالم، الذي امتلئ بالشياطين! ما سر تلك السعادة، التي تكسو ملامح مريم! هل عشقته حقا؟ هل تُريده أن يتزوجها؟ هل نست حبيبها إبرام!

تصارعت الأسئلة بداخل عقلها، وهي تسير بجوارهما صامتة، منذ أن خرجت من بناية ليليان، وبطول شارع طريق الجيش، حتى وصلت إلى كنيسة مارجرجس بشارع قناة السويس.. ما نهاية تلك العلاقة؟ فكلاهما على دين غير دين الأخر، وظروف ابنتها الصحية، لن تسمح لها بالتفكير، في تلك العلاقة، شعرت بالحيرة الشديدة، كانت تتمنى أن يكون خالد مسيحيا، وأن تكون ابنتها تصلح للزواج، حتى تطمئن عليها، وتلقى الرب وهي قريرة العين، لقد أوشك قطار حياتها على التوقف، وستهبط منه رغماً عنها، وستترك ابنتها الوحيدة، على ذلك المقعد المتحرك بمفردها، بداخل ذلك القطار اللعين، من سيرعاها في وحدتها وعجزها؟ أخيها النذل الذي هرب وراء زوجته الأمريكية، وتركهما للأيام تعصف بهما بلا رحمة.

كانوا قد وصلوا كنيسة مارجرجس، وأصوات الأجراس تدق بلا توقف، ويقف على باب الكنيسة ضابط، يحمل جهازا لاسلكيا يتحدث فيه، ما أن رأى

مريم، جالسة على الكرسي المتحرك، ورأى خالد يتخلى عن مقبضي الكرسي إلى أم مايكل، حتى أشار إلى أحد العساكر الملتفين حوله، فاقترب منها واستلم مقبضي الكرسي من يد خالد، وتحرك به نحو باب الكنيسة، التفتت مريم نحو خالد، أشارت إليه ألا يتأخر عليها، فأخبرها بأنه سيعود إليها سريعا.

دخلت مريم الكنيسة، تأملت أسوارها العتيقة، والصليب الكبير، الذي يعلو برجها العالي، وأصوات الترانيم التي تلف المكان، ورواد الكنيسة الذين يزحفون، للحاق بالقداس من بدايته. دخلت قاعة الصلاة في سعادة، والقس يُرتل من الإنجيل بصوته العذب، وحوله صور السيد المسيح والسيدة العذراء، التف حولها رواد الكنيسة يُرحبون بها، يمسحون على رأسها وجسدها في عطف، اقترب منها القس سمعان، مسح على رأسها، وباركها ورحب بعودتها إلى الكنيسة من جديد، أخبرها أن ما حدث لها هو اختبار الرب، لعباده الطيبين، ليُقربهم من ملكوته، وأن الدنيا وملذاتها زائلة، وأن النعيم في الملكوت الأعلى مع القديسين.

هرول خالد إلى المدرسة، امتحانات أخر العام على الأبواب، والمدرسة شبه خالية من الطلاب، جلس المدرسون في غرفة مدير المدرسة، تتوسطهم عفاف بملابسها السوداء، تضع يدها أسفل ذقنها، تكسوها الهموم، التي رسمت على ملامحها الكآبة والحزن، وكأن ابنتها ليلى على مشارف الموت. سألها عن ليلى، فأخبرته بأن حالتها لا تسُر، تملكتها حالة من اللامبالاة الشديدة، تخشى مواجهة الناس، تظل طوال الوقت، جالسة على مواقع التواصل الاجتماعي، تُحادث تلك الشخصيات الافتراضية، من خلف شاشة الحاسب بلا حدود! بعدما افتقدت القدرة على التعامل مع الأشخاص الطبيعيين بلا حدود!.

طلبت منه أن يزورها، أن يتحدث معها، بصفته أخصائي اجتماعي، يُحاول أن يُخرجها من تلك الحالة، التي صارت عليها، بما لديه من قدرة، على استيعاب تلك الحالات، وتغييرها للأفضل، فوعدها أن يزورها، حينما تتحين الفرصة.

دخلت عليهم مروة، ألقت بتحية السلام، وجلست بجوار عفاف في هدوء، سلمت عليها، وربتت على كتفيها، وسألتها عن ليلى، فأخبرتها بأنه لا جديد، نظرت عفاف في ساعتها، واستأذنت للانصراف، فابنتها بمفردها، وتخشى أن تتركها لفترات طويلة خشية أن تصنع في نفسها مكروه.

سأل خالد مروة عن زوجها، فأخبرته أنه بخير، ولكنها عادت تشكو إليه، من تصرفات طارق، لقد استطاع التوصل إلى رقم هاتفها، فنفخ بغيظ وشعر بقلة الحيلة، حيال ذلك القذر، حاول أن يطمئنها، بأنه سيتصرف في أسرع وقت، رغم أنه ترك التلصص إلى الأبد!

ـ ٤٥ ـ

عاد خالد إلى كنيسة مارجرجس، لاصطحاب مريم وأمها إلى البناية، كانت مريم سعيدة، بحضور قُداس الأحد، بعدما رحب بها رواد الكنيسة، باركها القس سمعان، رأت أصدقائها القُدامى، الذين لم تراهم منذ سنوات طويلة. كان يبدو على ملامح أم مايكل، أن هناك موضوعا يُؤرقها، تُريد أن تبوح به إلى خالد، لكن هناك ما يمنعها، فظلت صامتة طوال الطريق، من باب الكنيسة إلى باب شقتها، مما أشعر خالد بالقلق الشديد من هذا الصمت الرهيب، تلك النظرات المُريبة، هل حُزن على حال ابنتها؟ أم خجل من تعلق ابنتها بخالد؟ أم مُعاناتها المُزمنة مع مرض القلب، الذي أنهك قواها؟.

أم مايكل، منذ أن هاجر ابنها مايكل، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، انقطعت أخباره، لم يُعد يسأل عنها، أو يُفكر حتى في زيارتها، نسي أن له أما وأختا، يُعانيان الوحدة. كانت آخر زيارة قام بها، بعد حادث مريم بشهور، جاء ليطمئن عليها، بعد إلحاح شديد من أمه، قضى عدة أيام، ثم عاد سريعا إلى زوجته وأولاده، عرضت عليه أمه، أن يأخذ مريم معه، ليعرضها على أطباء إحدى مستشفيات الولايات المتحدة، أو لتعيش معه، لكنه رفض بشدة، زوجته لن تسمح، بوجود أخته في بيتها، من سيخدمها بحالتها تلك، ستُشكل عبئا كبيرا عليه، ستكون سبباً في حدوث المُشاجرات بينه وبين زوجته. ساعتها فقط، سقط مايكل من حسابات أمه، فلم تُعد تسأل عنه، أو تشتاق إلى رؤيته، رغم تقارب العالم، وسهولة الاتصال بينهما، لكنها رفضته

بالكلية، رفضت نظرة الشفقة، التي تراها في عينيه. لقد فقدت أم مايكل بموت إبرام، كل أمل لها في الحياة، كانت قد عرضت عليه، أن يعيش معها في الشقة، بعد زواجه من مريم، فالشقة واسعة، وموقعها متميز، وإيجارها ضئيل، ولكي تجد من يرعاها، فلن تستطيع أن تعيش بمفردها، بعد زواجه من مريم، فرحب إبرام وأبدى سعادته، أن يُشاركها قلب مريم، لكن القدر كان له رأي آخر!

هل جاء خالد، ليحل محل إبرام، في قلب مريم، اختاره الرب، لكي يرعى تلك الزهرة البرية الوحيدة، هل جاء ليستكمل مشوارها مع ابنتها، فلديها إحساس قوي، أن أيامها في الدنيا صارت معدودة، حتى بعد زيارة مريم للكنيسة، لم تر غير نظرات الشفقة، في عيون الأقارب والجيران والأصدقاء، لم تجد بينهم، من تعتمد عليه في رعاية ابنتها بعد موتها.

وصلوا إلى الشقة، وقف خالد على بابها، بعدما أزاح الكرسي المتحرك، إلى داخل الشقة، واستأذن للانصراف، لكن أم مايكل تشبثت بيده، طلبت منه أن يدخل، ليتناول معهما طعام الغداء، لكنه اعتذر بشدة، فأمه تنتظره ولن تستطيع تناول الطعام بدونه، ولكي يُعطيها الدواء.

تذكرت أم مايكل، أن خالدا يُعاني من نفس المشكلة، يعيش مع أمه، والتي تسبب وجودها في حياته، أن تأخر في الزواج، خشية أن يجلب لها زوجة ابن، تُسبب لها المتاعب. خشيت أم مايكل، أن تسأل خالدا عن مشاعره الحقيقة تجاه ابنتها، لكنها خشيت أكثر، على مشاعر ابنتها، فقررت أن تصمت حتى إشعار آخر.

ـ ٤٦ ـ

الشمس تميل نحو الغروب، هواء البحر ينعش الصدور، يدفع عنها حرارة الصيف، بدا كورنيش الشاطبي عشوائيا، بعدما اختلط بعرق المصيفين وصخبهم، انتهت امتحانات نهاية العام، وبدأت الإجازة الصيفية، اعتاد خالد قضاء الإجازة في ممارسة هواياته، سيتفرغ للاهتمام بأمه، وبالتأكيد مريم، سيُتابع نجاح رواية كريم الدهشان، ويستعد لحفلة التوقيع، خالد لا يُحب أن يُضيع وقته هباء، يُحاول استغلال كل دقيقة، لقد تناسى موضوع طارق، لم يُعد يهتم بسكان بناية ليليان، فليتحمل كل شخص مسئولياته، ليحل مشاكله بمفرده، لقد أقلع وللأبد عن تتبع عورات الناس، أن يمد بصره إلى عُقر دارهم، ليتلصص عليهم. حتى ولو كان هدفه نبيلا، كفى ما عاناه طُوال تلك الفترة، لكنه لم يكُف عن عادته القديمة، الجلوس في الشرفة، مُشاهدة بناية ليليان من بعيد، استجلاب ذكريات الماضي.

كانت أمه تقف بجواره، تتأمل الشارع الغارق في الزحام بسكان الشاطبي، ضيوف الإسكندرية الموسميين، الذين يفدون مع طلوع كل صيف، أعطته كوب الشاي بالنعناع، فأخذه منها وقبل يدها، وعاود مُتابعة بناية ليليان. كانت أم معاذ، تقف في شرفة شقتها بالطابق الثاني، وعيناها على ابنها معاذ، الذي نزل إلى الشارع، أشارت إليها أم خالد، فالتفتت إليها وسلمت عليها، وعيناها ما زالت تتابع ابنها الوحيد، تتابع رحلته وهو يُمر بالشارع، تتأمل جسده النحيل، الذي يُشبه جسد القطة، تبتسم وهو يُنفذ تعليماتها، يقف

على الرصيف، منتظراً السيارات المجنونة أن تهدأ، لكي يمر بسلام.

بينما سرحت بخيالها بعيدا، زيارتها الأخيرة إلى الطبيب، الذي أكد لها، أن الورم الخبيث، الذي يعيش بداخل جسدها النحيل، قد بلغ غايته، تفشى في باقي أجزاء جسدها، أن الجُرعات الكيميائية، التي اعتادت عليها، لم تعد ذات فائدة، لقد فهمت من كلام الطبيب، أنها تعيش أيامها الأخيرة، لم يكن يشغلها، أن تعيش أو تموت، بقدر ما كان يشغلها، ذلك الطفل الذي يُحاول عبور الشارع، وسط الزحام الذي لا ينتهي، والسيارات والكتل البشرية، التي تُغطي الأرض، فتُخفى ملامح الرصيف الأسود.

لم يُعد له أحد سواها، بعد وفاة والده منذ سنوات، ولن يُصبح له أحد بعدها، فمنذ أن توفى زوجها، أصبحت عبئا على عائلتها، فلم تعد تُغدق عليهم العطايا، كما كانت تفعل من قبل، معاش زوجها لم يعد يكف، بالكاد يُساعدها أن تعيش حياة متواضعة، مع ابنها الوحيد.

كانت تفكر بسوداوية، في المصير المجهول، الذي ينتظر هذا الطفل، الذي قارب على الوصول إلى الرصيف الآخر، مُتجاوزا السيارات في حذر، من الذي سيتكفل به بعد وفاتها؟ هطلت الدموع من عينيها، وهى تتخيل حياته من بعدها، من سيعتني به؟، فلا إخوة كبار، ولا أسرة كريمة، تخشى أن يُصبح مصيره، كأطفال الشوارع، بعد أن يستولى أقارب زوجها على الشقة، يطردونه منها، يأخذون معاش أبيه، يتركونه يموت جوعاً، يُخرجونه من المدرسة، يلقون به في إحدى الورش، ليتكسب قوت يومه، وسط المجرمين والسوقة.

كانت الأفكار السوداء، تموج في عقلها كأمواج البحر، لم تفق إلا على صوت فرملة إحدى السيارات، فتحت عينيها في ذهول، على سيارة سوداء فاحمة،

تُشبه سيارة نقل الموتى، تقف بالقرب من الرصيف، وجسد ابنها ممد أسفلها، والدماء تنزف منه بغزارة، ورجل أصلع بدين، يضع أوراق الجرائد، على جثته التي أصبحت بلا حياة.

انقبض قلب خالد وأمه من مشهد الطفل، وهو ممدد على الإسفلت، وأمه منهارة في الشرفة، لا تدري هل تفرح لأن معاذ، قد سبقها إلى العالم الآخر، وستلقاه هناك، وتعيش معه إلى الأبد، ترتاح من عناء التفكير في مصيره بعدها، أم تبكي على ابنها الوحيد، الذي رحل وتركها تتعذب في وحدتها وغربتها.

بعد تلك الحادثة بعدة أسابيع، دخلت أم معاذ المستشفى، كانت حالتها قد وصلت، إلي وضع يصعُب التعامل معه، قضت عدة أيام في المستشفى، ثم فارقت الحياة، وعلى فمها ابتسامة صغيرة، أنها مطمئنة على ابنها، الذي سبقها إلى العالم الأخر في سلام.

- ٤٧ -

في المساء، كان خالد بصحبة كريم الدهشان، في دار النشر، وقع عقد الطبعة الثانية، من روايته (ابنة الجيران)، شعر والده بالفخر، حينما طلب صاحب دار النشر، أن يُوقع مع ابنه عقد احتكار، لمدة خمس سنوات، على أن يُؤلف خلالها ثلاث روايات.

كم كانت سعادة خالد! حينما أهدى كريم نجاحه إليه، ربت على كتفه، أخبره أنه يمتلك موهبة تستحق التقدير، ولولا تلك الموهبة، لما استطاع الوصول إلى ذلك النجاح. أخذ منه عدة نسخ من الرواية، طلب منه، أن يكتب على إحداها، إهداء إلى الأستاذة عفاف.

قام خالد بزيارة عفاف، أعطاها نسخة من الرواية، وعليها إهداء تلميذها كريم، غمرتها سعادة بالغة، بذلك النجاح الذي حققه كريم، لكنها أرجعت الفضل في ذلك النجاح إلى خالد، الذي استطاع تحويل تلك الطاقة السلبية، إلى طاقة ايجابية ناجحة، طلبت منه أن يكرر ذلك النجاح، مع ابنتها ليلى، القابعة في غرفتها طوال الوقت، لا تخرج منها، ولا تُكلم أحدا، ولا تتفاعل مع الأحداث، التي تدور من حولها!

دخلت عفاف على ابنتها غرفتها، وجدتها قابعة أمام الحاسب الآلي، أخبرتها أن خالد زميلها في المدرسة، يُريد أن يحادثها، فلم تلتفت إليها، كأنها لم تسمع شيئا، خرجت الأم، سمحت لخالد بالدخول عليها. طرق خالد باب غرفتها، ثم دخل عليها، وجدها جالسة أمام جهاز الحاسب الآلي، تفتح أحد

مواقع التواصل الاجتماعي، الذي أصبح كل حياتها، تُضيع فيه جُل وقتها، حاول إقناعها أن الفيسبوك، موقع هام وترفيهي، لكنه قد يتحول إلى إدمان، يسحبها بالتدريــج من حياة واقعية، من الممكن أن تكون مبهرة، مليئة بالأحداث، فتلك الساعات التي تقضيها على الفيسبوك، يمكن استغلالها في نزهة جميلة في حديقة، أو قراءة كتاب مفيد، أو حتى تأمل النجوم في السماء، مما يجعلها تشعر بالهدوء والارتياح.

لكنها لم تعره انتباهها، إنها تُحاول الهروب من حياتها المزيفة، من تلك النكبة، التي أفقدتها طموحها، لم تعد تدري أين الحقيقة، هل حاول شوقي مدكور التحرش بها، فضربته على رأسه فأردته قتيلا؟! أم أنهم قد خدعوها، ليخرجوا أبو زيد من قفص الاتهام؟!، تُريد فقط أن تتأكد، هل ما حدث كان حُلما أم حقيقة!

شعر خالد بالفزع، لم يكن يدري، أن ما فعله كان كارثة بمعنى الكلمة، لقد كان أنانيا إلى أبعد الحدود، خشي على نفسه الفضيحة، فكتم الحقيقة التي لو تمسك بها، لأنقذ تلك الفتاة البريئة، من براثن الضياع.

لقد تأكد أن التلصص، كان نكبة عليه، وعلى من حوله، إن كشف بواطن الأمور، قد يُؤدي بالشخص إلى الجنون، من الأفضل أحيانا، ألا تعرف كل شيء، أحيانا تكون على يقين، أن أحد الأشخاص يكرهك ويحقد عليك، لكنه يُظهر لك الود، فتعيش على ما يُظهره، لكنك حينما تتأكد من كراهيته، فانك ستبادله الكراهية بالكراهية، صدق الرسول الكريم حينما قال (لو تكاشفتم لما تدافنتم). ماذا يفعل لكي يُكفر عن فعلته، بتلك البنت البريئة، هل يعترف لها بالحقيقة؟ أن ما رأته ليس وهما، لقد رأى بعيونه ما رأته بعيونها، هل

يُخبرها بأنها الصادقة البريئة؟ وكلهم كاذبون مخادعون! لن يستطيع فعل ذلك، لأنه وبمنتهى البساطة، يُريد أن يحافظ على مظهره الخارجي، يُريد الحفاظ على تلك القشرة المزيفة، التي يُزين بها ظاهره الاجتماعي، والبواطن جميعها خربة!

ـ ٤٨ ـ

كانت مريم في غرفتها، حينما سمعت أمها تناديها، كان صوتها يخرج بصعوبة شديدة.. مريم.. ألحقيني يا مريم.. فهرعت مريم بالكرسي المتحرك، نحو صوت أمها الواهن، الذي يُوحي بالقلق، فوجدتها راقدة على الأرض، تكاد روحها أن تصعد، تضع يدها اليمنى على قلبها، تشير بيدها الأخرى إلى مريم، لكي تجلب لها دواء القلب، الموجود على المائدة، فتحركت بسرعة نحو الدواء، لكن عجلتها وذعرها الشديدين، من حالة أمها الراقدة بين الحياة والموت، جعلها تسقط من فوق الكرسي، ارتطمت بالأرض بجوار أمها، لكنها لم تستسلم، حاولت أن تتحرك، لكنها فشلت بجدارة، فلم تجد بجوارها، سوى هاتفها النقال، طلبت خالد لكي يساعدها في إنقاذ أمها من الموت.

كان خالد جالسا في الشرفة، يرتشف الشاي، مستمتعا بهواء البحر العليل، يطالع رواية (ابنة الجيران) (..أخذت أتراقص معها، في جميع أرجاء الشقة، وهى فرحة مبتسمة، يظهر بياض أسنانها، أضمها بين ذراعي، أمسح على شعرها الأسود الطويل، أسبح في بحر عينيها الواسعة...).رن هاتفه النقال، تطلع بعيونه إلى شاشة الهاتف، فوجدها أميرة، ظن أنها تريده، أن يفتح صفحته على الفيسبوك، لكي تُحادثه، فلم يهتم، لم يكن لديه الرغبة، في التحدث مع أحد، فلم يقبل المحادثة، لكنها ألحت في الطلب، فأدرك أن هناك أمراً هاماً، فقبل المحادثة، كان يبدو على صوتها الذعر الشديد:

.ألحقني يا خالد بسرعة.. ماما تعبانه أوي..!

شعر بالاندهاش! لم يفهم منها شيئا، كيف سيذهب إليها على وجه السرعة؟ وهي في بيتها في القاهرة، وبينهما أربع ساعات بالسيارة، ولا يعرف عنوانها أصلا، فسألها في تعجب:

. أجيلك فين؟

فأخبرته أنها في شقتهم بالطابق الخامس، في بناية ليليان، ثم صمتت طويلا، كأنها ندمت على قول تلك العبارة، ثم أنهت المحادثة.

عاودت مُحاولاتها المستميتة، أن تتحرك لتُنقذ أمها، ومع إلحاح صوت أمها الواهن، الذي يرجوها أن تُسرع بالدواء، قبل أن تَصعد روحها، شعرت مريم أن قدميها تتحركان، فخذيها يرتفعان إلى أعلى، جسدها يُساعدها على النهوض، أنها بالفعل تقوم من رقادها، مدت يدها نحو عُلبة الدواء وفتحتها، أخرجت منها عدة حبات، ألقتها في فم أمها الواهن، فبدأت تسترد بعضاً من أنفاسها، ساعدتها في النهوض، تحركت بها إلى غرفتها، على صوت جرس الباب، الذي يدق بشدة، وضعتها في سريرها، ثم هرعت نحو الباب وفتحته، فوجدت خالد يقف أمامها، وخلفه الدكتور ثروت عياد، بجسده النحيف، ووجهه الذي تكسوه التجاعيد، عدل من وضع نظارته الطبية السميكة، ودخل حاملا حقيبته، سألها عن غرفة أمها، فأشارت بيدها نحو الغرفة، ودعته للدخول، فهرول إلى داخل الغرفة.

ما أن رآها خالد تقف وتتحرك، حتى ذُهل من فرط الفرحة، فذُهلت وهي تتحسس جسدها وفخذيها، كأنها تذكرت فجأة، أنها كانت على مدار سنوات طويلة، تجلس على كرسي متحرك، فشكرت الرب، هرولت إلى صورة السيدة مريم العذراء، صلت صلاة قصيرة، وهي تذرف دموع الفرحة، تردد عبارات

الشكر، رسمت علامة الصليب على وجهها، ثم التفتت نحو خالد، سحبته من يده نحو غرفة أمها.

وقف الدكتور ثروت بجوار أم مايكل، قاس لها الضغط والسكر، ثم أعطاها حقنة في وريدها، طمأن مريم على صحة أمها، لكنه طلب سيارة الإسعاف، لكي تنقلها إلى المستشفى، لعمل الإسعافات اللازمة.

في مستشفى الشاطبي الجامعي، رقدت أم مايكل في غرفة العناية المركزة، وبجوار بابها وقفت مريم، ترمق خالد بعيونها، رأت على وجهه عشرات التساؤلات، فبادلها النظرات مبتسما، طأطأت رأسها خجلا، ثم اقتربت منه، ألصقت كتفها في كتفه، اقتربت بشفتيها من وجهه، وطبعت قبلة شكر على خده، فشعر بأن جسده ينتفض، فأمسك يدها وقبلها في سعادة، همت أن تشرح له، تبرر له فعلتها، لكن قطع رغبتها الطبيب المعالج، الذي خرج من غرفة العناية المركزة، هرعت نحوه سألته عن حالة أمها، فانفرجت أساريره، وقال في سعادة:

. الحالة استقرت والحمد لله..

ثم تركها وانصرف، فتحت مريم باب الغرفة، هرعت نحو أمها، ومن خلفها خالد، كانت أمها راقدة في سريرها، عيونها نصف مفتوحة، رغم أصابتها بالوهن والإعياء، رأت ابنتها تقف على قدميها، فذُهلت من شدة الفرحة، كادت أن تقوم من رُقادها، تحتضن ابنتها. كان هذا الحدث كفيلا، بأن يُحسن من حالتها الصحية، بل ويقلب حياتها رأساً على عقب، فلم تمر عدة ليال، حتى عادت إلى شقتها في بناية ليليان.

أوصل خالد مريم وأمها إلى الشقة، بعد أن اطمئن عليها، استأذن للانصراف،

فودعته مريم على باب الشقة، وقف أمامها، وعلى وجهه تساؤلات عديدة، حاول أن يكتمها، حدق في عيونها، فابتسمت ومسحت على شعره، فأمسك يدها وقبلها، شعرت أن لديها رغبة كبيرة، في الارتماء في حضنه، لكنها شعرت بالخجل، حادثت نفسها.. لا أعلم ماذا فعلت بقلبي؟ سوى أنك جعلتني أحبك أكثر.. رغما عني!

طلبت منه أن يخرجا سويا، لتحكي له كل شيء بالتفصيل، فابتسم وهز رأسه بالموافقة، ثم تركها وانصرف، وعيونها ترافقه في بريق، نبضات قلبها تهز ضلوعها، حتى اختفى بداخل المصعد، فأغمضت عينيها، وتنفست في سعادة.

الريح ناعمة هادئة، البحر يحمل نسمات الصيف، المُشبعة بالرطوبة، مريم تسير بجواره، على شاطئ البحر، شعرها يرحل إلى أشرعة المراكب البعيدة، الرياح تعبث بفستانها الوردي، فتُظهر ساقيها، تمد يدها تتشبث بيده، تقترب بكتفها من كتفه، حتى وصلا إلى باب سينما مسرح بيرم التونسي، جلسا في كافيه السينما، شرحت له أبعاد تلك الشخصية الوهمية، التي عاشت بداخلها لسنوات طويلة، أميرة عبد النعيم، تلك الفتاة المسلمة، التي تقمصت شخصيتها، هربت فيها من حياتها، حيث لا أحد يعرفها، ولا يعرف قصة عجزها، ولا يعرف ذلك الكرسي، الذي ترقد عليه منذ سنوات طويلة، فتشعر بالشفقة تطل من كلماته وتصرفاته. لقد هربت من الواقع إلى الخيال، قررت أن تعيش شخصية غير شخصيتها، تعيش في عالم غير عالمها، لقد كان الفيس بوك، هو التسلية الوحيدة في حياتها، بعد أن هجرها الجميع، بعد

أن ملت القراءة، العزف على البيانو، متابعة الشارع والبحر والترام، سماع أجراس الكنيسة من بعيد.

سألها في تعجب، لماذا اختارته، من بين كل من حولها، لتمثل عليه تلك التمثلية؟ فشعرت بالخجل، من اعتباره ما حدث تمثلية، أخبرته أنها لم تكن تقصد خداعه، لكنه ظهر أمامها صُدفة، وكانت أجمل صُدفة في حياتها، فقررت أن تُحادثه، ليُخفف عنها أوجاعها، دون أن تشعر بالشفقة، تطل من تصرفاته، فكان عند حُسن ظنها، كان نعم الصديق، رغم أنه وقع في غرام أميرة!.

كم تمنت أن تكون أميرة! فتقبل عن نفس راضية طلب الزواج، وتعيش معه إلى الأبد، لكن أميرة كذبة، انكشفت رغما عنها، رغم محاولاتها الحفاظ عليها.

رغم شعورها بتأنيب الضمير، لأنها خدعته بشخصيتها المزيفة، لكنها لم تخدعه في مشاعرها، شكرته على تلك السنوات، التي قضاها بجوارها، طلبت منه أن يستكمل معها مشوار الصداقة، طلبت منه أن يُساعدها على العودة إلى المدرسة، فلديها رغبة شديدة، في العودة إلى ممارسة حياتها الطبيعية، أن تستيقظ مبكرا، تركب الترام، تذهب إلى المدرسة، تقف في الفصل بين التلاميذ، تُريد أن تُعوض كل ما فاتها. بالفعل استطاع خالد مساعدتها، في العودة إلى المدرسة، لتدرس اللغة الإنجليزية، بدلا من مروة، التي حصلت على إجازة بدون مرتب، لتتفرغ إلى الحمل، التي بدأت في شهوره الأخيرة، لتستعد إلى الولادة.

- ٤٩ -

ذات صباح، استيقظ سكان البناية، على صوت عربة نقل كبيرة، تقف أمام البناية، مكتوب عليها بخط عريض (شركة الدمياطي لنقل المفروشات)، ويقف بجوارها طارق، يتابع باهتمام شديد، العمال وهم ينقلون عفش شقته إلى العربة. لقد باع شقته، سيُغادر البناية بلا رجعة، أثلج ذلك الخبر، صدور سكان البناية، خصوصا سهير ومروة، لقد استراحا أخيرا، من مضايقاته القذرة.

عقد مجلس النميمة جلسة طارئة، وبدأت التكهنات بشأن رحيل طارق عن البناية، ترددت التساؤلات. ما الذي دفع طارق إلى بيع شقته، ومغادرة بناية ليليان، مأوى نزواته؟ هل عرفت زوجته فريدة، بنزواته بداخل البناية، فأجبرته على الرحيل عن البناية؟ أم أنهم رحلوا إلى الفيلا، التي اشتراها في حي سموحة، من عوائد الرشاوى التي حصل عليها من عمله؟ وبكم باع شقته؟ كم تساوي الشقة في بناية ليليان؟ الرقم الذي تردد على الأسماع، ضخما للغاية، وصعب التصديق، مليون جنيها تُدفع في شقة قديمة، في بناية عتيقة، قاربت على المائة عام، رغم متانتها وشدة بنيانها، ومن الذي اشتراها؟ بالتأكيد وافد جديد من الصعيد، الذين يشترون تلك الشقق للإقامة، أو لتأجيرها باليوم، خلال الإجازة الصيفية.

لكن بأي حال من الأحوال، لقد استراح الجميع، من ذلك الجار الشهواني المُزعج، وانتظر سكان البناية الجار الجديد، الذي سيحل محل طارق، ولكن

مرت الأيام، والشقة لا تزال مُغلقة، لم تُفتح منذ رحيل طارق عنها، مما يُخالف العادة، فبمجرد أن يرحل ساكن، حتى يحل محله ساكن جديد، وغالبا ما يكون حديث العهد بالإسكندرية، فالمبلغ الذي دفعه، يُوحي بأنه مغفل كبير.

بعد مرور أسبوعين من رحيل طارق عن البناية، استيقظ سكان البناية، على صوت نفس العربة، تقف أمام البناية من جديد، وتقف بجوارها الفنانة المعتزلة سميرة سكر، والعمال ينقلون محتويات شقتها إلى العربة، ما أن انتهوا من نقل جميع محتويات شقتها، حتى تحركت العربة، وانطلقت سميرة سكر بسيارتها خلفها إلى شقتها الجديدة.

عقد مجلس النميمة جلسة طارئة جديدة، بدأت التكهنات تُطرح بقوة، ما الذي دفع سميرة سكر إلى بيع شقتها، مغادرة البناية؟ يبدو أن جلساتها المشبوهة قد انكشفت، وأن أحد الكبار نصحها بمغادرة البناية، لأن عين الشرطة باتت ترصد نشاطها غير الأخلاقي، بعدما أبلغ عنها أحد رواد الشقة، بعد أن تجاوز حدوده، جلب معه فتاة ليل، أراد ممارسة الرزيلة معها بداخل الشقة، فمنعته سميرة، فصفعها على وجهها، سألها في سخرية،.. أليست هذا الشقة لممارسة الدعارة؟! ألقى في وجهها ثمن جلسته، فطردته من الشقة،فأبلغ عنها شرطة الآداب.

لكن الرواية الأقرب للتصديق، أن أبو زيد المحامي، هو أجبرها على بيع الشقة، بعدما هددها بإبلاغ شرطة الآداب، عن نشاطها غير الأخلاقي، فباعت شقتها رغماً عنها، بنفس المبلغ الذي باع به طارق شقته، لنفس الشخص، وظلت الشقة مُغلقة!

بعد عدة أسابيع، كانت نفس السيارة، تقف أمام البناية، وبجوارها ورثة أم معاذ، الذين استولوا على الشقة بعد وفاتها، عملوا إثبات حالة، بإقامتهم في الشقة، ساوموا أبو زيد، محامي صاحب البناية، على ترك الشقة، مقابل حصولهم على خلو رجل كبير، لكنه أعطاهم مبلغا متواضعا، فهم ليسوا أصحاب الشقة، ليسوا من المستأجرين القدامى، وما فعلوه بالاستيلاء على الشقة غير قانوني، ويستطيع أن يُخرجهم منها، بدون أن يدفع جنيها واحدا، لكنه تفادى الدخول في منازعات، قد تطول بأروقة المحاكم، فأرضاهم بمبلغ متواضع، قبلوه على مضض، واستولوا على محتويات الشقة وتركوها له.

أثار هذا الرحيل المفاجئ لسكان البناية، الواحد تلو الأخر، تساؤلات عديدة، خصوصا بعدما تأكد أن المشتري هو نفس الشخص، وأن الوسطاء بين المشتري الجديد وسكان البناية، هما المحامي كمال أبوزيد وهريدي بواب البناية، لكن لصالح من يتم بيع شقق البناية بتلك الطريقة، وبتلك المبالغ الطائلة؟!

لكن ليس هناك سرا يخفي إلى الأبد، لقد عرف الجميع من هذا الشخص، الذي يشتري شُقق البناية، الواحدة تلو الأخرى، بعد تلك الزيارة التي قام بها أبوزيد المحامي لعواطف، وعرض عليها بيع شقتها، رغم فرحتها الشديدة، بالمبلغ الذي سيضمن لها حياة مرفهة، يُعوضها عن سنوات الحرمان التي عانتها، منذ أن هربت من بيت أبيها، لكنها حزنت، لأنها لن تستطيع التصرف في الشقة، رغم أنها قد اشترتها، بالأموال التي سرقتها من والدها، لقد تصرفت بمنتهى الحماقة، حينما كتبت الشقة باسم زوجها هاني، الذي هجرها منذ

سنوات طويلة، واستقر مع زوجته الجديدة في السويس، أشاح أبو زيد بيده نحوها، تركها وعلى وجهه ابتسامة بلهاء.

بعد تلك الزيارة بأيام، طرق أبوزيد باب شقتها من جديد، وخلفه قوة من رجال الشرطة،لإخلاء الشقة بالقوة، وتسليمها إلى المشتري الجديد، وحينما أنكرت عواطف أنها باعت الشقة، أخرج لها أبوزيد عقد البيع، من زوجها هاني إلى جابر عثمان!

صرخت.. بكت.. انهارت، حتى تجمع سكان البناية على صوتها، عرفوا القصة، لكنها في النهاية، طُردت من الشقة إلى الشارع، لم تستطع أن تأخذ، أكثر من حقيبة ملابسها، لقد باع زوجها النذل، الشقة بكل محتوياتها، لكن المبلغ الذي حصل عليه، كان أقل بكثير، من المبلغ الذي حصل عليه سابقوه، فزوجها لم يعلم بثمن الصفقة، التي تُباع بها شقق البناية. خدعه أبوزيد، اشتراها بنصف مليون جنيه. بعدها وجدت عواطف نفسها في الشارع، عطف عليها دكتور ثروت، تركها تعيش في العيادة، حيث تقوم بالعمل في العيادة نهارا، وتغلق على نفسها، غرفتها المعزولة عن الشقة ليلا.

-٥٠-

ذات مساء، بعد أن انتهيا من تناول العشاء، جلسا يتسامران على صوت أم كلثوم، يتبادلان النكات والضحكات، وفجأة سرحت قليلا مع صوت أم كلثوم.. ودارت الأيام.. ومرت الأيام.. ما بين بعاد وخصام.، هطلت الدموع من عينيها، التي تعلقت بصورة زوجها، تأملت عيونه الحزينة تعاتبها.. وشفتيه تصرخ فيها..، ربت خالد على ظهرها، مسح عيونها بأصابعه، لكنها لم تكف عن البكاء، لقد اشتاقت إليه كثيرا، سحبها من ذراعيها، ليدخلها إلى غرفتها، تحركت واقفة، لكنها شعرت بوخز في صدرها، وأن الأرض تدور برأسها، ثم سقطت مكانها، طلبت منه أن يُعطيها دواء القلب، فهرع نحو غرفتها، أحضر لها الدواء وأعطاه لها، طلبت منه أن يُساعدها في الذهاب إلى فراشها.

شعر خالد بالقلق، يبدو على أمه علامات التعب والإرهاق، العرق يُكبل جسدها، رغم البرودة الشديدة، وجهها أصفر كالليمون، قلبها ينبض بشدة، تأخذ نفسها بصعوبة، وجسدها يرتعش كعصفور بللته قطرات المطر، عيناها ترتجفان، ثم راحت في غيبوبة.

طلب الدكتور ثروت فحضر على الفور، وخلفه عواطف، وقع الكشف الطبي عليها، أشار عليه أن يطلب سيارة الإسعاف، حضرت السيارة على الفور، حملتها إلى المستشفى، تم وضعها على سرير الفحص في حجرة الطوارئ، وتم نقلها إلى العناية المركزة، وتم عمل جراحة عاجلة، بعمل قسطرة في القلب،

مكثت أم خالد في المستشفى عدة أيام، شعرت بعدها بتحسن حالتها، ثم عادت إلى البيت، توافد أهل الشارع عليها لزيارتها، وظل البيت عدة أيام لا يفرغ من الزيارات.

تولت عواطف خلال تلك الفترة، العناية بها، بمجرد أن تنتهي، من عملها في العيادة، حتى تُهرول لتساعدها في شغل البيت، تظل طوال اليوم بجوارها، تتابع حالتها الصحية، تُعطيها العلاج في موعده، تُجهز لها الطعام، الذي حدده طبيب القلب، بالإضافة إلى تنظيف الشقة، غسل الملابس وطهي الطعام، في المساء تعود إلى غرفتها في عيادة الدكتور ثروت، تنام بداخلها حتى الصباح.

شعر خالد بالحرج، من تواجد عواطف الدائم بداخل الشقة، ما زال يتذكر منظرها وهي عارية بين أحضان طارق، لم ينس نظراتها الشهوانية المتكررة إليه، تعمدها ارتداء الملابس الضيقة، التي تُثير أعصابه، أثناء قيامها بأعمال البيت، قرر أن يتحاشى كل تلك المُثيرات، فكان يعود من المدرسة، يطمئن على أمه، ثم يهيم على وجهه في الشوارع، على المقهى، على شاطئ البحر، بمفرده أحيانا وبصحبة مريم أحيانا أخرى، هربا من عواطف، ونظراتها الشهوانية المُثيرة، حتى ينقضي اليوم، ويحين وقت انصرافها من الشقة، وحينما يعود لا يصعد إلى الشقة، حتى يتأكد من عم صابر بواب البناية، أن عواطف قد غادرت إلى بناية ليليان، لكن عواطف لم تستسلم، كانت رغبتها متأججة، في النيل من عذريته، راهنت نفسها أنه لن يستطيع مقاومة رغبتها إلى الأبد.

في إحدى الليالي، عاد خالد من المقهى، فلم يجد صابر جالسا كعادته أمام

البناية، فصعد إلى الشقة، فتح الباب فوجد الأجواء هادئة، فتح باب غرفة أمه، فوجدها تغط في نوم مرهق ثقيل، فتش بعيونه بين جنبات الشقة، فلم يجد أثراً لعواطف، فاطمئن أنها قد غادرت الشقة.

دخل المطبخ، أخرج علبة جبن من الثلاجة، فتح رغيفا بالسكين، أعد لنفسه شطيرة، رفع الشطيرة إلى فمه، لكنه شعر بعدم الرغبة في تناول الطعام، فأعاد الشطيرة إلى الثلاجة، هرع إلى غرفته، بدل ملابسه، هرع نحو فراشه، ما أن رفع الغطاء، حتى وجد عواطف راقدة في فراشه، تلبسه الذعر، هم أن يصرخ من هول المفاجأة، لكن عواطف المتمرسة، استطاعت بقوة أن تجذبه تحتها، استطاعت تكميم فمه بيديها، ورقدت فوقه، حتى تمنعه من الهرب، شعر بفخذيها المكتنزين يجثمان على خصره، تحسس جسدها فوجدها عارية كما ولدتها أمها، حاول أن يدفعها، ليتخلص من جسدها المثير، الذي يحاصره بقوة، فانقضت بشفتيها على شفتيه، فتلبست النشوة جسده، الذي لم يُمارس تلك اللعُبة في حياته مطلقا، حاول أن يُقاوم، لكنها كانت مقاومة ضعيفة، ما لبثت أن تبددت، فخلع ثيابه وطرحها أرضا دون وعي، استسلم لرغبتها التي أطعمته جسدها بلا رحمة، فسقط على صدرها، يبادلها العشق برغبة جامحة، ما أن أنهت رغبتها، حتى سقطت بجواره مُتشبعة بالنشوة، أخرجت من حقيبتها علبة سجائرها، سحبت سيجارة وأشعلتها كفتاة ليل متمرسة، أطلقت دخانها في هواء الغرفة، وخالد راقد بجوارها لا يحرك ساكنا، نظرت إليه وابتسمت، قالت في سخرية.

. ده أنت طلعت جامد أوي.. ما تتجوز قبل ما شبابك يهرب منك!

التفت إليها، سحب من يدها السيجارة، أخذ منها نفسا طويلا، أطلق بعدها

سعالا، كاد أن يخنقه، مد يده وسحب الغطاء على جسدها العاري، طلب منها أن ترتدي ملابسها، وتغادر الشقة، قبل أن تستيقظ أمه وتكون كارثة، لكنها أطلقت ضحكة ماجنة، لا تليق إلا بعاهرة، أخبرته أنها أعطت لامه حبوبا منومة، ستجعلها تنام حتى الظهيرة، فقام مُنتفضاً، صفعها على وجهها، فجذبته من ذراعيه، ليعيدا اللعُبة من جديد!

ـ ٥١ ـ

خلال فترة مرض أم خالد، زارتها سهير عدة مرات، بصحبة سمير وأسعد، يجلسون بعض الوقت، يطمئنون عليها ثم ينصرفون، شعر خالد أن هناك تجانسا كبيرا، قد حدث بينهم، خصوصا بعد أن أعلنت سهير، أنها حامل في شهورها الأولى، وأن أسعد على وشك أن يكون له أخ أو أخت، أعلنت أم خالد عن فرحتها، لخبر حمل سهير، تمنت لها مزيداً من الذرية.

في أخر زيارة، كان يبدو عليها، الرغبة في فتح موضوع يؤرقها، لكن الخجل يمنعها من البوح، لقد قررت الرحيل عن بناية ليليان، بعدما زارهم أبوزيد، عرض عليهم شراء الشقة، مقابل مليون جنيه، وهو نفس المبلغ، الذي حصلت عليه سميرة سكر و طارق، شعر خالد بالفزع، فالبناية تُفرغ من سكانها بسرعة رهيبة، حزنت أم خالد كثيرا، لقد اعتادت على رؤية سهير كل صباح في الشرفة، اعتادت على ذلك الصبي الهادئ الطباع أسعد، وأين ستجد سهير جيران مثلهم!

. هتروحي فين يا أم اسعد؟

أخبرتها أن أبوزيد،عرض عليهم الانتقال، إلي بناية حديثة النشأة، في حي كامب شيزار، شقة واسعة تشطيب سوبر لوكس، مقابل نصف مليون جنيه، بمعنى أن يحصلوا على نصف مليون جنيه، وشقة جديدة، سيشترون سيارة، يذهب بها سمير وأسعد إلى المدرسة، ويضعون باقي المبلغ في البنك باسم أسعد.

شعر خالد أنها لم تأتي لتأخذ رأيهما، لكنها جاءت لتودعهما، بعدما أخذت قرارها بالرحيل. لقد استطاع سمير، السيطرة عليها، بأسلوبه الناعم، وكلماته المعسولة، سهير كانت تحتاج لرجل مثل سمير، يُعطيها الحنان الذي حُرمت منه، يهتم بابنها كأنه ابنه، يُخطط لحياتها ومستقبلها، يُصبح توأم روحها، فتبادله العشق بالعشق، تفتح له خزائن قلبها، تُعطيه ممتلكاتها بلا خوف، تهبه حياتها بلا تردد... هنيئا لك يا سمير!

بعد أسبوع من تلك الزيارة، وقفت عربة نقل المفروشات، أمام باب البناية، وبجوارها سمير وأسعد، يتابعان العمال وهم ينقلون مفروشات الشقة إلى العربة، لنقلها إلى الشقة الجديدة، في حي كامب شيزار.

هكذا اختفت سهير من بناية ليليان، سهير التي كانت السبب الرئيسي، في تلصص خالد على سكان البناية، وكشف أسرارهم، رحلت بلا مقدمات، تناست خالد وأمه إلى الأبد.

ـ ٥٢ ـ

قام خالد بزيارة خاطفة إلى أم مايكل، التي لم يزرها، منذ أن خرجت من المستشفى، وعادت مريم إلى الحياة من جديد، ما أن رأته حتى عاتبته على قطع زيارتها، منذ عودة مريم إلى المدرسة، فصارا يذهبان ويعودان سويا من وإلى المدرسة، شعر أن أجواء البهجة والفرحة، عادت لتعم أرجاء الشقة من جديد، لم تعد تلك الشقة، التي دخلها منذ شهور، حيث الكآبة والحزن، يلفان جدرانها، هجرا الملابس السوداء التي تُوحي بالحزن، وارتديا الألوان المبهجة، والابتسامة لا تُفارق وجهيهما.

كان لخالد هدف أخر من الزيارة، أراد أن يتأكد، هل وصلت مفاوضات أبوزيد، إلي شقة أم مايكل؟ بالفعل كانت أم مايكل، أول من فاوضها أبوزيد، فجدار مكتبه يلتصق بشقتها، لكنها رفضت تماما مغادرة البناية، التي تحمل أجمل الذكريات، شهدت زواجها بابن عمها خليل، شهدت حياتها معه، حتى فارقها وهو في ريعان شبابها، مازالت رائحته وذكرياتهما في كل ركن فيها، شهدت ميلاد مايكل ومريم، سنوات حياتهما حتى كبرا، شهدت أفراحهم وأحزانهم، كل جدار بالشقة، كل قطعة أثاث فيها، كل صورة معلقة على جدرانها، تحمل ذكريات لا تُقدر بثمن، كيف تبيع ماضيها وحاضرها ومستقبلها بسهولة، مهما كان الثمن.

ربت على يده، طمأنته أنها لن تبيع الشقة، فأين تجد جارا مثله، وقف بجانبهم في أوقات الشدة، ابتسم فرحا، شكرها على كلمات الإطراء التي لا يستحقها.

في الوقت الذي أعلنت فيه أم مايكل، رفضها التام بيع شقتها، كانت المفاوضات على أشدها، بين الدكتور مدحت وأبوزيد المحامي، عارض مدحت فكرة الرحيل عن البناية، رغم أن زوجته مروة، لديها رغبة قوية في ترك البناية، والانتقال إلى الفيلا، التي يمتلكها مدحت في حي لوران، خصوصا بعد وصولها إلى الشهور الأخيرة من الحمل، ورغبتها في العيش في مكان واسع، تستطيع استقبال أسرتها فيه، لمساعدتها أثناء فترة الحمل والولادة. فضل مدحت البقاء في البناية، حيث عمله في الصيدلية، التي تُدر دخلا كبيرا، ومن الصعب الحصول على صيدلية جديدة، بعيدا عن الشاطبي. لكن مع إغراء أبوزيد، وإلحاح زوجته مروة، وافق مدحت على بيع الشقة والصيدلية. كان ذلك الخبر، بمثابة صفعة على وجه خالد، الذي ينقبض قلبه، مع رحيل أحد سكان البناية، الشعور الذي بات يُزعجه، بأن نهاية بناية ليليان قد أوشكت. وظل في انتظار إتمام صفقة بيع المقهى، كان المعلم رمضان قد كبر سنه، ولم يعد يتحمل المكوث في المقهى لفترات طويلة، خصوصا بعدما فعله العربي، كاد أن يعصف بسمعة المقهى، بل ويُلقي بالمعلم رمضان في السجن، وبعد إلحاح من أبنائه، الذين لن يستطيعوا، متابعة العمل في المقهى، أرادوا الحصول على تلك الثروة، التي ستأتي من وراء بيعها، قرر المعلم رمضان بيع المقهى.

- ٥٣ -

بعد إتمام صفقة بيع المقهى وإغلاقها للأبد، انتقل الشعور الذي تملك خالد، على مدار شهور، إلى سكان المنطقة، من رواد المقهى ومطعم الرشيدي وصيدلية المغربي، أصابهم القلق من محاولة سرقة تاريخهم. انتابهم شعورا عميقا، بأن البناية على وشك الاختفاء، من فوق وجه الأرض. كان لبيع المقهى وإغلاقه، أكبر الأثر عليهم، ذلك المقهى، الذي كانوا يقتلون فيها أوقاتهم الصعبة، كل مقعد ومائدة وشيشة وكوب شاي وفنجان قهوة، كل ركن فيها، له ذكريات لا تُنسى، لماذا فرط المعلم رمضان في المقهى بتلك السهولة؟!.

حاول خالد أن يستغل ذلك الشعور، فقام بعدة محاولات، لإيقاف مخطط هدم البناية، فلم يتبق سوى دكتور ثروت ومريم خليل، التي وقفت كالشوكة في حلقهم، أصبحت الجدار الصلد، الذي استند عليه خالد، في محاولاته لإيقاف هدم البناية، التف حولهما سكان المنطقة، دشنوا حملة إعلامية باسم (لا لهدم بناية ليليان) تم تصعيد القضية إلى محافظ الإسكندرية، تحالف معهم قيادات شعبية، شخصيات فنية وثقافية وإعلامية ومرشدين سياحيين بالإسكندرية، طالبت الحملة الحكومة، بتوفير الحماية اللازمة لعشرات المباني الأثرية، التي حُذفت من مجلد التراث، قدمت عريضة إلى رئيس الوزراء ووزيري الإسكان والثقافة، تُطالبهم بالحفاظ على الهوية الثقافية للمدينة، عبر المثقفون عن استيائهم من تهالك الوضع الثقافي والتراثي للمدينة، مدينة الإسكندرية العالمية والثقافية، تتلاشى بسبب انهيار

المباني التراثية، جنوب الإسكندرية أصبح معظمه عشوائيات، والشمال كله مخالف للقانون، إن هناك اعتداءً ممنهجا من المقاولين على المباني التراثية.
استطاع خالد ومريم، إلهاب مشاعر الرأي العام، توسيع نطاق القضية، لتشمل بنايات وقصور وبيوت مشاهير، مثل بيت سيد درويش، بناية راقودة، التي شهدت ميلاد وحياة يوسف شاهين، المشكلة أن بناية ليليان، غير مُدرجة ضمن مجلد المباني التراثية بالإسكندرية، على الرغم من مرور حوالي تسعين عاما على إنشائها، لابد من مرور مائة عام على المبني، حتى يتم إدراجه.
هل ستصمد مريم ودكتور ثروت، عشرة أعوام أخرى، أمام لصوص التراث، أكدت مريم أنها ستصُمد أمام إغراءات تلك العصابة، رغم المحاولات التي بذلها أبوزيد للتخلص منها.
دكتور ثروت عياد، رجلا تخطى السبعين عاما، عاش مع زوجته وأولاده، في شقة ببناية راقودة، حتى تزوج أولاده وماتت زوجته، فعاش فيها بمفرده، وحينما استولى مقاولو الهدم على بناية راقودة، عرضوا عليه بيع الشقة، أجبره أولاده، على بيع شقة راقودة، بمبلغ خرافي، تقاسموه فيما بينهم.
اضطر دكتور ثروت، أن يتخذ من عيادته في بناية ليليان، سكنا يعيش فيه، وعيادة يكشف فيها على سكان المنطقة، مقابل مبلغ ضئيل، وأحيانا لا يحصل على ثمن الكشف، من الفقراء الذين لا يملكونه، بل كان يُعطيهم الدواء من العينات، التي يأتي بها مندوبو شركات الدواء، لقد قرر أن يعيش على الكفاف، لا يخرج من الشقة إلا للضرورة، يذهب إلى الكنيسة في أيام الآحاد، وفي الأعياد لحضور القُداس، أحيانا يخرج على فترات ليتمشى على البحر، أو لحضور ندوة ثقافية بقصر ثقافة الشاطبي، وتقوم عواطف على

خدمته، فترعى شئون العيادة، من الصباح حتى الثالثة عصرا، الموعد الذي حدده لإغلاق العيادة، نظرا لظروفه الصحية.

ذات مساء زاره أبناؤه، بمجرد أن رآهم، حتى عرف سبب الزيارة، جاءوا ليجبروه على بيع شقة بناية ليليان، كما أجبروه على بيع شقة بناية راقودة من قبل، لكن أين سيذهب هذه المرة؟!، ألم يكفهم أنهم هجروه لسنوات طويلة، لم يفكروا يوما أن يسالوا عنه، فلم يشعر بوجودهم في حياته، مجرد زيارات متفرقة في الأعياد والمناسبات.

لم يشعر أبناؤه بالحرج، لم يشعروا بالحزن، لم يشعروا بالخزي، حينما أخبره كبيرهم، أنهم حجزوا له غرفة، في دار المسنين التابعة للكنيسة، شعر بالحزن والأسى، سقط على أقرب كرسي، خلع نظارته ومسح دموعه بأطراف أصابعه، اقترب منه أصغرهم، مسح على رأسه، قال في حنو:

. إحنا اختارنا لك دار مسنين جوه الكنيسة.. عشان تكون قريب من الرب.. تتفرغ لممارسة الطقوس والعبادة في أواخر أيامك.. وتلاقي حد يرعاك..هو في أجمل من بيت الرب يا بابا!

لم يكن يشغل عقل الدكتور ثروت، إلى أين سيذهب؟ ما كان يشغل عقله حقا، تلك المسكينة عواطف، أين ستذهب، بعد بيع الشقة التي تؤويها؟ لن يستطيع الصمود أمام أبنائه، وإن صمد أمامهم، فلن يستطيع الصمود، أمام أبوزيد، الذي لن يتركه في حاله، فرضخ أمام رغبة أبنائه، في بيع الشقة رغما عنه!

مرت عدة أيام، وعاد أبنائه بصحبة أبو زيد، وقعوا عقد بيع الشقة، واستلموا المليون جنيه، وطلبوا من أبوزيد مهلة أسبوعا، حتى يستلم الشقة. وقع الخبر على رأس عواطف كالصاعقة، بكت.. صرخت.. لطمت خديها، شحب

لون وجهها الأبيض، فقدت عيونها السوداء رونقها، لكنها في النهاية.. جمعت ملابسها، واستعدت للرحيل.

شعر الدكتور ثروت بالأسى من أجلها، لم يملك إلا أن أخرج لها، كل الأموال التي أدخرها للزمن، والتي لا يملك غيرها، بعدما حصل أبناؤه،على مبلغ الشقة بالكامل، ولم يتركوا له جنيها واحدا، عصفت الأفكار بعقل عواطف، إلى أين سترحل؟ هل تعود إلى بيت أبيها في القاهرة؟ أبيها الذي سرقت أمواله، وضيعت شرفه مع ذلك النذل، خشيت أن لو رآها أمامه، سوف يقتلها بلا رحمة، بعد تفكير عميق، قررت أن ترحل إلى زوجها في السويس، تُطالبه بحقها الذي سرقه بلا رحمة، تُطالبه بعمرها الذي ضاع منها بلا فائدة، تُطالبه بالعدل بينها، وبين زوجته الثانية، التي سرقته منها، تُطالبه بحقها في ثمن شقة بناية ليليان، التي اشترتها بأموال أبيها، والتي قضت فيها حياتها، وحيدة بلا رجل يُؤنس وحدتها، مما أجبرها على الارتماء في أحضان الرزيلة.

في اليوم المحدد، لاستلام شقة الدكتور ثروت، طرق أبوزيد جرس باب الشقة، ومن خلفه أبناء الدكتور ثروت، ولكن الدكتور ثروت لم يُجب، لم يتحرك لفتح الباب، لم يُسمع له صوت، ظنوا أنه قد خرج إلى الكنيسة، أو ليتمشى على البحر، أو لحضور ندوة ثقافية في قصر ثقافة الشاطبي، لكن هريدي بواب البناية، أخبرهم أنه لم يخرج من شقته، منذ خمسة أيام، شعر أبناءه بالقلق الشديد، ففتحوا باب الشقة عُنوة، فوجدوه جالسا، خلف مكتبه بغرفة الكشف، يرتدي البالطو الأبيض، ويلقي برأسه على المكتب، تتدلى السماعة من رقبته، تفوح منه رائحة الموت، بعدما أسلم روحه، إلى الأعالي في سلام.

ـ ٥٤ ـ

بعد رحيل الدكتور ثروت، لم يتبقى في البناية، سوى شقة نمرة (12) شقة أم مايكل وابنتها مريم، حاول أبوزيد معهما باللين والشدة، حتى يجبرهما على بيع الشقة، ومغادرة البناية بلا رجعة، استخدم ألاعيبه الشيطانية، فكان يُعطل المصعد، حتى يجبرهما على صعود السلالم، ليُرهق جسدهما، يفصل المياه والكهرباء عن البناية لفترات طويلة، سلط أحد اللصوص، فحاول سرقة الشقة، سلط عليهما أحد البلطجية، فكان ينتظرهما في مدخل البناية ليضايقهما، ويثير الرعب في قلبيهما، كان يُصدر من شقة العفاريت، بالطابق الثاني أصواتاً مرعبة، بعدها تشعر مريم، بأن هناك من يطرق باب الشقة، وحينما تُهرول لفتح الباب، لا تجد أحدا، وأحيانا تجد قطا أسود، يُثير الرعب في قلبها.

رغم كل تلك المضايقات، ظلت مريم صامدة بمساعدة خالد، الذي شد من أزرها، حتى يأس أبوزيد، واقتنع بأن مريم، لن ترفع الراية البيضاء في وجهه، فقرر تغيير مخططه، حتى يقضي على آخر معاقل المقاومة في البناية.

ذات صباح شتوي بارد، استيقظت مريم على صوت جرس الباب، وحينما فتحته، وجدت أخاها مايكل، يقف أمامها فاتحا ذراعيه، والابتسامة البلهاء، تعلو وجهه الأبيض المُشرب بحمرة، اتسعت عينيها فزعا، انقبض قلبها خوفا، رغم فرحتها برؤية أخيها، فتحت ذراعيها واحتضنته رغما عنها، نادت على أمها، فهرولت من المطبخ، إلى حضن ابنها، تبادلا القبلات والأحضان،

هطلت من عينيها دموع الفرحة، أخيرا تذكر مايكل، أن له أما، لم يرها منذ سنوات طويلة.

دخل مايكل متفحصاً أرجاء الشقة، التي لم يدخلها منذ سنوات طويلة، وقف أمام صورة أبيه، نفس العيون البنية، والشعر الأسود الكثيف، ولكن لوالده شارباً قوياً، ووجهاً رجولياً. وضع مايكل حقيبته الصغيرة على الأريكة، ثم جلس بجوار أمه، سألته عن حاله، حال زوجته الأمريكية فرنشيسكا، حال أولاده، الذين تتمنى أن تراهم، قبل أن تموت، سألته عن سر غيابه عنها، طوال تلك السنوات، ألم يشتاق إلى أمه! أم أنه قد وجد أماً غيرها، يرتمي في أحضانها، ويلتمس دعواتها! فارتمى بين أحضانها، قبل يدها ورأسها، طلب منها أن تُسامحه، على تقصيره في السؤال عنها، طُوال تلك السنوات، فمسحت على رأسه، وطبعت قبلة حانية على وجنته الناعمة، رسمت الصليب على وجهه، واحتضنه كطفل رضيع.

شعرت مريم بالتهكم من تلك المشاعر المزيفة، مايكل أخوها انتهازي لدرجة غير معقولة، لا يُعطي إلا بعد أن يتأكد، أنه سيحصل على أضعاف ما أعطى. بالتأكيد هناك سبب قهري، دفعه إلى تلك الزيارة، ابتسمت في سرها، من منظر هذا البهلوان، الذي يُمثل دور المشتاق بسذاجة، قطعت صمتها، سألته عن سر تلك الزيارة المفاجئة، ابتسم بعيونه الماكرة، أخبرها أنه اشتاق إلى أمه، فقطع عمله، وعاد في زيارة قصيرة، ليطمئن عليها، أليست أمه التي حملته في بطنها؟ أليست أمه التي أطعمته بيديها؟ أليست أمه التي أفنت شبابها من أجله؟ أليست أمه التي باعت مصاغها، لكي يسافر إلى أمريكا؟!.

أبدى مايكل دهشته، من تلك الحالة التي وصلت إليها البناية، المقهى

والصيدلية والمطعم، أغلقوا أبوابهم، شقق البناية باتت خاوية على عروشها، سأل في دهشة:

. انتم أزاي عايشين وحديكم في الخرابة دي؟ موش خايفين على نفسكم؟

قصت عليه مريم، أبعاد تلك المؤامرة، التي يقودها أبوزيد، للسيطرة على البناية، وإزالتها من فوق الأرض، فتهكم على شعورها السخيف، الذي ينم عن التخلف والرجعية، حاول إقناعها بأن التجديد والتغيير سُنة الحياة، وأن سبب تأخر الشرق، هو تمسكه بالماضي، وعدم رغبته في الانطلاق نحو المستقبل. هل تظن مريم أن بناية ليليان، كالأهرامات مثلا لا يُمكن أن تُهدم؟ إنها بناية قديمة متهالكة، قاربت على المائة عام، وآن الأوان أن تُهدم، ويحل محلها برج سكني عملاق أو فندق سياحي!.

ردت الأم بحسرة، من مشاعر ابنها الباردة، كشتاء أمريكا البارد، إن البناية ليست جدران وأبواب ونوافذ عتيقة، بل هي تاريخ وذكريات، إنها إرث لا يمكن التفريط فيه، إنها تلك الروح المُقدسة، التي تمتلكك حتى النُخاع، تخشى أن تُفارقها أو تُفارقك، إنها الأفراح والأحزان والحكايات والأغاني والترانيم، وصوت البحر والترام، صوت سيد درويش، وأصوات أجراس الكنائس مع آذان الفجر، إنها الإسكندرية عروس البحر المتوسط، التي عاش فيها جميع أجناس الدنيا في أمان وسلام، إنها الماضي والحاضر والمستقبل.. هل يُقدر كل هذا بثمن يا ولدي؟!

حاول مايكل أظهار، مدى قلقه عليهما، حينما شكتا إليه، من تُعمد تعطيل المصعد، وقطع الكهرباء والمياه لساعات طويلة، أبدى تخوفه من تركهما في البناية بمفرديهما، بعدما أصبحت بيت أشباح، فباتا مُعرضين للسرقة

أو القتل، وأصر على اصطحابهما معه إلى الولايات المتحدة، لاذت مريم بالصمت، لقد فهمت الآن، سبب عودة مايكل غير المتوقعة، بالتأكيد لقد تواصل معه أبوزيد، حتى يأتي ويبيع الشقة، وينتهي الأمر، فخرجت عن صمتها وسألته:

. أبوزيد عرض عليك كام يا مايكل؟

فأجاب بمنتهى السذاجة، بأنه قد عرض عليه مائة ألف دولار، ثم صمت طويلا، بعدما شعر بأنه قد وقع بسذاجة، في شِرك أخته، فضح نفسه بسهولة. لقد عاد مُهرولا، لإتمام صفقة البيع، وليس من أجل سواد عيون أمه، مائة ألف دولار، مبلغ لا يُستهان به، سيشتري لزوجته فرنشيسكا، السيارة التي صدعت رأسه من أجلها، لكي تصمت، وتكف عن المشاجرات التي لا تنتهي لبضعة أشهر قادمة.

كان من الواضح أن مايكل، قد صار مواطنا أمريكيا، تجري في عروقه الدماء الأمريكية، منذ أن أمسك بيديه جواز السفر الأمريكي، وعليه أن يتحمل إزعاج مصر في صبر، بانتظار عودته إلى وطنه الأم. عارضت مريم فكرة بيع الشقة، طلبت منه أن يعود إلى زوجته وأولاده، إنهما لن يغادرا الشقة، فاستشاط غضبا، أصر على عدم ترك أمه بمفردها، سيأخذها معه إلى الولايات المتحدة، لقد اشتاق إليها كثيرا، ولن يدع يوما يمر بدونها، يكف ما ضاع من عمره وهي بعيدة عنه، ثم انكب على يد أمه وقبلها، طلب منها أن تسامحه، على تركها طوال تلك الفترة، أخبرها أن زوجته وأولاده يسألون عنها، يشتاقون لرؤيتها.

ضحكت مريم بسخرية، طلبت منه، أن يكف عن تمثيل، ذلك الدور الساذج، الذي يُريد أن يقنعهما به، فتجاهل تلميحاتها ونظراتها، التي فضحت نواياه، منذ أن رأته على باب الشقة.

على مدار الأيام، التي قضاها مايكل في الإسكندرية، حاول بكل الطرق، إقناع أمه ببيع الشقة، فلم تجد أمامها، غير قبول العرض المقدم من أبوزيد. وحينما عاتبتها مريم، أفصحت لها عما يدور بعقلها، لقد أوشكت حياتها، على كتابة السطور الأخيرة، وستترك مريم بمفردها في الحياة، من سيرعاها من بعدها؟ لا زوج..ولا أخ.. ولا أقارب! هل ستتركها لـ أبو زيد المحامي، لكي يقتلها ويستولي على الشقة؟ لقد عاد مايكل في الوقت المناسب، جاء ليُكمل مسيرتها، لقد قررت أن تأخذ مريم، وترحل إلى الولايات المتحدة، ولن تعود في قرارها مهما حدث!

كان قرارها بمثابة صدمة كبيرة أصابت مريم، اعتبرته انتصارا لـ أبو زيد المحامي، وضربة في ظهر خالد، كيف ستُخبر خالد بأنها قد تخلت عنه؟! إن هذا القرار، بداية العد التنازلي لهدم البناية.

لم تستطع إخبار خالد، بالمفاوضات التي تمت، بين أخيها وأبو زيد، ظلت حبيسة غرفتها، لا تخرج منها، ولا تُحادث أحدا، لم تستطع الرد على اتصالاته، خشيت أن يفضحها صوت دموعها، ماذا ستقول له؟ بعدما أخلفت أمها وعدها له، بعدم بيع الشقة!.

تساءلت، ما سر ذلك الحزن الشديد على فراقه؟ هل عشقته حقا؟ وهل عشقها حقا؟ وما دلائل ذلك العشق؟ اهتمامه بها.. التصاق قلبه بقلبها.. فصار توأم الروح.. ذلك الشخص الذي لا يمكن الاستغناء عنه مهما كانت الأسباب.. كيف ستنزعه من قلبها؟ وتُلقي به خارج حدودها؟ هل هذا هو رد الجميل يا مريم!

ـ ٥٥ ـ

شعر خالد بالقلق الشديد، مرت عدة أيام، ومريم خارج حدود رؤيته، فكر جديا أن يأخذ أمه ويزورها، لكنه خشي عواقب تلك الزيارة، لقد كان مايكل متعصبا جدا في شبابه، يُحرم على أخته الاختلاط مع شباب الشارع، انصاعت مريم لتعليمات أخيها، فكانت تخرج وتدخل، دون أن تُحادث أحدا، أو تتعامل مع أحدا، أو تُصاحب أحدا، تخرج من البيت إلى المدرسة، ومن المدرسة إلى البيت، ومن البيت إلى الكنيسة، في أيام الآحاد والأعياد فقط، فصارت شبه منعزلة عن الآخرين!

بعد سفر مايكل، ظهر إبرام في حياتها، ليُكمل تلك السيمفونية الشاذة، من التشدد في علاقتها بالآخرين، حتى خلال فترة تواجدها في المدرسة، كان نشاطها قاصرا على عملها فقط، فتجدها دائما في الفصل الدراسي، أو غرفة المدرسات، حينما حاول خالد، أن يجذبها إلى الاختلاط في مجتمع المدرسة، طلب منها المشاركة في النشاط المدرسي، أبدت اعتذارها، كانت صداقاتها قليلة، تكاد تكون معدومة، وبعد الحادث الذي أقعدها في البيت، لم تجد من يزورها، أو يُشاركها أحزانها، لقد خسرت الجميع للأبد.. والسبب كان مايكل، ومن بعده إبرام، هل سيقبل مايكل، بوجود خالد في حياتها!

ذات مساء، كان خالد جالسا مع أمه، حينما طُرق باب الشقة، هرول نحو الباب وفتحه، فوجد مريم أمامه، ترتدي فستانا أسود اللون، أضفى على بياض بشرتها نصاعة، عيونها دامعة، خف وزنها، صار وجهها شاحبا، صوتها

منكسرا، شعرت برغبة شديدة، في احتضانه، فلم تتردد، ارتمت بين أحضانه، أسندت رأسها على كتفه، بكت بشدة، ربت خالد على كتفيها، مسح على شعرها، التقت أعينهما، فقبل رأسها، اعتذرت إليه، طلبت منه أن يصفح عنها، لقد خانته، حنثت بوعدها، تركته بمفرده وسط الريح. لم يشعرا أنهما، لا يزالان واقفين أمام باب الشقة، إلا حينما نادت عليه أمه، سألته عن الطارق.

جلسا على الكنبة وحدهما، الهواء يصرخ في الخارج، النوافذ تصطك، غشي خالد صمت ثقيل مرهق، وهو يستمع إليها، تحكي تفاصيل المؤامرة التي حاك خيوطها، أخوها مايكل مع أبوزيد. قلبه يتمزق، الشرود ينتابه أحيانا، البرودة تجتاح أوصاله، أدرك أنها لم تأت لتسأل عنه، بل جاءت لتُودعه، لقد قررت الرحيل إلى الولايات المتحدة، اختلطت مشاعره، ترنح كنخلة في مهب الريح، يُريد أن يبكي، أن يصرخ، أن ينعي حظه التعس في كل أحبابه، كل من أحبهم، تركوه بمفرده ورحلوا، رفضوا استكمال الرحلة معه. على مدار أيام، باعت أم مايكل كل محتويات شقتها، باستثناء المكتبة والبيانو والقطة، فقد أهدتهم مريم إلى خالد، حتى تظل عالقة في ذاكرته، على أمل أن يلتقيا ذات يوم.

ذات صباح، والسماء ملبدة بالغيوم، وقف خالد في الشرفة، يحتضن القطة، يُتابع مريم التي تستعد للرحيل، ترتدي بنطلونا أسود..قميصا أسود.. نظارة سوداء، بدت كما لو كانت ذاهبة إلى المقابر، ركبت أمها السيارة، بجوار مايكل، بينما ظلت مريم واقفة، تتأمل البناية، التي باتت خاوية على عروشها، في انتظار قرار الهدم، التفتت نحو بناية الأباصيري، فوجدت خالد واقفا في

الشرفة، يحتضن قطتها، خلعت نظارتها، نظرت إليه في حزن، أشارت إليه، تمنت أن تطير كالفراشة إليه، تمنت أن تظل معه إلى الأبد، بدأت الأمطار في الهطول، فجذبتها أمها من قميصها، مع صرخات أخيها بسرعة التحرك، ركبت مريم السيارة، أغلقت بابها في غضب، هرعت الدموع من عيون خالد، يتوسل إليها ألا يطول غيابها، حتى لا يُجن من التفكير، ففي قربها يشعر بسعادته، وفي بعدها يموت اشتياقا.

-٥٦-

منذ أن خرجت من غرفة العناية المركزة، بعد الأزمة الصحية الأخيرة، التي خرجت منها بأعجوبة، تملكها شعور غريب بقرب النهاية، بعدما كادت روحها أن تصعد، لكن يبدو أن الله قد أعطاها إنذاراً، لكي تعود إليه طاهرة نقية، بدلا من أن تعود إليه، حاملة على ظهرها كل تلك الذنوب، التي اكتسبتها من قراءة الفنجان، الادعاء بكشف الغيب، جلسات النميمة، التي خاضت فيها، في أعراض النساء والرجال، كشفت أسرار البيوت، فامتنعت عن عقد تلك الجلسات في شقتها، فانتقلت الجلسات إلى شقة أم عبير في بناية الأباصيري، التي دعت أم خالد لحضورها، لكنها رفضت بشدة، بل دعت روادها، إلى ترك تلك العادة الذميمة، فما جدوى الاطلاع على أسرار وبواطن الناس، وقد تكفل الله بسترها!

قامت بزيارات خاطفة إلى جيرانها، طلبت منهم الصفح، فاندهش الجيران من تلك السيدة، التي تتوسل إليهم أن يصفحوا عنها، خشي خالد أن يكون، قد أصاب أمه الزهايمر، فقد كانت تحتضن صورة والده، تطلب منه الصفح، تنادي عليه، تهمس إلى صورته، أنها تشتاق إليه، تحن إلى رؤيته!

بدأت الالتزام في الصلاة، حرصت على أدائها في أوقاتها، طلبت من خالد، أن يأخذها معه لصلاة العشاء والجمعة في مسجد الشاطبي، تظل طوال الوقت تقرأ القرآن، المسبحة لا تُغادر أصابعها، تُتمتم دائما بالاستغفار، تظل طوال الليل تُصلي، يُسمع صوت نحيبها في الصلاة، تصوم أيام الاثنين والخميس والأيام القمرية، تُخرج من أموالها، صدقات للفقراء والمحتاجين.

أدرك خالد، أن أمه تستعد للقاء الله، فشعر بالحزن والأسى، قرر أن يعتني بها، ألا يُفارقها، أن يشبع من حنانها قبل أن يُفارقها، لقد أضاع أوقاتا طويلة من حياته، من أجل أُناس لا يستحقون، جاهد من أجل إسعادهم، بذل قُصارى جهده، في التخفيف عنهم، لكنهم في النهاية، تركوه ورحلوا. كانت أمه أولى بتلك الأوقات، التي ضاعت من عمره هباء، آن الأوان أن يُعطيها من وقته واهتمامه، إن إهماله لها هو السبب، في ذلك الفراغ القاتل، الذي عاشته بمفردها، فأجبرها على الهروب إلى الجيران، لممارسة تلك الثرثرة الفارغة، لم يستطع نسيان، ذلك الشعور السخيف، بأنها كانت السبب في موت والده، السبب في فراق علياء، لكنه لم يُخبرها بذلك يوما، خشية أن يُؤلمها.

كان يأخذها معه لصلاة العشاء في مسجد الشاطبي، يزوران مقامات أولياء الله الصالحين، يتمشيان على الكورنيش، يستمتعان بالهواء العليل، صوت البحر، يركبان الترام، يأخذها لزيارة صديقاتها القدامى، يشاركها قراءة القران وقيام الليل والصيام، شعر بسعادة كبرى، حينما اقترب من أمه، كيف أضاع ذلك الكنز الثمين، على مدار سنوات طويلة، هرول بمشاعره خلف أُناس لا يستحقون. تمنى من الله.. ألا تكبر أمه.. ألا تمرض.. ألا تشيخ.. ألا تموت.. لقد أدرك تلك الحقيقة، لكن في الوقت الضائع، في تلك الليلة المباركة من شهر رمضان، بعد أن اعتكفا معا في مسجد الشاطبي، حتى صلاة الفجر، عادا إلى الشقة، أدخلها غرفتها، أرقدها في سريرها، طلبت منه أن يجلس بجوارها، أمسكت يده، دعت له كثيرا، طلبت منه أن يُسامحها، لأنها كانت السبب في موت أبيه، كانت السبب في رحيل علياء، ورفضها الزواج منه، لكنه قبل يدها ورأسها، أخبرها أن الأعمار بيد الله، وأن علياء لو عشقته حقا، ما فرطت

فيه، من أجل أسباب واهية. طلبت منه أن لا يترك الأيام تسرقه، عليه أن يُفتش عن زوجة، يُكمل معها مسيرة حياته، ليجد وليفا يُسلي وحدته، ويرعى شئونه، أن يُنجب طفلا، يكون له سندا في الكبر، ربت على رأسها، قبل يدها، دعا لها بطول العمر، طلبت منه أن يفتح المذياع، تريد أن تنام على صوت القرآن، غطى جسدها، فتح المذياع على إذاعة القرآن الكريم، فظهر صوت الشيخ محمد رفعت (وربُك يخلُقُ ما يشأُء ويختًار ما كان لهُمُ الخيرةُ سُبحان اللهِ وتعالى عما يُشرِكُون) أغلق المصباح، ثم باب غرفتها وراءه.

كانت تلك الليلة، هي أخر ليلة، قضاها بجوار أمه، تلك الكلمات، هي أخر كلمات سمعها منها، تلك النظرة، هي آخر نظرة منها إليه.. بعدها اختفت أمه، كما اختفى أبوه من قبل، لقد أتى عليها الزمن، الذي اعتاد أن يأتي على كل شيء أحبه، فقد أمه إلى الأبد، فقد تلك المخلوقة الوحيدة، التي أحبته في هذا العالم، بدأ يشعر بذلك الفضاء الواسع، الذي تركته بموتها.

ـ ٥٧ ـ

كان طابور الصباح، قد أوشك على الانتهاء، حينما دخل خالد المدرسة، رمق المدير والوكلاء والمدرسين بعيونه، ثم هرول إلى غرفة مكتبه، ضغط على زر الجرس، فدخل عليه بكري ساعي مكتبه، طلب منه فنجانا من القهوة، فعرض عليه أن يشترى لها طعام الإفطار، لكنه رفض، وأخبره أن ليس لديه رغبة في الطعام، خرج بكري وهو يتمتم بالحوقلة.

أخرج خالد عُلبة سجائره، سحب منها واحدة وأشعلها، سحب منها نفسا عميقا، أطلق دخانها في هواء الغرفة، اصطدم بتلك اللوحة المُعلقة على الحائط، المكتُوب عليها(ممنوع التدخين).

دخل عليه أستاذ ناصر مدير المدرسة، بجسده الممتلئ، البارز من بذلته الزرقاء القاتمة، التي عقد أزرارها بصعوبة، وكرشه الذي يتدلى عليه، رباط عنق عريض، جلس أمامه، ترتسم على وجهه، علامات الشفقة على تلك الحالة، التي وصل إليها، وجهه صار شاحبا، يملأه شعر كثيف أخفى ملامحه، السواد يُحيط بعينيه، من كُثرة السهر، شعره غير متساو، يبدو أنه قد مشطه على عجل، تلك السيجارة التي تتدلى من بين أصابعه.

دخل بكري، وضع القهوة أمامه ثم انصرف، مد يده ليسحب فنجان القهوة، فمنعه ناصر، سأله هل تناول طعام إفطاره؟ فهز خالد رأسه نافيا، نفخ دخان سيجارته في الهواء، فحوقل ناصر، سحب السيجارة من بين أصابعه، أطفأها في مطفأة السجائر التي أمامه.

.قهوة وسجاير على الصبح.. قبل ما تفطر.. إيه اللي حصل لك يا خالد يا بني؟!

نظر إليه والدُموع تكاد أن تفر من عينيه، حاول أن يتكلم، لكن الكلمات وقفت في حلقه، لقد كره المدرسة، بعدما رحل عنها كل من أحبهم، رحلت مريم إلى الولايات المتحدة، حصلت مروة على إجازة بدون مرتب، انتقل سمير إلى المدرسة الثانوية، ليكون بجوار أسعد وكريم الدهشان، اللذين انتقلا إلى المرحلة الثانوية، حتى عفاف، أصبحت تتغيب كثيرا عن المدرسة، بسبب ظروف ابنتها. لقد شعر بوحدة قاتلة بداخل المدرسة، وكره البيت بعد رحيل أمه عنه إلى الأبد.

.حضرة المدير.. كنت عايز أخد إجازة مفتوحة..

.يا خالد يا بني.. الموت علينا حق.. الست الوالدة رحمة الله عليها.. قابلت رب كريم..

.حضرة المدير.. أنا تعبان.. ممكن تسمح لي أروح..

ربت المدير على يده، نظر في عينيه، التي تمتلئ حزن، قال في شفقة:

.اعمل اللي يريحك يا ابني!

قام المدير من أمامه، وانصرف من الغرفة، وهو يهز جسده في حيرة، بينما دخلت عفاف، سلمت عليه، جلست أمامه، نظر إليها في شفقة، حالها لا يختلف عن حاله، ملامح الحزن تكسو وجهها، لم تعد عفاف النشيطة، التي تتنقل بين الفصول كالفراشة، تُعطي لكل تلميذ جُل اهتمامها، تُفتش بين الطلاب عن الموهوبين، تدفعهم إلى الأمام. لقد تغيرت، تبدل حالها، منذ أن انكسرت ابنتها، ولم تستطع أن تُساعدها في الخروج من تلك المحنة، حتى

تدهورت حالتها، ما زالت حبيسة غرفتها، لا تتحدث مع أحد، ولا تتفاعل مع الأحداث، تسهر طوال الليل، وتنام طوال النهار، ازدادت مخاوفها، فصارت تخشى كل شيء حولها، عرضتها أمها على أكثر من طبيب نفسي، وبدلا من أن تتحسن حالتها، تسوء يوماً بعد يوم، حتى دخلت في حالة من الاكتئاب الحاد.

شعر خالد بالأسف، لقد كانت ليلى إحدى ضحاياه، لو تقدم إلى النيابة بشهادته، ما حدث كل ذلك، لما نجا أبوزيد من تهمة القتل، ولقضى في السجن سنوات طويلة، لما استطاع شراء شقق بناية ليليان، الشقة تلو الأخرى، حتى فارقه كل أحبابه، إن خطأه الذي رآه صغيرا، أضاع تلك البناية الضخمة بمن فيها!

حاولت عفاف أن تُخفف عنه ما يعانيه، أنها سنة الحياة، يُولد أناس ويرحل آخرون، وتستمر الحياة، استحلفته بالله، أن يعود إلى سابق عهده، ذلك الشاب النشيط، الأنيق، الاجتماعي، طلبت منه أن يحلق لحيته، يُهندم ملابسه، فهي تشعر بالأسى، حينما ترى ابنتها في البيت، وتشعر بالجزع، حينما تراه على نفس الحالة في المدرسة، ومن الصعب عليها، أن ترى أحبابها على تلك الحالة.

استأذنته في الانصراف، تركته بمفرده، فألقى برأسه على المكتب، راح في نوم عميق، لم يستيقظ منه، إلا على صوت طرق خفيف على باب مكتبه، وصوت أُنثوي رقيق يُلامس أذنه، رفع رأسه نحوها، نظر بعيونه شبه المُغمضة، فوجد سيدة في العقد الثالث من عمرها، سمراء البشرة، مستديرة الوجه، فارعة الطول ممتلئة الجسد، ترتدي ملابس سوداء، ابتسمت في

وجهه، فانكشف بياض أسنانها المنمقة، مدت يدها وسلمت عليه، فقام مهرولا نحو يدها، قدمت إليه واجب العزاء، فعرف سر ارتدائها، لتلك الملابس السوداء.

طلب منها الجلوس، فجلست ووضعت حقيبتها على المكتب، ضغط على جرس مكتبه، فهرول بكري نحوه، أشار إليه بعمل فنجانين من القهوة السادة، فهز بكري رأسه ثم انصرف. لاحظ خالد أن عيون تلك السيدة ترمقه في إعجاب، ابتسمت وهي تخبره، أنها تشتاق إلى رؤيته منذ سنوات طويلة، لكنها رفضت زيارته، خشية أن تتسبب في مشاكل مع أمه، وتنفيذا لوصية والدها، اتسعت عيونه وأبدى عدم الفهم، سألها عن شخصيتها، فتأملت عيونه، قالت في خجل ممزوج بالسعادة:

.أنا أُختك هيام!

ابتسم وعقد حاجبيه، أطلق ضحكة ساخرة، أخبرها أن هناك حالة من الالتباس، فهو وحيد منذ أن ولدته أمه، ليس لديه إخوة، فأخرجت إليه بطاقتها الشخصية، قرأ الاسم، هيام عبد الحميد وهبه،أخبرها بأنه تشابه أسماء لا أكثر، أو لعلها لُعبة من أحد المحامين، أن تظهر بعد وفاة أمه، بتلك الأوراق المُزيفة، لتُطالب بحقها في الميراث، طلب منها أن تُفتش عن ضحية غيره، فهو لا يمتلك من حُطام الدنيا، سوى شقة عمارة الأباصيري، ذات الإيجار القديم.

شعرت بالحزن على سوء الظن والجحود، الذي رأته من أخيها، في أول مقابلة بينهما، ظنت أنه سيأخذها بين أحضانه، لكن يبدو أنه ورث الجحود، ونكران الجميل عن أمه، أدت كلماتها الجارحة إلى انقلاب مزاجه، أمرها ألا

تتجاوز حدودها، فحملت حقيبتها، علقتها في كتفها، نظرت إليه في شفقة ثم انصرفت، اصطدمت ببكري يدخل حاملا القهوة، رمقها خالد في غضب، ثم عاود إلقاء رأسه فوق المكتب، فاصطدمت رأسه ببطاقتها الشخصية، لقد نسيت أن تأخذها، نادى عليها، لكنها هرولت إلى خارج المدرسة غاضبة. تأمل صورتها بتركيز، لأول مرة يرى، تلك العيون المميزة لوالده، في وجه غير وجه أبيه، الاسم نفس اسم والده، العيون عيون والده، الوظيفة.. محاسبة في بنك الإسكندرية، نفس وظيفة والده، العنوان.. ش حسن العدوي.. الأزاريطة. تذكر خالد ذلك السؤال، الذي ألقته أمه ذات يوم في وجه أبيه.. ممكن أعرف أنت بتروح الأزاريطة لمين؟ يبدو أنها أخته بالفعل، لقد ظل على مدار سنوات حياته، يتهم أمه، بأنها كانت السبب في موت أبيه، وها هي الحقيقة تنجلي، لقد كان والده مزواجا، لم يخب ظن أمه، لقد تزوج امرأة عليها، وأنجب منها تلك الأخت الجذابة.

- ٥٨ -

وقف في الشرفة، وبيده كوبا من الشاي، يتابع بناية ليليان المتشحة بالسواد، كأنها تشاركه أحزانه، على فراق الأحباب، الذين كانوا يقطنون فيها، مقاول الهدم الذي اشتراها، غطى واجهاتها بغطاء أسود، تمهيدا لإزالتها، بعدما حصل على قرار الهدم، من اللجنة العليا للهدم بوزارة الإسكان، رغم أنها غير آيلة للسقوط، وليس بها أية مشاكل معمارية، لقد اشتراها بأرقام فلكية، لكي يقوم بإزالتها، ويبني مكانها فندقا كبيرا، يُحقق من ورائه مكاسب خرافية.

شعور عميق بالوحدة ينتاب خالد، بعدما أُفرغت البناية من سكانها، لماذا رحل الجميع فجأة! وتركوه بمفرده، يئن من الوحدة، حياته التي كانت مُفعمة بالحيوية، باتت رتيبة، يمشي وحده، ويأكل وحده، وينام وحده، فارقه شركاء حياته إلى الأبد. بناية ليليان التي كانت تمنحه، روحا فوق روحه، حياة فوق حياته، أوشكت على الاختفاء من فوق الأرض، أمه التي كانت تملا الدنيا بهجة، رحلت وتركته وحده، حتى مريم تخلت عنه وباعت القضية، رحلت من البناية، من مصر كلها.

كانت القطة تموء بجواره، كأنها تشاركه أحزانه، تبكي على فراق مريم، اقترب منها حملها بين ذراعيه، مسح على جسدها، الذي صار نحيفا، جلس على الكرسي، وضعها في حجره، قربها من وجهه، همس في أذنها، سألها عن مريم، التي تركتهما ورحلت بلا مقدمات.

دُق جرس الباب فترك القطة، اتجه نحو الباب، في تكاسل واضح، فتحه

فوجد أمامه سمير وسهير، فشعر بفرحة ممزوجة بعتاب، فمنذ وفاة أمه، لم يزوراه، أخيرا تذكرا، أن لهما صديقا قديما، اسمه خالد!. قدم إليه سمير عُلبة صغيرة ممتلئة بالحلوى والفول السوداني والحمص والفشار، قال في سعادة ممزوجة بالعتاب:

. خد يا سيدي سبوع دعاء... طالما أنت بطلت تسأل علينا!

شعر بفرحة كبيرة، باركهما على المولود الجديد، دعاهما للدخول، فدخلا إلى الصالة، شعرا بالاشمئزاز من رائحة الرطوبة والعطن، المنبعثة من أرجاء الشقة، نوافذ الشقة مغلقة دائما، لا تدخلها الشمس، رمقت سهير أركان الشقة بعيون الحسرة، الشقة التي كانت تفوح نظافة وجمالا، صارت تفوح رائحة كريهة، التراب يُغطي الأثاث، القمامة والحشرات الزاحفة، تُغطي أرضيتها، الملابس وأكواب الشاي وبقايا السجائر وبقايا الوجبات السريعة، مُلقاة في كل ركن فيها.

شعرت برغبة شديدة في تنظيفها، لكن ذلك يتطلب ساعات كاملة من العمل، لن تستطيع تنظيفها في وجود خالد، لابد أن تُبدل ملابسها، ترتدي جلبابا قديما، من ملابس أم خالد، فأشارت إليهما بجدية، حتى تُجبر خالدا على الموافقة:

. ممكن تهونا بقا لحد ما أنضف الشقة؟

شعر خالد بالحرج، وقف محاولا منعها، لكن سمير أصر، أن تقوم سهير بتنظيف الشقة، لامه كيف يعيش تلك الحياة العشوائية! لماذا يترك لحيته وشعره كالمجاذيب؟ طلب منه أن يخرجا معا، شعر خالد بالأسف، لما آل إليه حاله، خرج مع سمير رغما عنه، تاركا سهيرا بمفردها في الشقة، في محاولة لتنظيفها.

جلسا على كورنيش البحر، سمير يثرثر في أذن خالد، وخالد لا يصل إلى أذنه، سوى صوت موج البحر يضرب الشاطئ، سمير لن يأتي بجديد، فما يقوله، سمعه من مدير المدرسة، ومن عفاف، وسيسمعه من كل شخص، يشعر نحوه بالشفقة، سمير يُفتش له عن عروس، تُعيد تشكيل حياته من جديد، ليرد له جميله، بأن زوجه من سهير، تلك النقية الطاهرة، ضحك خالد وحادث نفسه.. لو تعلم حقيقة سهير يا صديقي، لألقيتني في أعماق هذا البحر السحيق، أتريد أن ترد لي الصفعة، وتُزوجني بعاهرة مثل سهير!

انقضت ساعتان من الثرثرة أمام البحر، حتى رن هاتف سمير، إنها سهير، تُخبره أنها قد انتهت من تنظيف الشقة، تُطالبه بسرعة العودة، أسعد بمفرده مع صغيرتهما دعاء في الشقة.

عاد خالد إلى الشقة، فانشرح قلبه برؤيتها، الشقة تفوح منها روائح زكية، عادت إلى سابق عهدها، مُرتبة ونظيفة، تماما مثلما كانت أمه تعيش فيها، لا ينقصها سوى وجود أمه، أحس برائحة أمه، تفوح في أرجاء الشقة، هرول إلى المطبخ.. الصالة.. الحمام.. الشرفة.. فتح برفق غرفة نومها، فوجد فراشها باردا بدونها، فتش عنها بين جدران الشقة..فتش عن صوتها..رائحتها.. أنفاسها.. ضحكتها..، لكنه عاد أدراجه في حزن، لقد رحلت أمه بلا رجعة، ألقى بجسده على أقرب كرسي، وبكي بمرارة!

-٥٩-

استيقظ من نومه مذعورا، على صوت جلبة في الشارع، أصوات معاول ثقيلة، تضرب بلا رحمة، صوت عربات نقل ثقيلة، تتحرك في الشارع طولا وعرضا، تطلع بعيونه التي يملؤها النعاس، من نافذة الغرفة، فوجد الشارع عبارة عن خلية نحل لا تهدأ، العمال يهدمون بناية ليليان، العربات تنقل الرُكام بعيدا عن المنطقة.

شعر بالرعب وعدم التصديق، بناية ليليان عارية بلا نوافذ ولا أبواب، تتساقط واجهاتها العتيقة وشرفاتها المنقوشة، مع ضربات المعاول، كأوراق الشجر في ليلة خريفية، العمال يضربون جدرانها بقسوة، كأن بينهما ثأرا قديما.

بناية ليليان، التي كانت تعج بالأرواح والأجساد والعيون والأفواه، صارت خاوية،.. فارغة.. عارية.. مُتهالكة. بدأت معاول الهدم بشقة مريم، فتهاوت شرفتها وجدرانها.. أين أنت يا مريم؟ لماذا بعت القضية؟ لماذا هربت وتركتِ قلبي وحيدا، وسط الأمواج العاتية؟ لم يكن وحده من يتابع أعمال الهدم، كانت عيون الحسرة، تطل من شرفات البنايات المجاورة.

لمح سيارة سوداء فاحمة تقف أمام بناية الأباصيري، ويطل منها رجل نحيل الجسد، تبدو عليه الملامح الأوربية، بوجهه الأبيض المشبع بحمرة، وعيونه الواسعة الملونة، وشعره الذهبي القصير! سلومون شاؤل ديمتري، حفيد الخواجة ديمتري، صاحب حانة ديمتري التي تحولت إلى مقهى الرشيدي، الذي هاجر بعد العدوان الثلاثي، أراد الخواجة ديمتري الهجرة إلى أرض

الميعاد، لكن ابنه شاؤل قرر الهجرة إلى الولايات المتحدة، أرض المستقبل، عاش سلومون يتذكر حكايات جده عن الإسكندرية، عن الحانة التي قضى فيها أجمل أيام حياته، وما أن أُتيحت له الفرصة، حتى قرر أن يشتري بناية ليليان، ليهدمها ويبني على أنقاضها، فندق سياحي يطلق عليه (ديمتري بالاس)، كان يقف بجواره أبوزيد وجابر عثمان وهريدي، يتابعون أعمال الهدم، والابتسامات البلهاء تطل من وجوههم، التي يملؤها الجشع والجهل، لا يُدركون خُطورة الجريمة، التي يرتكبونها بحق التراث الإنساني، تلك البناية التاريخية، تُغتصب على أيدي البشوات الجُدد.

لم يستطع خالد تحمل مشهد اغتصاب البناية، شعر برغبة شديدة في غسل جسده، فدلف إلى الحمام، خلع ملابسه، حتى صار عاريا، وقف تحت الدُش، غسل جسده ورأسه، ولحيته التي تركها بلا إرادة منه.. تساءل في نفسه.. لماذا تركت أبوزيد ينجو بفعلته؟ لو ارتديت ثوب الشجاعة، وقفت بجوار ليلى، اعترفت بما رأيته، لكان أبوزيد الآن، قابعا خلف القضبان، لما تجرأ على اغتصاب البناية، بكل تلك القسوة، تبا لك يا خالد!

بدل ملابسه على عجل، هبط إلى الشارع، يرمق البناية في حسرة، الكشك الوحيد على الناصية، يُغلق أبوابه، الريح تدحرج العلب الفارغة، القطط تعبث في قمامة الشارع، انحدر به الطريق نحو البحر، غسلت وجهه نسمة هواء باردة، وقف أمام البحر الهائج، يشكو إليه ضعفه وقلة حيلته، سار بمحاذاة البحر بشارع طريق الجيش، ينهب الطريق نهبا، كأن عدوا يطارده، لم يشعر إلا وقدماه تقودانه إلى الأزاريطة، بلغ أول تقاطع طرق، علا نفير السيارات، وهو يعبر الرصيف إلى الناحية الأخرى، فجأة سمع صوت احتكاك

كاوتش عجلات سيارة بالإسفلت، وانطلقت الشتائم، سمع صوتا يصيح من داخل السيارة:

. ما تفَتح يا مجنون!

تلقف الشتيمة في خجل، من نظرات المارة، الذين التفتوا بعيونهم نحوه في شفقة، هل حقا صار مجنونا! هيئته صارت كهيئة المجانين حقا، لكنه لم يصل إلى مرحلة الجنون بعد، فالمجنون من فقد عقله، لكنه فقد قلبه وروحه القديمة.

وصل إلى الجانب الآخر، يتأمل المحلات التي بدأت تفتح أبوابها، وجد نفسه في مواجهة، مطعم فول وفلافل، مكتوب على واجهته (مطعم عم زغلول) رائحة الفلافل أثارت شهيته للطعام، شعر بالجوع يضرب معدته، دخل المطعم الممتلئ عن آخره بالرواد، أقبل عليه عم زغلول، بوجهه الممتلئ ولحيته الكثيفة، طلب منه وجبة إفطار خفيفة، تناولها على عجل، وسط زحام المطعم في الداخل، والأصوات المنبعثة من الخارج.

خرج من المطعم، فاصطدمت عيونه بمقهى، ينبعث منه صوت الشيخ محمد رفعت، جلس على أقرب كرسي، طلب من النادل كوبا من الشاي، وشيشة بنكهة التفاح، تناول الشاي على مهل، دخن الشيشة بشبق، نفخ نيران غضبه مع دخانها الأزرق، نظر في ساعته، فاكتشف أن الوقت لا يزال مبكرا، الساعة تخطت السابعة صباحا بعشر دقائق، نقد النادل الحساب ثم غادر المقهى.

عاود السير باتجاه الشاطبي، متأملا المحلات التجارية، وقف أمام أحد أكشاك الجرائد، تصفح عناوين الأخبار، لمحت عيونه رواية، لفت اسمها

انتباهه (عشق برائحة الموت)، سحبها من فوق الرف، لمح اسم المؤلف، فشعر بالفخر، إنها الرواية الثانية، لتلميذه كريم الدهشان، لقد استطاع خالد، أن يصنع شيئا مفيدا في حياته، شعر بالنشوة تجتاحه، ما أجمل أن نكون سببا في نجاح الآخرين! وما أسوأ أن نضيع الآخرين، ولو بدون قصد!. اشترى الرواية، واشترى معها عُلبة سجائر، تلك العادة التي تعلمها على كبر، ما أن فتح صفحات الرواية، حتى تملكته سعادة غامرة، حينما اصطدمت عيناه بالإهداء (.. إلى الداعم الأول والمشجع الأول.. أستاذي خالد عبد الحميد.. مع خالص حبي وتقديري..)

سار بمحاذاة المحال التجارية، يتصفح الرواية في سعادة، حتى وصل إلى المدرسة، فوجد أبوابها لا تزال مُغلقة، مرت عدة دقائق، حتى بدأ العمال يتوافدون، فتحوا باب المدرسة، فهرول إلى ملعب المدرسة، سحب كرسيا، جلس يتلمس الدفء، من حرارة الشمس الشتوية، التي بدأت تُلقي أشعتها في الملعب، أخرج عُلبة سجائره، أشعل واحدة، شرع يتصفح الرواية، التي جذبت انتباهه بشدة، لقد تطور مستوى كريم بطريقة غير عادية. (..وقف خلف النافذة، يتطلع إليها في حسرة، تلك البيضاء ذات الوجه المشرب بحمرة، الواقفة على الرصيف أسفل المنزل، رغم البرودة الشديدة، شعر برزاز المطر، يتطاير بداخل غرفته، فأغلق النافذة في حسرة، هرول إلى مكتبه، فاصطدمت عيناه، بإحدى الروايات الرومانسية، قلب صفحاتها بملل واضح، اشتم رائحتها، بقايا آثارها على صفحات الرواية، احتضن الرواية بنشوة، ألقى برأسه على المكتب، راح في نوم عميق، يسترجع ذكرياته معها، منذ أن التقى بها أول مرة، حينما كان تلميذا في المدرسة الثانوية...) بدأ المدرسون

والطلاب، يتوافدون على المدرسة، حتى ظهر ناصر مدير المدرسة، يرتدي بذلة سوداء، ورابطة عنق سوداء، اقترب من خالد، وعلى وجهه ارتسمت علامات الجزع، ربت على كتفه، قال في حزن

. أنت عرفت يا خالد؟.. كويس إنك جيت بدري..عشان نروح سوا

نظر إليه مندهشا، سأله في تعجب، عرفت ماذا؟ إلى أين سنذهب؟ فأخبره أن عفاف، قد اتصلت به بعد صلاة الفجر، أخبرته أن ابنتها ليلى، قد توفاها الله فجر اليوم، ومراسم الجنازة بعد صلاة الظهر من مسجد الشاطبي.

شعر بالصدمة، شعر أن الأرض تدور برأسه، سقط على الكرسي، سقطت الرواية منه على الأرض، دفن وجهه بين يديه، أجهش بالبكاء، كأنه طفل صغير، شرع يحدث نفسه.. ذنب ليلى في رقبتك يا خالد، أنت من قتلتها، ماذا جنيت من التلصص على الناس؟ أظننت نفسك مصلحا اجتماعيا! لماذا لم تصلح ما أفسده أبوزيد؟ الذي قتل شوقي مدكور، قتل ليلى، اغتصب البناية، ماذا فعلت أيها المصلح الاجتماعي؟ أنت السبب الأول في هدم بناية ليليان، لأنك تركت سرطان الفساد، ينمو ويترعرع، حتى طال كل شيء!.

صلوا عليها صلاة الجنازة، وضعوا جسدها الطاهر، في سيارة تكريم الإنسان، ساروا خلفها جماعات حتى مقابر الشاطبي، وصلوا إلى مقبرة عائلة عفاف، وضعوا جسدها بداخل القبر، وقف المشيعون أمام باب القبر، يتوسطهم أخوها حسام، يدعون لها بالرحمة والمغفرة، التثبيت عند سؤال الملكين، وأصوات البكاء والنحيب، تنبعث من تجمع النساء، اللواتي يتشحن بالسواد، تطل من وسطهن عفاف، بوجهها الأبيض المُشبع بحمرة، عيونها التي تهطل بلا توقف، يديها التي تلطم خديها حزنا وحسرة، على فراق ابنتها.

بعدما انتهوا من الدعاء، بدأ المُشيعون في الانصراف، لكن خالد ظل واقفا، رغم محاولة ناصر سحبه من ذراعه، ترجاه خالد أن يتركه، فتركه رغما عنه، انصرف خلف المشيعين.

جلس خالد على باب قبرها، طلب منها أن تسامحه، على ضعفه وقلة حيلته، بل على جبنه، إن ما رأته هو عين الحقيقة، إنها الصادقة البريئة، كلهم كاذبون مخادعون، لم يفق إلا على يد تربت على كتفه، التفت إليه، فإذا به رجل عجوز تخطي السبعين، عيونه واسعة مُكحلة، وجهه أبيض نحيف، يرتدي جلبابا أزرق، وعمة خضراء كبيرة تعلو رأسه، ابتسم في وجهه، قال بصوت مُشبع بالتقوى:

. هُون عليك يا ولدي.. راحت عند اللي أحسن مني ومنك.. ربنا يرزقنا حسن الختام..

أمسك بيد الرجل وقبلها، ثم تركه وهام على وجهه، وسط شواهد القبور، حتى وصل إلى مقبرة عائلته، التي تحوي رفات أبيه وأمه، قرأ لهما الفاتحة، دعا لهما، بكى بشدة على فراقهما، ثم انصرف عائدا إلى الشقة.

- ٦٠ -

عاد خالد إلى شقته في غاية الضيق والحزن، ألقى بجسده على سريره، فتلبسه الذعر، حينما اصطدم جسده، بجسد القطة النائمة في فراشه، تلتمس الدفء من برد الشتاء، فأمسكها من جسدها النحيف بغضب عارم، أطاح بها بعيدا، فاصطدم جسدها النحيل بالحائط، فأطلقت صرخة شقت صمت الليل، هرولت مذعورة إلى خارج الغرفة، شعر بالذنب ينهش قلبه، يُؤنب ضميره، حادث نفسه.. وما ذنب تلك القطة المسكينة! إنها آخر ما تبقى من مريم!

هرول خلفها، فوجدها تفتش في القمامة المنتشرة في أرجاء الشقة عن طعام يسد جوعها، هرول إلى المطبخ الخاوي، فتح باب الثلاجة، فوجدها مظلمة، رائحتها كريهة، ضرب مصباحها بيده، فأنار الثلاجة بإضاءة متقطعة، فوجدها خاوية على عروشها، فتح دُرجها بعصبية، فوجد علبة سلمون مفتوحة، أخذها ووضعها أمام القطة، فشرعت تلعق ما بداخلها بلسانها حتى شبعت، استردت بعض عافيتها، بعدما كاد الجوع أن يقتلها، لقد صارت هزيلة وضعيفة، بعدما كانت سمينة وقوية!

عاد إلى غرفته، استسلم لنوم عميق، لا يقوم من فراشه، إلا لدخول دورة المياه، امتنع عن الطعام، لكنه حرص على تقديم الطعام إلى القطة، حتى لا تهلك جوعا، ويتعلق ذنبها في رقبته، قضي أياما لا يكلم أحدا، ولا يأكل ولا يشرب، كأنه قرر أن يموت، انعزل بداخل الشقة، لا يفتح بابها لأحد، لا يرد على الهاتف النقال، تمنى أن تختفي الإضاءة طوال الوقت، فهذا يضفي على

الشقة، جو الكآبة الذي يرجوه! لم يدر كم الأيام التي مرت، وهو على تلك الحالة! شعر أن روحه هاربة منه، صار جسدا باليا بلا روح.

لمح وجهه ذات يوم في المرآة، فلم يعرفه، صار شاحبا ممتلئا بالشعر، أسنانه باتت صفراء، من فرط تناول السجائر، عيناه غائرتان يحيط بهما السواد، شعر بالذعر من ذلك الشخص الغريب، الذي تلبس روحه، رغم أنه صار كهلا في الأربعينيات من عمره، غير أنه يبدو من تجاعيد قلبه، كأنما عبر الستين، ألقى جسده بقسوة، فالتحم في السرير من جديد، لقد صار وحيدا تماما، ولئن هلك جوعا، فلن يعرف أحد بذلك، حتى يشم الجيران، رائحة عفن خارجة من شقته، فيقوموا بإبلاغ الشرطة، ليهشموا باب الشقة، ويخرجوا جثته المتآكلة.

ذات نهار، كان المطر يهطل بغزارة، ارتفع رنينه فوق حافة الشرفة، وثمة أصوات تقتحم الصمت خارج الشقة، مواء القطة يرن في أذنه، جرس الباب يدق بتواصل، لم يُحرك ساكنا، فليس لديه الرغبة في مغادرة الفراش، أو القيام من تحت الغطاء الثقيل، الذي يُدفئ جسده، ليس لديه رغبة في مقابلة أحد، شعر بأيادٍ وأرجل، تضرب الباب بعنف، أصوات مختلطة أمام الباب، سمع صوت صابر بواب البناية يصرخ فيهم، أن يكسروا الباب، أن يطلبوا الشرطة والإسعاف، أن ينقذوا الرجل قبل أن يَهلك!

فتح عيونه بصعوبة، الظلمة تجتاح الغرفة، شعاعا من الضوء، يُحاول أن ينفذ من شيش النافذة، أغمض عينيه مرة أخرى، من شدة الصداع، الذي يضرب رأسه بلا رحمة، حاول أن يتحرك، قبل أن يكسروا الباب، لكن جسده الواهن، ليس لديه القدرة أن يُحرك ساكنا، روحه المنكسرة، ليس لديها

الرغبة في فعل أي شيء، لقد استسلم للموت بجدارة، جسده صار هزيلا، لم يُعد ذلك الجسد الجامد، كما مدحته عواطف ذات مساء، وهي تئن تحته من شدة النشوة.

لم يشعر إلا بمحاولات على الباب لكسره، وبعد محاولات عديدة، كُسر الباب، شاهد بعيونه الواهنة، جموعا من الجيران تقتحم غرفته، يتقدمهم سمير وسهير وأسعد، اقترب منه سمير، هز جسده النحيف كخرقة بالية، مد يده محاولا فتح عيونه الواهنة، وضع يده على قلبه الذي استسلم للموت في محاولة للتأكد، أن النبض ما زال يرتعش، أنه ما زال على قيد الحياة، تأفف صابر والجيران من رائحة الشقة الكريهة، القمامة وروث القطة، المنتشر في أرجائها، بقايا الوجبات السريعة، أعقاب السجائر، الحشرات التي تزحف على الأرض والحوائط، ترحموا على أم خالد، التي كانت كُتلة من النشاط، لا تهدأ ولا تمل، تنبعث من شقتها دائما الروائح الطيبة، بالإضافة إلى رائحة البخور والقهوة.

مرت دقائق من الأصوات المُختلطة، حتى سُمع صوت سيارة الإسعاف، يخترق شيش النافذة، دخل ثلاث رجال أشداء، يرتدون ملابس بيضاء، حملوه، نزلوا به إلى سيارة الإسعاف، خرج الجيران من الشقة، بينما بقيت سهير، لتُعيد ترتيب الشقة، تعد له طعاما، ريثما يخرج من المستشفى، بينما هرول سمير وأسعد بسيارتهما خلف سيارة الإسعاف.

أدخلوه غرفة الاستقبال، تم توقيع الكشف الطبي عليه، تشخيص حالته، إنه يعاني من أنيميا حادة، يحتاج إلى عملية نقل دم، أدخلوه العناية المركزة، تمت عملية نقل الدم والرعاية اللازمة، قضي خالد عدة أيام بداخل المستشفى،

حتى تحسنت حالته، لم يتركه خلالها سمير، لازمه طوال فترة العلاج، حتى عاد إلى شقته، على مدار الأيام التالية، كانت الشقة تمتلئ وتفرُغ بالضيوف، من زملاء المدرسة، والجيران والتلاميذ القدامى، حاولوا أن يخففوا عنه أحزانه، بأن الموت كأس، وكل الناس شاربه، لكنهم لا يدركون ما يشعر به، لقد أسرف في الكتمان، حتى ظن الآخرين أنه لا يتألم، شعر أنه قد مات قبل أن يعيش، ماتت روحه القديمة، رغم محاولاته لاستعادتها بلا جدوى، لقد افتقدها إلى الأبد.

- ٦١ -

عاد خالد من المدرسة، فوجد سهيرا بداخل الشقة، ترتدي عباءة حمراء ضيقة، مشمرة ذراعيها وساقيها البيضاء الممتلئة، تُنظف الأثاث، تمسح الأرضية، تفوح من المطبخ رائحة الطعام الشهية، ما أن رأته أمامها، حتى شعرت بالخجل، فجمعت خيوط شعرها المتباعدة في فوضى، فبدا وجهها الأبيض المستدير كأنه القمر، اعتذر إليها لعودته مبكرا، لم يكن يعلم بوجودها في الشقة، نظرت إلى ساعة الحائط، فاكتشفت إنها قد تأخرت، على صغيرتها دعاء، ولابد أن تنصرف، بينما هما واقفان، حتى دُق جرس الباب، شعر خالد بالارتباك، بينما عدلت سهير من ملابسها، هرولت نحو الباب وفتحته، فوجدت أمامها أم عبير جارة خالد، إحدى عضوات مجلس النميمة القدامى، وقفت بجسدها الممتلئ القصير، وعيونها الضيقة، وأنفها الكبير، نظرت إلى سهير بسخرية، أطلقت ضحكة باهتة، بينما وقف خالد أمامها متعجبا، سألها عن حاجتها، فقالت بسخرية:

. ألاقي عندك بصلتين.. أصلي بطبخ كوسة.. والبصل اللي عندي عطن.. وريحته فاحت

اشتم من طريقة كلامها، أنها تقصد بتلك الكلمات، وجود سهير في شقته، فمسح على شعره بغيظ، نفخ في الهواء، أخبرها أن هناك محلا لبيع الخضروات أسفل البناية، لديه بصلا جيدا إن أرادت، أو لتنادي على صابر البواب، ليشتري لها ما تشاء، شكرته على النصيحة، ونظرت إلى سهير، وقالت بنبرة سخرية:

. أزيك يا أم أسعد.. وازي أسعد.. وجوزك أستاذ... موش اسمه قرني برضوا!

شعرت سهير بالمهانة، من كلمات تلك العاهرة القبيحة، فردت بهدوء من تخشى الفضيحة:

. اسمه سمير يا أم عبير.. وازي عبير بنتك عامله إيه؟

. عبير.. اسم النبي حارسها مخلصة كلية آداب.. وأنتي موش آداب برضوا..

شعر خالد بأن صبره قد نفد، وأن تلك السيدة القبيحة،لا تريد خيرا، فأشاح بيده..صرخ فيها:

. وأنتي مال أهلك!

فصرخت أم عبير في وجهه، نادت على الجيران، أن ينقذوها من خالد، الذي يُريد أن يتهجم عليها، فهبطت ابنتها عبير، فتاة متوسطة الطول، بيضاء البشرة، يبدو من ملامحها الطيبة والهدوء، سحبت أمها من يدها، طلبت منها الصعود إلى شقتهما، لكن أمها أزاحتها بيدها، فقالت عبير في غضب:

. يلا يا أمي.. بلاش فضايح أبوس أيدك!

فصرخت في وجه ابنتها، فخرج باقي أعضاء مجلس النميمة، يهمزون.. ويلمزون.. ويمصون شفاههم، يطلقون الضحكات الساخرة، يرمقون سهير وخالد بعيون خبيثة، كأنهن قبضن عليهما بفعل فاضح، شرعن يترحمن على أم خالد، شعرت سهير بالرعب، وشعر خالد بالحيرة، لم يُنقذ الموقف، غير صعود صابر بواب البناية، الذي صرخ فيهن بصوته القوي، طلب منهن أن يعدن إلى شققهن، وأن الأستاذ خالد مثال الأدب والاحترام، وعلى كل سيدة في البناية، أن تلتزم حدود اللياقة والأدب، حتى لا يتفوه بكلام لا يليق، سيندمن عليه أشد الندم، فانسحبت كل سيدة إلى شقتها في صمت، بينما سحبت

عبير أمها نحو سلم الصعود، التفتت نحو خالد، أبدت اعتذارها ثم انصرفت.
التفت خالد نحو صابر وشكره على صنيعه.
. ولا يهمك يا بيه.. الأشكال ديه أنا عارفها كويس.. عشرين سنة عشرة..
شعرت سهير بالذعر مما حدث، بينما شعر خالد بالحرج، كان هذا الموقف كفيلا، بأن يطلب خالد من سهير، التوقف عن الحضور إلى شقته، أخبرها أنه طلب من عم صابر، أن يجد له خادمة، تقوم بأعمال النظافة، فغضبت كثيرا، أبلغت سمير فأبدى غضبه من صديقه، فسهير ليست غريبة عنه، إنها أخته وهديته التي أهداها إليه، ما زال يحفظ جميله، الذي يطوق به عنقه، بمساعدته في الزواج من سهير، لكن خالد اقسم عليهما بالله، أن يتركاه يتصرف كيفما يشاء، فهو يشعر بالحرج، أن تتحول سهير إلى خادمة في بيته، إنها أخته وزوجة أخيه، ويكفي ما فعلته، أثناء مرضه.
لم يتفق خالد مع عم صابر، أن يجد له خادمة، تقوم بأعمال النظافة، ولا يُفكر في تنظيف الشقة، لكنه شعر بالحرج، من تكرار ما حدث مع سهير، خشي عليها من نظرات الجيران، الرواد القدامى لمجلس النميمة، الذين لن يرحموها، بأي حال من الأحوال، سوف يُؤلفون القصص والحكايات، فسهير امرأة تمتلك من الفتنة، ما يُجبر شاب مثل خالد، على التفكير فيها، رغم أن خالد كره الدنيا وملذاتها، منذ أن رحل عنه الجميع.
التزمت سهير بتعليمات خالد، امتنعت عن الحضور، وعادت الشقة، ترتع فيها الحشرات والقمامة والأتربة من جديد، حتى اعتاد خالد على ذلك الوضع، فروحه الجديدة، لم تعد تُقبل على الدنيا، تحولت إلى عداد، يُحصي الأيام المتبقية من عمره، ينتظر النهاية بفارغ صبر.

-٦٢-

استيقظ خالد على صوت جرس الباب، كان صابر بواب البناية، قد أحضر بعض الأطعمة المُعلبة، فالثلاجة خاوية، ولم ينس البن وعلبة السجائر، وحليب لتلك القطة الهزيلة، التي كادت أن تهلك جوعا، أعطاه صابر كيس الطعام، ونقده الباقي، فابتسم خالد خجلا، وطلب منه أن يحتفظ بالباقي لنفسه. تحرك عم صابر مبتسما، هبط عدة درجات، ثم التفت فجأة، وكأنه قد تذكر شيئا، هرول نحو خالد، قال قبل أن يُغلق خالد الباب في وجهه:

.خالد بيه.. الراجل اللي عما يوزع التلغرافات..جاب لحضرتك التلغراف ديه

انقبض قلب خالد، نظر إلى التلغراف في تشاؤم واضح، فلم يعتد أن يصل إليه تلغرافاً، إلا في المناسبات الحزينة، مصحوباً بعبارة « نشاطركم الأحزان «، نظر إلى الكلام المُسطر على ورقة التلغراف، فانفرجت أساريره، ابتسم في وجه صابر، أعطاه ورقة مالية، نظر إليها صابر فرحا ثم انصرف.

ردد خالد العبارة المكتوبة في التلغراف بصوت عال، وهو يغلق الباب، بفرحة من وجد ضالته، بعد أن فقد الأمل في عودتها.. سأصل غدا في قطار الثانية ظهرا.. انتظرني على رصيف المحطة.. علياء.

لم يُصدق عينيه..علياء ابنة عمه، ستعود غدا، أعادت تلك الكلمات إليه روحه التي افتقدها منذ زمن بعيد، ألحت عليه الذكريات بشدة، هرول نحو غرفته، فتح خزانة ملابسه، أخرج من قاعها، صُندوقا خشبيا متوسط الحجم، جلس على السرير وفتح الصندوق، فوقعت عيناه، على كم هائل من الخطابات، ذات ألوان متنوعة، فتح أول خطاب صادفه، فإذا به أخر

رسالة وصلت منها، قبل إعلان زواجها بأيام قليلة، والذي أعلنت فيه رفضها الارتباط به، كان مبررها أنها لن تستطيع العيش بعيدا عن القاهرة، حيث أسرتها وأصدقاءها وحياتها وعملها، كما أعطته مبرراً، أجبره على قبول رحليها بهدوء، فهي لا تريد أن تعيش في شقة، يوجد بها سيدة غيرها، حتى ولو كانت زوجة عمها!

لكنه فهم الحقيقة، فمنذ وفاة والده، امتنع عمه شهاب عن زيارتهم، بعدما اتهم أم خالد، أنها السبب في موت أخيه، بمجرد أن وجد الفرصة، للرحيل عن الإسكندرية، حتى تركها ورحل، حادث خالد نفسه.. ليس ذنبي أن يأخذني الحنين إليك، لكن ذنبي حين أدخلتك عالمي، فاستوليت على نبض قلبي!.

لم يستطع استرجاع ذكريات باقي الخطابات، فلقد أبطلت رسالتها الأخيرة، كل السحر المسطر فيها، ألقى بالخطاب في قاع الصندوق، لمح في ركن الصندوق، زهرة جافة حال لونها، تلك الزهرة التي أهدتها إليه، في أحد أعياد الربيع، فركها بين أصابعه، فتحولت إلى بقايا زهرة، تناثرت فوق صورتها، التقط الصورة، نفض عنها غبار الأيام، وقلبه ينبض بشدة، تأمل عيونها البنية الواسعة، خدودها الوردية، شعرها المسترسل الطويل، عاتبها على فراقها، الذي أودى بحياته، بكى حتى ابتلت صورتها، قرب صورتها من فمه، همس في أذنها، بأنه ما زال يعشقها، لن يكفيه أن ينساها، بل يجب أن ينسى أنه نسيها.

لقد أفقده رحيلها، كل أمل له في الحياة، لم يجد من يحتل مكانها في قلبه، لقد تزوجها في خياله، وعلى جدران غرفته، وفي ذاكرته المُفعمة، بكل لحظة قضاها معها، في صُندوق الذكريات، المُفعم عن أخره بالخطابات المُلونة، الصور القديمة، الهدايا التي كانت تهديها إليه، مع كل زيارة صيفية، لكنها

رحلت بلا وداع، صارت ماضيا، لا يملك إلا أن يترحم على ذكرياته!
لم يُصدق عقله أنه سيلتقي بعلياء غداً، تمنى أن تكون عودة بلا رجعة.. أن يكون قد دب الخلاف بينها وبين زوجها، واتفقا على الانفصال، لتعود علياء إلى أحضانه، لكنه سأل نفسه..هل أقبل أن أرتبط بمطلقة؟ صرخ في عقله.. نعم أقبل.. فهذه علياء يا أبله.. وهل في هذا الكون مثلها؟ قد تكون لعبة القدر، أن أظل بلا زواج، حتى تأتي علياء، لتكتمل قصة الحب القديمة، وتخط بيديها أخر سطور حياتي معها..
التفت حوله في ذعر، حينما اكتشف أن الشقة، قد صارت مزبلة كبيرة، كيف سيستقبل علياء، وسط تلك القذارة! لابد من تنظيف الشقة في أسرع وقت، هل يُرسل إلى سهير، لتأتي وتنظفها؟ لكنها امتنعت عن الحضور، منذ تلك الفضيحة، التي حاول جيران السوء صُنعها، دار حول نفسه، يُفتش عن حل، فتذكر صابر البواب!
هرول إلى أسفل البناية، فوجده جالساً على الدكة الخشبية، بجوار مدخل البناية، ينفخ دخان الشيشة حالماً، وبجواره مذياع، يصدر منه صوت أم كلثوم.. أغدا ألقاك.. يا خوف فؤادي من غدي.. يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعدِ!. جلس بجواره، سحب من يده لي الشيشة، سحب نفسا عميقا، أطلق دخانه في الهواء، فضحك عم صابر، قال مستفسراً:
. إيه نزلك يا ولدي في البرد ديه.. نسيت حاجة أجبها لك؟
. بصراحة يا عم صابر.. بكره عندي ضيوف من مصر.. والشقة زي ما أنت عارف مزبلة.. محتاجك تشوفلي حد ينضفها.. ويأخذ اللي هو عايزه..
. إياك التلغراف اللي جالك من مصر! أول مرة أشوفك فرحان.. من زمن يا ولدي! بس الوقت متأخر.. تلاقي مين دلوقت ينضفها.. يا صابر!

.فكر يا عم صابر.. موش عايز إحراج مع ضيوفي..

سرح قليلا، ثم نادى بأعلى صوته، ناحية غرفته، التي ينام بداخلها:

.سعدية.. أنتي يا بت يا سعدية..

خرجت فتاة في العقد الثاني من عمرها، ترتدي جلبابا أسود فضفافا، تلف رأسها ووجهها بشال أسود، أظهر بياض وجهها المكتنز، عيونها السوداء الواسعة المُكحلة، شفتيها المُكتنزتين، لمحت خالد جالسا بجوار صابر، فطأطأت رأسها نحو الأرض، قالت في خجل:

.نعمين يا سي صابر؟

.قربي أهني يا بت.. تطلعي شقة خالد بيه.. تنضفيها.. عايزها تبرق..

ثم التفت نحو خالد،طلب منه أن يُعطيها مفتاح الشقة، فأعطاها إياه، فهرولت نحو السلم، تاركة خالد وصابر يستكملان حديثهما، التفت نحو صابر وسأله:

.بنتك دي يا عم صابر؟

ضحك صابر، بوجهه الأسمر المُمتلئ، فانفرجت شفتاه عن فم واسع، وأسنان صفراء، ثم قال في تأثر:

.ربنا ما أنعمش عليا بنعمة الخلف... الحُرمة دي مرتي التالتة.. يا خالد بيه..

اندهش خالد، ضحك في سخرية، شعر صابر بالحرج، قال في نغمة وعظ!

.عندينا في الصعيد.. الراجل ما يقدرش يعيش من غير حُرمة.. تخدمه وترعى حاله.. وتحميه من الحرام

.بس تلاتة كتير.. يا عم صابر!

.ربنا ما أنعمش عليا بنعمة الخلف صُوح.. لكن أنعم عليا بنعمة الإهلاك.. مُهلك حريم.. مش بتعيش ليا حُرمة واصل.. مفيش على ذمتي غيرها.. إلا

قولي يا ولدي..أنت مش ناوي تتجوز بقا!

. ما خلاص يا عم صابر.. أنا عديت الأربعين من زمن..

ضحك وهو يسوي نار الشيشة، ويُعطي لخالد لي الشيشة، فأخذه نحو فمه

. جدي عثمان الكبير رحمة الله عليه.. بعد ما ماتت مرته التالتة..أتجوز وهو عنديه يجي سبعين سنة.. وخلف ست ولآد وأربع بنات.. ومات بعد ما عدى الميت سنة وزيادة كمون.. وأنت عما تقولي أربعين!

. قولي يا عم صابر.. هو جابر عثمان يقرب لك؟

. ابن عمي.. بس ولد حرام بعيد عنك..أني اللي جبته من الصعيد.. اشتغل بواب في عمارة ليليان.. وبعديها مشي في سكة الحرام.. يسافر البلد يشتري الآثار من أهل البلد بجنيهات.. ويجي يبيعها أهني بملايين.. أنت مش بتقول إن عنديك ضيوف من مصر.. ما تروح تحلق شعرك وذقنك.. وتروق حالك.. ولا ناوي تقابل ضيوفك أكديه!

مسح خالد على رأسه، فاكتشف أن شعره، قد تحول إلى كُتلة من الليف، فهز رأسه في أسى، ترك صابر، وهرع نحو أقرب صالون حلاقة.

ما أن جلس خالد على كرسي الحلاقة، وواجه المرآة الكبيرة، حتى أصابه الذهول، لم يعرف نفسه، الشحوب والشعر الكثيف، تملك ملامح وجهه ورأسه، طلب من الحلاق، إزالة شعر ذقنه وشاربه، وتقصير شعر رأسه. انتهى من الحلاقة وعاد إلى البناية، لم يجد صابرا جالسا في مكانه، فهرع إلى شقته، وجد بابها مفتوحا، دخل مندهشا حينما شعر بأن ملامح الشقة، قد تغيرت بالكلية، تفوح نظافة وأناقة، خرجت عليه سعدية، ما أن رأته حتى اتسعت عيناها، قالت في إعجاب ممزوج بالدهشة:

. أنت بقيت حلو قوي يا بيه!

ابتسم بعدما شعر بالخجل، أخبرته أنها ستعُد له حماما دافئا، يُزيل بقايا الشعر عن جسده، فشعر بالخجل، لكنه هز رأسه بالموافقة، ثم هرول إلى المطبخ، فتح باب الثلاجة فوجدها نظيفة، لكنها خاوية، اقتربت منه القطة، تموء في سعادة، لقد اعتنت بها سعدية، وغسلتها بالماء والصابون، فبدت نظيفة وجميلة. دخلت عليه سعدية، أخبرته أن الحمام صار جاهزا، فأخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة، وضعها في يدها، فشعرت بالسعادة، ثم أخرج عدة ورقات مالية أخرى، طلب منها، أن تشتري طعاما من السوق، يكفي لإقامة مأدبة كبيرة، لضيوف الغد، فأخذتها وقالت في سعادة:

. من عيوني يا بيه.

أخذ حماما دافئا، التحم في سريره، يُفكر في ملامح مقابلة الغد مع علياء، حتى راح في نوم عميق.

في تمام الثانية ظهرا، وقف على رصيف القطار، يُفتش عن حبه القديم، وقف يتساءل.. هل تغيرت ملامحها؟ هل مازالت متأنقة في ملابسها؟ مهتمة بقدها الممشوق؟ أما زالت تختار الألوان المبهجة؟ أما زالت ترتدي العقود والخواتم الغريبة الأشكال؟ هل ما زالت تتذكر ملامحه؟ هل ما زالت تتذكره؟

سمع صوت القطار، يدق على باب قلبه، ليفتح لعلياء حبيبة عمره، فاستجاب لنداء القطار، وقف مثل شجرة جافة، تنتظر هطول المطر، لتروي أغصانها.

وصل القطار على الرصيف، وقف خالد يُفتش عنها بين مئات البشر، حتى رآها تتهادى من بعيد، نسمة دافئة في ليلة شتوية باردة، مازالت رشيقة وجميلة وأنيقة، كما تركها منذ سنوات طويلة، خفق قلبه وهرول نحوها، فاتحا ذراعيه، ليضمها إلى صدره، حتى اقترب منها، سلمت عليه، ضمت

يدها يده، تاهت منه روحه، لم يشعر إلا بصوتها العذب، يقول في حزن:

.البقاء لله.. معلش جت متأخرة شوية!

.ولا يهمك.. كل حاجة حلوة بتيجي دايما متأخرة.. وحشتيني أوي

بمجرد أن قال تلك العبارة، حتى شعر بيد خشنة، تربت على كتفه، التفت نحو صاحبها، فوجد رجلا طويل القامة، ممتلئ الجسد، أسمر البشرة، أجعد الشعر، يرتدي نظارة طبية، تطل من خلف عدساتها عيونه الضيقة، وحوله أربعة من الأولاد، ابتسمت علياء، وقالت:

.دكتور هشام.. جوزي.. ودول أولادي.

رحب بهم وقضى لحظات من التعارف، مع غريمه، الذي خطف حبه القديم، رأى السعادة في عينيها، فانتهى كل شيء، وهو يستمع إلى صوت القطار، يعلن عن رحيله، بعدما ألقى في قلبه، وجع ما بعده وجع.

في الطريق من محطة القطار إلى الشقة، عرف خالد سر تلك الزيارة المفاجئة، لم تأت علياء شوقا إليه، لم تأت لتُقديم واجب العزاء، لم تأت لتستكمل قصة الحب القديمة!

إنهم قادمون لإنهاء إجراءات السفر إلى المملكة المتحدة، لقد حصلت وزوجها هشام، على بعثة دراسية في جامعة أكسفورد، وسيسافرون عبر ميناء الإسكندرية البحري، ويطلبون استضافتهم في شقته، حتى الانتهاء من إجراءات السفر.

قبل أن يقتربوا من بناية الأباصيري، كان خالد قد لملم مشاعره، ودفنها في قلبه، على صوت أم كلثوم، يلومها في شجن.. جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح!

- ٦٣ -

دخلوا الشقة، ألقوا بحقائبهم على الأرض، ارتموا على الأريكة، في تكاسل واضح، بينما وقفت علياء، أمام صورة عمها (أبو خالد)، ترحمت عليه وقرأت الفاتحة، وقف خالد بجوارها، قلبه يصعد ويهبط، لم يتخيل تلك اللحظة التاريخية منذ فراقهما، خرجت عليهم سعدية من المطبخ، مشمرة ذراعيها في نشاط

. الغدا جاهز يا خالد بيه.

دعاهم خالد إلى مأدبة الغداء، فشكرته علياء، بينما هرول زوجها وأولادها نحو المائدة، على صوت جرس الباب، هرولت سعدية، نحو الباب وفتحته، فوجدت أمامها سيدة سمراء البشرة، مُستديرة الوجه، فارعة الطول، مُمتلئة الجسد، سألت سعدية على استحياء:

. أستاذ خالد موجود؟

اقترب خالد من الباب، رأى أخته هيام، فابتسم في وجهها، دعاها للدخول، فبادلته الابتسامة، لكنها حينما رأت علياء، أبدت اعتذارها الشديد، لحضورها في وقت غير مناسب، طلبت منه إحضار بطاقتها الشخصية، التي نسيتها في مكتبه بالمدرسة، فقال لها خالد في ترحيب:

. طيب أدخلي.. معقولة تقفي على الباب كده.. في أول مرة تزوريني فيها؟

دخلت على استحياء، تتأمل الشقة الواسعة، وعلياء تنظر إليها في ذهول، ما أن خطت عدة خطوات، حتى اصطدمت عيناها بصورة والدها، وقفت

أمامها طويلا، شعرت بالدموع تحاول أن تهطل من عينيها، فهربت إلى الصالة، جلست على الأريكة، بينما دخل خالد غرفته، يُفتش في أدراج مكتبه، عن بطاقتها الشخصية حتى وجدها، فخرج إلى الصالة، فوجد هيام جالسة بجوار علياء، الصمت يخيم عليهما، أعطى لهيام بطاقتها، وطلب منها، أن تشاركهم الغداء، لكنها اعتذرت بشدة، نظرت إلى علياء وقالت:

. مراتك جميلة يا خالد!

شعرت علياء بالخجل، فكرت أن ترد عليها، لكنها نظرت إلى خالد، الذي أطلق ابتسامة خجل، تدخل لتصحيح سوء التفاهم، طلب منهما، أن يجلسا على مائدة الطعام، حتى يشرح لهما، أبعاد سوء التفاهم.

جلسوا جميعا على مائدة الطعام، فاكتشف خالد، أن زوج علياء وأولادها، قد انهوا على نصف طعام المائدة، شعرت علياء بالخجل، نظرت إلى زوجها نظرة عتاب، فشعر بالإحراج، قال والطعام يتطاير من فمه:

. بصراحة الأكل حلو أوي.. تسلم أيد المدام..

فضحك خالد، كما لم يضحك من قبل، أخبره أنها الشغالة.. فلم يُبد أي تعليق، واستمر في تناول الطعام، وخالد يشرح لعلياء، أن هيام أخته، وأخبر هيام، بأن علياء ابنة عمهما، انتهز تلك الفرصة، لتعرف علياء أبعاد تلك الزيجة السرية، بين والده وأم هيام، فبدأت هيام في سرد القصة.

كان لوالدها عبد الحميد، صديق يعيش في الأزاريطة، توفى في ريعان شبابه، تاركا زوجة، وثلاث بنات في أعمار متقاربة، شعر بالمسئولية تجاه زوجة صديقه وبناته، فكان يتردد عليهن طوال الوقت، يُحضر لهن الطعام، ويُعطي لزوجة صديقه الأموال اللازمة، حتى بدأ الجيران يتهامسون، على ذلك الرجل، الذي يزور تلك الأرملة الشابة بانتظام، رفضت المرأة اتهامات

الجيران الباطلة، خشيت على سمعة بناتها، فطلبت منه الامتناع عن زيارتها، فهم عبد الحميد، ما يجول بخاطرها، فشعر بالذنب تجاهها، فعرض عليها الزواج، لكن المرأة رفضت في البداية، خشية أن تُسبب له مشاكل مع زوجته، ولكنه أصر على الزواج منها، وكانت هيام نتاج لتلك الزيجة، وصار لتلك السيدة أربع بنات.

مرت السنوات، وعرفت أم خالد، أن زوجها يتردد على شقة بحي الأزاريطة، لكنها فشلت في التأكد من الحقيقة، كان والدها يشكو دائما، من تحول مزاج زوجته أم خالد، ودخوله معها في صراع مرير، حتى تدهورت صحته، دخل في مشاكل مع القلب، انتهت بوفاته، وكانت وصيته الأخيرة، أن يظل موضوع زواجه سرا بعد موته، فلم تظهر أمها، في حياة أم خالد مطلقا، رغم تدهور الأحوال، بعد وفاة والدها، فلجأت أمها إلى العمل، حتى كبر بناتها وتزوجن.

رغم شوق هيام لرؤية أخيها خالد، لكنها خشيت من رد فعل أمه، ومخالفة وصية والدها، وما أن علمت بخبر وفاة أم خالد، حتى جاءت لتلتقي بشقيقها الوحيد.

بعد انتهاء الغداء، استأذنت هيام في الانصراف، وتكوم زوج علياء وأولادها، في غُرفة النوم، بينما تجولت علياء في أرجاء الشقة، دعاها خالد إلى غرفته، دخلت تتأمل تلك المكتبة العامرة بالكتب، ذلك البيانو القابع في الغرفة، تلك القطة التي ترقد فوقه، مررت أصابعها على البيانو، فاصدر صوتا جميلا، وقفت في الشرفة بجواره يتأملان بناية ليليان، التي صارت أشلاء بناية، يتذكران ذكرياتهما معا، التقت أعينهما، فسألها في حزن:

. ليه انتهت قصة حبنا بالقسوة دي يا علياء؟

التفتت نحو البحر، سرحت قليلا، ثم ابتسمت، طلبت منه عدم التقليب في

الدفاتر القديمة، لقد كان صعبا عليها، أن تترك الإسكندرية، عشقها الأول، لكن والدها أصر على الرحيل، لقد كان لوفاة أخيه، أثر سيء على حياته، كان بمثابة والده، اعتبر أم خالد السبب في موته، بغيرتها وجنونها، فقرر أن يقطع كل علاقة بها، لقد قاومت علياء كثيرا، فكرة زواجها من غير خالد، لكن والدها أجبرها على كتابة خطابها الأخير، الذي أنهت به قصة حبهما، لقد تعرضت لضغوط شديدة، وحتى اللحظات الأخيرة قبل الزفاف، انتظرت خالد أن يأتي، ويُنقذها من تلك الزيجة، لكنه استسلم بسهولة، تركها بمفردها، فلم تجد غير الرضوخ.

في الصباح، خرجت علياء بصحبة زوجها، لإنهاء إجراءات السفر، بينما تركت أولادها مع خالد، فطلبوا منه أن يخرجوا إلى البحر، فأخذهم في جولة في الشاطبي، شعر بسعادة بالغة، ندم كثيرا على تأخره في الزواج، لقد حرم نفسه من تلك المُتعة، أن يكون له أبناء، يحملون اسمه، ويملئون الدنيا من حوله، عادوا من الجولة سعداء، فوجدوا علياء وهشام، يقفان أمام باب الشقة، في انتظار عودة خالد، فاعتذر إليهما، دخلوا جميعا الشقة، شعر خالد بالصدمة حينما أخبرته علياء، أنهم سيسافرون غدا صباحاً، على الباخرة المتجهة إلى بريطانيا.

في الصباح الباكر، والشمس تختفي خلف الغيوم، وعلى شاطئ البحر، استند خالد إلى حاجز ميناء الإسكندرية البحري، بينما أخذت المسافة بينه وبين الباخرة التي تحملهم نحو الشمال، تزداد اتساعا رويدا.. رويدا، راح يتأمل علياء وأولادها، الذين يلوحون بأيديهم في الهواء، حتى اختفوا عن عيونه الغارقة في الدموع.

ـ٦٤ـ

وقف في الشرفة وحيدا، يترامى البحر بزرقته الصافية إلى غير نهاية، غمرته ريح مُنعشة، فانشرح صدره، رغم الحزن الذي يطوقه، يفكر في عشرات الذكريات، يُتابع حركة الشارع التي لا تهدأ، البحر الممتد بلا حدود، الشمس التي تأتي وترحل، بلا كلل ولا ملل، جو الشتاء البارد الحزين، الحنين إلي أحبابه، حزنه الشديد على بناية ليليان، التي تم تسويتها بالأرض، زالت من الوجود نهائيا، والسماء تبكي عليها بغزارة، سكان البناية، الذين شاركهم حياتهم، مشاكلهم، أفراحهم، أحزانهم، لكنهم في النهاية تركوه ورحلوا بلا عودة.. تذكر علياء، مريم، سهير، عواطف، مروة، تذكر أمه التي أخذت روحه ورحلت، تمنى أن يلقاها في القريب العاجل! كل هذا يرغمه على الهروب إلى الشارع، السير تحت زخات المطر، ليغسل قلبه من أحزانه.

لماذا تركت مريم له بقاياها؟ القطة المسكينة، المكتبة العامرة بالكتب، والتي اعتاد أن يفتش بداخلها عن كتاب يقرأه، البيانو العتيق، الذي حاول عبثا، أن يتعلم العزف عليه، لكنه فشل بامتياز، فاعتاد الجلوس أمامه، يلمس أصابعه التي مرت عليه أصابع مريم، يشتم رائحتها، يحن إليها.. لماذا تركت لي بقاياك؟

رغم ظهور هيام، لكنها لم تغير من حياته شيئا، جاءت لتكشف أبعاد تلك الزيجة السرية، جاءت لتُعلن براءة أمه أمام علياء، من التهمة التي التصقت بها، ثم اختفت من حياته.

دُق جرس الباب، تكاسل عن التحرك من مكانه، ليس لديه رغبة في مقابلة أحد، يبدو أنها سهير، عادت من جديد، أو أنها أخته هيام تذكرته من جديد، جاءت لتسال عنه، أو لعله سمير، جاء ليُسمعه تلك الاسطوانة، التي مل من سماعها، عن الحال الذي وصل إليه، نصائحه المتكررة، أن يجد له زوجة، لتعيد ترتيب حياته من جديد. رفض القيام لفتح الباب، لكن الجرس ألح عليه في القيام، هرولت القطة نحوه تموء بشدة، تُجذبه من ملابسه، تزوم وتزمجر، تتوسل إليه أن ينهض.

قام في تكاسل واضح، ما أن فتح الباب حتى صُدم، انتفض جسده، تجمدت مفاصله، تسارعت نبضات قلبه، شعر بدوار يضرب رأسه، لم يشعر إلا وهو يفتح ذراعيه، ليستقبل ذلك الحضن الدافئ، الذي حُرم منه، لقد اشتاق إليه كثيرا.

هل عادت بالفعل؟ أم أنه هذيان قلب مشتاق إلى من يملئ حياته؟ ألقت بحقيبتها على الأرض، وبدون أن تمد يدها لمصافحته، ارتمت بين أحضانه، اعتصرت جسده، فحملها بين ذراعيه، شعر بأنفاسها الدافئة، تخترق أنفاسه، ذراعيها تلف جسده، كطفل احتضنته أمه، فكف عن البكاء والخوف والرهبة، بمجرد أن سمع صوتها الرقيق، يهمس في أذنه:

. وحشتني.

ترك حضنها، متأملا عيونها البنية الواسعة، التي ترقرقت منها الدموع، مد أصابعه، مسح دموعها، قال في شوق المشتاق:

. وأنتي وحشتيني أكثر يا مريم.

حمل حقيبتها نحو الداخل، دعاها للدخول، اصطدمت قدمها وعيونها

وأذنيها بقطتها، حملتها واحتضنها بشدة، قبلتها ومسحت على شعرها، تلفتت في أرجاء الشقة، شعرت بالاشمئزاز من حالة الفوضى، التي يعيش فيها، تناثرت التساؤلات من فمها، فتشت عن أم خالد بعيونها، فلم تجدها، سألت خالد عنها، فطأطأ رأسه حزناً، أشار إلى صورتها المعلقة على الحائط، أخرج علبة سجائره، أشعل سيجارة.

دعاها إلى الجلوس في الشرفة، ما أن خرجا إلى الشرفة، حتى رأت أمامه، عدة أقداح من القهوة، تتناثر حولها بقايا السجائر، من الواضح أنه أصبح مدخنا ثقيلا، صار مهموما متعكر المزاج، أنهى السيجارة الواقفة بين أصابعه، ثم ألقاها في قاع أقرب فنجان قهوة، أشار إلى أطلال بناية ليليان، فشعرت بالحُزن والأسى، اعتذرت إليه بشدة، لأنها تركته وسط الريح، التي اقتلعت حصونه، وهربت بنفسها إلى المجهول الذي ضيعها!.

لقد عاد أخوها مايكل إلى مصر، لكي يبيع الشقة، ويحصل على الدولارات، ثم يُلقي بأمه وأخته في إحدى الشقق الرخيصة، ثم يعود إلى الولايات المتحدة، لكنه حينما أيقن، بأن مريم قد اكتشفت مخططه، أخذهما معه إلى الولايات المتحدة، في زيارة لمدة عام، وصلا إلى بيته بولاية فلوريدا، وقابلا زوجته فرنشيسكا، التي لم تكن تُخطط مطلقا، أن يجلب مايكل أمه وأخته معه، لقد اتفقت معه، أن يُسافر إلى مصر، ليُجلب الدولارات ثم يعود، بدأت المشاكل بين مايكل وزوجته، ومع كل مُشاجرة، كان مايكل ينقلب على أمه وأخته، مُوجهاً الاتهامات إليهما، بأنهما السبب في تلك المشاكل.

لقد حولت زوجته حياتهما إلى جحيم لا يُطاق، كانت تعاملهما معاملة سيئة، وضعتهما في غرفة سيئة التهوية، كانت بمثابة مخزن قديم، منعت

أولادها من الاحتكاك بهما، لم تستطع أم مايكل تحمل الوضع، ندمت أشد الندم، على بيع شقة بناية ليليان، وقدومها إلى الولايات المتحدة، أرادت أن تعود إلى مصر، ولكن أين ستعيش؟ بعدما جردها مايكل من شقتها، واستولى على ثمنها، وألقاه تحت أقدام زوجته. احتدم الصدام بين أم مايكل وزوجة أبنها، حتى سقطت أثناء إحدى تلك المشاجرات، أمسكت بقلبها، حاولت مريم إسعافها، لكن روحها صعدت إلى الأعالي في سلام.

لم تجد مريم، مكانا لها في تلك البلاد الغريبة، لم تستطع الحصول على وظيفة، أو حتى زوج تعيش معه، بعيدا عن أخيها وزوجته، فقررت العودة إلى مصر، رحب مايكل بذلك أشد ترحيب، لم يسألها أين ستعيش، وكيف ستعيش؟ بعدما جردها من حقها، واستولى على ثمن الشقة، لقد رضخ لرغبة زوجته فرنشيسكا، وارتاح من عناء أمه وأخته إلى الأبد!.

خلال أيام، كانت على متن أول طائرة عائدة إلى مصر، وها هي تقف أمام خالد، بحقيبة ملابسها، لم تجد غيره أمامها، بعدما ضاقت بها الدنيا، طلبت مساعدته في العودة إلى المدرسة، أن يجد لها سكنا مؤقتا، تعيش بين جدرانه. ظل خالد يتأمل ملامحها في صمت، حتى انتهت من سرد تفاصيل ما حدث لها، ربت علي يدها، ثم سرد عليها ما حدث له، منذ أن تركته ورحلت، حتى فتح لها باب الشقة منذ دقائق، حدقا في عيون بعضهما البعض، ثم انفلتت الضحكات من بين شفتيهما، تحولت إلى ضحك هستيري، قالت في تهكم:

.اتلم المتعوس على خايب الرجا!

تعالت نوبات الضحك من جديد، وهما يضربان أيد بعضهما البعض، حتى صمت الاثنان فجأة، على نظرات خالد الحانية في عيون مريم الحزينة، ثم قال في جدية:

. تجوزيني يا مريم!

كانت الدَهشةُ هي العالم الكبير، الذي ابتلعها، فلم تنطق بكلمة، تلفتت حولها، شعرت بنبضات قلبها تتسارع، وجنتاها تحولتا إلى الحُمرة، اتسعت عيونها من فرط الدهشة، صمتت كقبر، وكأنها تفكر، أو لم تستوعب ما قاله، التفتت نحوه، فوجدته صامتا، ينتظر الرد في لهفة، التفتت تأملت بقايا بناية ليليان، تطلعت إلى البحر المتسع، الشمس التي تتحول إلى الغروب، نسمة الهواء الباردة، التي هبت عليهما، فحركت شُعورهما، أمسك يديها، احتضن كفها، التقت أعينهما من جديد، انفلتت من بين يديه، هرولت نحو البيانو، بأصابعه السوداء البارزة، وأصابعه البيضاء المنخفضة، التفتت نحو خالد، وعزفت لحن أغنية فيروز.. شط إسكندرية يا شط الهوا..

فهرس

١. ..... ٥
٢. ..... ١٠
٣. ..... ١٤
٤. ..... ١٧
٥. ..... ٢٠
٦. ..... ٢٣
٧. ..... ٢٦
٨. ..... ٢٩
٩. ..... ٣٣
١٠. ..... ٣٥
١١. ..... ٤٢
١٢. ..... ٤٥
١٣. ..... ٤٨
١٤. ..... ٥٢
١٥. ..... ٥٧
١٦. ..... ٦٠
١٧. ..... ٦٤
١٨. ..... ٦٦
١٩. ..... ٦٩
٢٠. ..... ٧١
٢١. ..... ٧٧
٢٢. ..... ٧٩
٢٣. ..... ٨٤
٢٤. ..... ٨٧
٢٥. ..... ٩٠
٢٦. ..... ٩٣
٢٧. ..... ٩٦
٢٨. ..... ٩٨
٢٩. ..... ١٠٤
٣٠. ..... ١٠٦
٣١. ..... ١٠٩
٣٢. ..... ١١١

٣٣. ..... ١١٤
٣٤. ..... ١٢١
٣٥. ..... ١٢٣
٣٦. ..... ١٢٦
٣٧. ..... ١٢٩
٣٨. ..... ١٣٢
٣٩. ..... ١٣٥
٤٠. ..... ١٣٧
٤١. ..... ١٣٩
٤٢. ..... ١٤١
٤٣. ..... ١٤٥
٤٤. ..... ١٤٨
٤٥. ..... ١٥١
٤٦. ..... ١٥٣
٤٧. ..... ١٥٦
٤٨. ..... ١٥٩
٤٩. ..... ١٦٤
٥٠. ..... ١٦٨
٥١. ..... ١٧٢
٥٢. ..... ١٧٤
٥٣. ..... ١٧٦
٥٤. ..... ١٨٠
٥٥. ..... ١٨٥
٥٦. ..... ١٨٨
٥٧. ..... ١٩١
٥٨. ..... ١٩٦
٥٩. ..... ١٩٩
٦٠. ..... ٢٠٥
٦١. ..... ٢٠٩
٦٢. ..... ٢١٢
٦٣. ..... ٢١٩
٦٤. ..... ٢٢٣

عن الدار ومشروع النشر الحر

لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

إصدارات المشروع: 618

للتواصل مع الدار والمشروع

هاتف / واتسآب

+2 01091985809 +2 02/ / 37390893

الموقع الإلكتروني

www.lotusfreepub.com

البريد الإلكتروني

Lotusfreepub@gmail.com

lotusfreepub

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو ٢٠١٧

جمال عبد الله مصطفى

البناية ليست جدران وأبواب ونوافذ عتيقة، بل تاريخ وذكريات، إرث لا يمكن التفريط فيه، تلك الروح المقدسة التي تمتلكك حتى النخاع، تخشى أن تفارقها أو تفارقك، إنها الأفراح والأحزان والحكايات والأغاني والترانيم، صوت البحر والترام، صوت سيد درويش، أصوات أجراس الكنائس مع آذان الفجر، إنها الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط التي عاش فيها جميع أجناس الأرض في أمان وسلام، إنها الماضي والحاضر والمستقبل.

بناية ليليان

رواية

مشروع النشر الحر - الإصدار رقم
618
لوتس